تاريخ التعذيب

دراسة

الطبعة الرابعة

بيرنهاردت ج. هروود

ترجمة: ممدوح عدوان



هل يتطوَّر الإنسان، حقًّا، نحو مستوى حضاري أسمى؟ أم أننا اليوم متوحشون مثلما كنا في فجر التاريخ؟

هذا الكتاب ميثاق للضراوة وسجل للفظائع الوحشية التي اقُترفت، حتى باسم الدين والعدالة إن الوقائع مرعبة، ولكن ما من وصف، مهما بلغت دقته وحيويته، يستطيع أن يصف الحقيقة التي لم تُقلْ.

هذا الكتاب يهدف إلى أن يَصدم، فالبشر في حاجة إلى أن يُصدموا من خلال إدراكهم لقدرتهم على الضراوة.






ISBN 978-9933-540-25-8
9 789933 540258 >

تاريخ التعذيب



Torture Through the Ages

by: Bernhardt J. Hurwood

تاريخ التعذيب - دراسة

تأليف: بيرنهاردت ج. هروود
ترجمه عن الإنكليزية: ممدوح عدوان
التدقيق اللغوي: عمر الخولي
الإخراج: فايز علام
تصميم الغلاف: ليلى شعيب
ISBN: 978 - 9933 - 540 - 25 - 8
الطبعة الرابعة: 2017

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

سوريا - دمشق - ص ب: / 9838/
هاتف-فاكس: / 6133856/ 11 00963
جوال: 00971557195187
البريد الإلكتروني: addar@mamdouhadwan.net
الموقع الإلكتروني: addar.mamdouhadwan.net
twitter.com /AdwanPH fb.com /Adwan.Publishing.House

بيرنهاردت ج. هروود

تاريخ التعذيب

دراسة

ترجمه عن الإنكليزية:
ممدوح عدوان

فهرس المحتويات

الإهداء

إلى ضحايا التعذيب الذين لا تُحصى
أعدادهم في العالم، أمس واليوم وغداً

* * *

في أعمق أعماق طبيعتنا البشرية البائسة
يكمن حب الدماء،
من مخلَّفات الوحش البدائي
الذي توارى لحسن الحظ
قبل فجر العصور الأفضل

«مجهول»

تمهيد

في كتاب كهذا، صغير نسبياً، يستحيل إيراد كل جانب من جوانب الموضوع. لقد كُتبتْ مئات المجلَّدات عن ألمانيا النازية وحدها. ولكي تكتمل قائمة المراجع المتعلقة بالتعذيب، لا بدَّ من أن يكون حجمها موسوعياً.

وأكثر من ذلك، فإنه حتى في الوقت الذي نكتب فيه هذه الكلمات، هناك دم جديد يُسفك في مكان ما من العالم. وهناك مهانات جديدة يوقعها بشر على رؤوس بشر آخرين. ولا يحتاج المرء إلى ذكر التجويع المنظم لأهل بيافرا - تلك المأساة التي يجب أن تُكتب عنها كتب كاملة. ولكن ليست هناك أهمية لأي تمييز بين من هم الجلادون ومن هم الضحايا، فالعنف يطغى على التفاصيل كلها. وحين ننظر إليها نظرة مستوضحة لا نرى إلا صورة الإنسان - هي صورة واحدة متكررة.

إننا نقرأ عن إرهابيي الفيتكونغ الذين قطعوا الرؤوس وانتزعوا الأحشاء وقاموا بعمليات إخصاء وقطعوا الأوصال لضحاياهم. وهؤلاء كما يقال لنا، هم الذين يحذرون الفلاحين الفيتناميين: "بلغوا بناتكم إننا نسلخ، وهي حية، أي بنتٍ نراها مع أمريكي". ولكن انتظرْ. لا تسترخِ باعتدادٍ وتفترض أن الأشرار كلّهم في الجانب الآخر. فنحن، الطيبين، نسجِّل بعض النقاط الخاصة بنا. إن عشرات من القرى قد أُحرقت عن بكرة أبيها وأعداداً لا

تحصى من الفيتناميين الجنوبيين الأبرياء قد صفَّهم جنودنا على الجدران ثم أطلقوا عليهم النار لأن القرى كانت (مشتبهة) بإيواء العدو. والجنود الذين قاموا بإطلاق النار هم أبناء الأمريكيين أنفسهم الذين كرهوا الجنود الألمانيين لأنهم، قبل ما يزيد عن عشرين سنة، ارتكبوا أعمالاً مشابهة.

هل من الممكن أن يتوقف الأمر؟! وهل ستتعلم في حياتنا كلها؟! إنه ليبدو محتملاً أن يقوم مواطن من بروكلين بإرسال رسالة إلى "نيويورك تايمز" ليقول فيها باختصار: "حين يعذب الفيتناميون سجيناً من الفيتكونغ فإنهم لا يفعلون ذلك لإشباع أية دوافع سادية أو للقيام بمجزرة جماعية للشعب كله" ويوضح ذلك الرجل الذي يعيش في بروكلين المتحضرة، حيث تستطيع اليوم أن تعيش حياتك كما تشاء وأن تتمشى وحدك في الشوارع ليلاً، فيقول: لا. الفيتناميون يعذبون سجناءهم لأن عليهم أن يفعلوا ذلك. إنه تكرار للفكرة الممجوجة القائلة إن كل شيء يستمر طالما أننا نحن نقوم به.

ولكن هذا المفهوم، المقبول على نطاق واسع والمعتبر صحيحاً، يولد فكرة أخرى مخيفة، في مكان ما، وفي أماكن متفرقة ومختلفة من العالم، هناك آخرون يفكرون في ما يفعلونه. بعضهم يربضون في الأدغال وهم يمسكون ببنادقهم الصغيرة ويزحفون لمهاجمة أعدائهم. وليسوا، كلهم، أمريكيين؛ قد يكون بعضهم جنوداً روسيين يحرسون الحدود الغربية لتشيكوسلوفاكيا، وربما كان بعضهم يؤدون عملهم التقليدي المشابه في الصين أو في كوريا الشمالية أو في فيتنام الشمالية، وربما كانوا مجرد مدنيين عاديين يستمعون إلى إذاعة دعائية أو يقرأون صحفاً وحيدة الرأي. والمسألة التي يجب أن نتملاها هي أن هؤلاء قد قيل لهم إنهم هم الطيبون. والأكثر أهمية من هذا أنهم يصدقون ذلك.

لا بدَّ من وجود جواب في مكان ما. لم يمر وقت طويل بعد على

الحكم على ستة عشر حارساً سابقاً لمعسكرات الاعتقال في أوشفيتز بأحكام عن محكمة في ألمانيا الغربية لمشاركتهم في ملايين جرائم القتل. فارتاحت ضمائر قليلة. ولكن ماذا عن الشهود، النزلاء السابقين الذين حكوا "كيف قُتل زملاؤهم المساجين بطرق لا تُعدُّ ولا تُحصى - وكيف كان حرس أوشفيتز يضربونهم ويرفسونهم ويجوّعونهم ويعذّبونهم حتى الموت. وكيف أجبروا السجناء على قتل آبائهم وأمهاتهم وأخوتهم؟".

وبعد ذلك، في 29 تشرين الثاني من عام 1968، حُكم على سبعة عناصر سابقين من الإس إس في محكمة بألمانيا الغربية في دار مستادت بخمسة عشر عاماً لكل منهم لمشاركتهم في قتل ثمانين غجرياً ويهودياً وروسياً.

ماذا عن أولئك الناجين الذين تشوَّه معظمهم طيلة ما تبقى من حياتهم، أولئك الذين استهلكوا دموعهم كلها، والذين هبُّوا واقفين في قاعة المحكمة وصرخوا يطلبون الانتقام؟ ماذا نقول لهم؟! بل إن ما هو أكثر أهمية هو: ماذا نقول لأنفسنا؟!

هل هناك أمل أن يتغير الإنسان؟!

بيرنهاردت ج. هروود

نيويورك 1968

التعذيب في العصور القديمة

يجد الإنسان العادي، حسن النية، نفسه مضطراً لإثبات نبل البشر، أو على الأقل تفوق البشر على المخلوقات الأخرى. وكلّما هيمن هذا الدافع على أولئك المدافعين المخلصين عن فضائل الإنسان تم اختيار أمثلةٍ ساطعة. وتُنتقى هذه الأمثلة دائماً من مراتبِ أشباهِ القدّيسين الذين تجعلهم شجاعتهم وضبطهم لأنفسهم وفضيلتهم الشاملة يكادون يكونون أكثر طيبة من أن يكونوا حقيقيين. وبعد أن يتم تعريفنا بنماذج كهذه يقال لنا: "وهذا ما يميز الإنسان عن الحيوانات".

وهذا صحيح غالباً. ولكن لسوء الحظ ـ هذه نقطة لا يحب صديقنا حسن النية أن يمعن النظر فيها – هناك مواصفات أخرى تميز الإنسان عن الوحوش. فالوحوش لا تقتل المخلوقات الأخرى "لمجرد الابتهاج". والوحوش لا تبني معسكرات اعتقال أو غرف غاز. ولا تعذب الوحوش أبناء جنسها إلى أن تهلكهم ألماً. ولا تستنبط الوحوش متعة جنسية منحرفة من معاناة أقرانها وآلامهم. إن ثمرات الحضارة، تلك، تميز، فعلاً، الإنسان عن الحيوانات.

ما من أحد يستطيع أن يحدد بثقة مطلقة، متى مورس التعذيب أوّل مرة. بالنسبة إلى الاستخدام الرسمي، لا ذكر للتعذيب في القانون البابلي أو الموسوي. غير أننا نعرف أن كلاً من البابليين والعبرانيين القدامى كانوا

يَخْصون الأسرى من الأعداء، وكانوا يعدمون المجرمين بالرجم أو بالنشر إلى نصفين أو بالحرق. وكانت لدى الآشوريين والمصريين تدابير تشريعية لاستخدام التعذيب مثلما كان الأمر عند الفرس والإغريق والقرطاجيين والرومان.

كان الإغريق يعتبرون التعذيب وسيلة لانتزاع الحقيقة. وقد دعاه أرسطو "نوعاً من الدليل الذي يحمل معه مصداقية مطلقة لأن نوعاً من الإكراه قد تمت ممارسته".

ومن الواضح أن ما غفل الفيلسوف عن إدراكه هو أن هناك الكثيرين ممن سيعترفون بأي شيء بعد أن يتم تمديدهم وتكسيرهم وهم أحياء. وعلى الرغم من أن معاملة كهذه كان يخص بها العبيد والأسرى عادة، إلا أن المواطنين الأحرار كانوا في كثير من الأحيان يعذبون على المخلّعة وفي الكرة النحاسية (سيتم الحديث عنها بعد قليل) وعلى العجلة.

يشير وصف العجلة الذي قدمه المؤرخ فلافيوس جوزيفوس إلى أن استخدامها قد امتد إلى ما هو أبعد من حدود اليونان بكثير. فيحكي لنا كيف كانت تستخدم من قبل السوريين إبان الحروب الماكابية في القرن الثاني قبل الميلاد. لقد رفض أسير يهودي شاب أن يأكل اللحم الذي تحرِّمه عليه ديانته. ولتشبُّثه العنيد بمعتقده، حتى بعد الضرب الشديد، ثُبِّت الولد على المحيط الخارجي لعجلة كبيرة. وراح جلادوه يخلعون مفاصله ويكسرون أطرافه ويمزقون لحمه. وتحت العجلة كان هناك موقد مليء بالجمر المتوهج الذي، كما يقول المؤرخ، أُطفئ تماماً بسبب النزيف الغزير من جسم الضحية. ونحن نعرف دون شك أن الإغريق كانوا يفضِّلون العجلة والمخلّعة لأن هاتين الآلتين قد ذُكرتا كثيراً في كتابات مشاهير الكتاب من أمثال أريستوفان وأناكريون وبلوتارك. ويصف كاتب إغريقي آخر، هو لوشيان، في (محاوراته) تعذيباً مرعباً أكثر وغير معروف

تماماً. يحكي، بالتفصيل، كيف يخطِّط مجموعة من الرجال للإمساك بعذراء لكي يحشوها في بطن حمار مقتول حديثاً ويخيطوا عليها، ويتضح أن رأسها وحده هو الذي سيكون ظاهراً. وستزداد غبطتهم وهم يراقبون تفاصيل عذابات الفتاة. ليس فقط أنها ستشوى بأشعة الشمس بل ستتعذب جوعاً وعطشاً ونتناً. ويقولون إن ما هو أفضل من هذا كله أن يديها ستكونان محجوزتين داخل الجثة المتعفنة لمنعها من الانتحار. وسيزداد عذابها كلما ازداد التفسخ والتعفن، ستعذبها الديدان المتضورة. وفي النهاية حين تأتي الطيور لتأكل اللحم المتفسخ فإنها ستأكلها حية خلال ذلك. ويضيف لوشيان: "وافق الجميع على هذا الاقتراح الرهيب وبدأوا بالإجماع وضعه موضع التنفيذ".

وأحد أهم إبداعات الإغريق في التعذيب هو التعذيب بالكرة النحاسية التي سبق ذكرها، وهي عبارة عن كرة نحاسية مجوفة لها باب في جانبها وفتحات للفم والأنف. تقول الأسطورة إنها من اختراع رجل أثيني اسمه بيريلوس. ويقال إنه قد ابتكر هذه الآلة الوحشية للتقرب من فالاريس طاغية أغريجنتوم. وكان أسلوب عملها كما يلي: يقذف بالضحايا داخل الكرة ويغلق عليهم ثم يتم إشعال نار متأججة تحتها. وحين يسخن المعدن كان التعساء البؤساء في داخلها يجأرون كالثيران إلى أن يهلكوا عذاباً. وإذا كان لنا أن نصدق الأسطورة فإنها تقول إن بيريلوس كان أول إنسان يموت باختراعه وبأمر من الرجل ذاته الذي ابتكرت الكرة كُرمى له. غير أن متابعة تراث العدالة الخيالية توصلنا إلى أن الطاغية أيضاً قد واجه نهاية مميزة. فأوفيد وفاليريوس ماكسيموس يقولان إن فالاريس قد أنهك شعب المدينة وأخرجه عن قدرته على الاحتمال. فثار الشعب ضده ورجمه حتى فقد الوعي ثم قطع لسانه وألقى به في الكرة النحاسية حيث مات كما عاش.

وربما كان "سكافيسموس" أكثر وسائل التعذيب القديمة وحشية، وهو

ما يسميه بلوتارك "العقاب بالقوارب" وأدق وصف له ما جاء في ما كتبه زوناراس، وهو مؤرخ بيزنطي من القرن الثاني عشر، يقول: "يتجاوز الفُرس الهمج الآخرين في أنهم، بالوحشية الرهيبة لعقابهم، يطبّقون أساليب تعذيب غاية في الشناعة وطويلة المدى، وخاصة "القوارب" والتخييط على الرجال داخل الجلود. ولكنني سأشرح ما هو المقصود بـ"القوارب" للقرّاء الذين لا يعرفون. يُربط قاربان معاً، أحدهما فوق الآخر، وفيهما ثقوب تسمح لرأس الضحية ويديها وقدميها أن تظل خارجاً. ويوضع الرجل الذي ستطبق عليه العقوبة بين القاربين بحيث يكون ممداً على ظهره ثم يثبت القاربان بالمسامير والأحزمة. وبعد ذلك يسكبون مزيجاً من الحليب والعسل في فم الرجل المنكود حتى يمتلئ إلى درجة الإقياء. ثم يدهنون وجهه وقدميه وذراعيه بالمزيج ذاته وبعدها يتركونه تحت الشمس. يتكرر هذا كل يوم وتكون النتيجة أن الذباب والدبابير والنحل، التي تجذبها الحلاوة، تحط على وجهه وعلى الأجزاء الأخرى من جسده المكشوفة خارج القارب فتعذب الرجل المنكود وتلدغه حتى الإعياء. والأكثر من ذلك إن بطنه، المنتفخة بالحليب والعسل، تتبرز برازاً سائلاً تنتج عنه بعد التعفن حشود هائلة من الديدان من كافة الأنواع والأشكال. وهكذا فإن الضحية الممددة بين القاربين، والتي يتفسخ لحمها داخل قذارتها نفسها وتتعرض لالتهام الديدان لها، تموت ميتة طويلة ورهيبة. وبهذه الميتة يقال إن باريزاتيس، أم أرتاكسيركسيس وسايروس، أعدمت الرجل الذي كان يتباهى بأنه قد قتل ابنها سايروس الذي كان يتنافس وأخاه على العرش. وظل يتحمل العذاب أربعة عشر يوماً قبل أن يموت. وتلك هي طبيعة "سكافيسموس" أو التعذيب بالقارب.

ويصف أريستوفان نوعاً آخر من "التعذيب بالقارب" وهو يسميه "سايفون"، على الرغم من أنه يبدو، بالمقارنة مع نظيره الفارسي، لطيفاً،

حيث توضع الضحية عارية على المشهرة[1] وكانت، أيضاً، تُدهن بالحليب والعسل لكي تظل عرضة للسعات الحشرات وعضاتها. فإذا ظلت حية لمدة عشرين يوماً يتم إنزالها وتوضع عليها ملابس نسائية ثم يلقى بها على رأسها من فوق جرف عال. وكان المعتقد أن هذا هو الحد الأقصى من التحقير.

ولقد كان المشرِّعون الرومان، شأنهم في ذلك شأن أسلافهم الإغريق، يقدمون تبريرات لاستخدام التعذيب. فمثلاً كانت القواعد والإجراءات مطبقة، في البدء، على العبيد والأسرى والمجرمين والجنود المتمردين، عملياً لم يكن للفئات الثلاث الأولى أية حقوق، أما الفئة الرابعة فكانت تخضع للسلطة المطلقة، بما في ذلك حق الموت والحياة، الممنوحة لرؤسائها، ولقد كان من المألوف في الجيوش الرومانية أن الجندي يجب أن يرهب ضباطه أكثر مما يرهب عدوه. ونتيجة لذلك كان التدريب والنظام في الفرق الرومانية مطبقين بطريقة مدهشة. ونادراً ما كان يذكر أن تكون هناك حاجة إلى اللجوء إلى العقوبات القاسية. ففي معظم الأحوال كان الجنود مطواعين تماماً ومقتنعين تماماً بضرورة عدم خرق النظام. ولم يتقوض النظام العسكري إلا بعد أن انهارت الإمبراطورية الرومانية نفسها. ولكن هذه قصة أخرى.

وكان التعذيب في روما، مثلما كان في اليونان، يستخدم، أصلاً، كوسيلة لانتزاع الشهادة من الشهود، وكانت الأساليب التي اتبعها الجلادون الرومان، في البدء، هي نفسها التي كان يستخدمها الإغريق بشكل عام. وكما فعلوا في الميادين الأخرى، كان الرومان يأخذون مبادئ أساسية عن الإغريق ثم يشذبونها ويطورونها ويوسعونها.

---

(1) المشهرة: آلة خشبية يصلب عليها الإنسان واقفاً من فتحات لرأسه ويديه.

لقد كان الرومان مهندسين بارعين. وعبقريتهم التي تجلت في بناء الجسور والأقنية والمسارح والمدرجات هي نفسها التي طُبِّقتْ، وبالمزاج نفسه، على أدوات التعذيب. فإحدى التجديدات الرومانية على المخلّعة هي "الحصان الخشبي". وهو أداة غريبة ذات أربعة قوائم تكاد تشبه مسند النشر عند النجار أو الذي تستخدمه الشرطة كحاجز مرور. إلا أنه كان على علو ستة أقدام. القطعة المتعارضة الطويلة في الأعلى هي للضحية. وعلى كل جانب توجد بكرتان، وكانت الحبال تربط إلى ذراعي الضحية وساقيها وتمر على البكرات ثم تربط إلى المحور الرحوي قرب القاع، وكان يعمل باليد. وكان من السهل على عاملين أن يوجها نهايتي الحبل في اتجاهين متعاكسين بحيث تشدان الضحية بما يكفي لتسبيب آلام شديدة دون التسبب في أذى دائم.

فإذا صمد شاهد معارض على الحصان الخشبي -ولنقل إنه عبد جسور اختار ألا يتكلم- فإنه سرعان ما كان يخضع لمعاملة أشد قسوة. حيث يترك على الحصان. ويضاف إلى ذلك تمزيق لحمه بمحثات ذات أسنان حديدية، أو يكوى بصفائح حديدة محمّاة. فإن لم يقتله ذلك فإنه على الأقل يحل عقدة لسانه. أما الأسلوب الأقل قسوة، إلا أنه مساو في فعاليته القسرية، فقد كان "العقارب" أو الجلد بسياط ذات أشواك أو أسياخ أو عقد في نهاياتها. السياط الجلدية ذات الأطراف المتعددة المثقلة في نهايتها بكرات رصاصية كانت شائعة الاستعمال مثلما كانت شائعة تلك الكلابات المشابهة للملاقط المستخدمة في المواقد الحديثة. كان لها أسنان حادة وغالباً ما كانت تُحمى ساعات عديدة قبل استخدامها لتمزيق اللحم عن أجساد الضحايا البائسة.

وكانت هناك أدوات يدوية مشابهة هي الخطاف. وكانت مشابهة تماماً للخطافات الكبيرة المستخدمة في التحميل في حمالات السفن الحديثة.

كانت تستخدم لجر المجرمين المحكومين إلى مكان تنفيذ الإعدام. وبعد ذلك كانت الخطافات نفسها تستخدم لجر الجثث عبر الشوارع إلى "كلوكاماكسيما" المجرور الرئيس في روما.

والمثال الأكمل على الإبداع الروماني في مجال التعذيب هو التطبيقات المتنوعة للبكرة. أحدها كان يشبه المخلعة وكان يستخدم كوسيلة للقتل مع الألم. كانت الحبال تربط إلى ذراعي المحكوم وساقيه. وباستخدام البكرات والمحاور على الجوانب الأربعة كان في النهاية يتمزق إلى قطع عديدة وهو حي. وكان آخرون يُرفعون بواسطة بكرة إلى أعلى دعامة طويلة ثم يُلقون بشكل مفاجئ إلى الأرض. أحياناً كانوا يسقطون على أكوام من الحجارة المدببة. فإذا كانوا محظوظين سقطوا على شظايا حادة قتلتهم رأفة بهم لأن سقطة واحدة قد تنهي الموضوع. أما الذين كان يجعلهم حظهم يسقطون على الحجارة فكثيراً ما كانوا يرفعون ويسقطون عدة مرات إلى أن يموتوا موتاً مؤكداً.

وكانت هناك أنواع متعددة للعجلة حسب ما جاء لدى مؤرخي سير الشهداء المتعددين. كان لأحدها مسامير ناتئة على محيطها الخارجي. وعلى هذه المسامير كان يتم تثبيت الضحية المحكوم عليها. وحين كانت العجلة تدور كانت تمر بين مسامير مشابهة تبرز من الأرض مع تلك التي على العجلة. وكانت النتيجة النهائية شبيهة بمطحنة لحم ضخمة. وهذه الآلة أيضاً كانت تسمى "العقرب". وعجلة أخرى دون أية نتوءات من أي نوع. كانت تثبت في مكان فوق موقد تتأجج فيه نار هائلة. وكانت الضحية تربط وكأنها مربوطة إلى مشواة كبيرة ثم توضع على النار لكي تشوى وتطبخ. وبحيث يمكن أن "تتحول إلى خبز جميل ليسوع المسيح".

في كتاب أنطونيو غالونيو "عذابات وآلام الشهداء المسيحيين" هناك قصة قديس اسمه "القديس بانتاليمون" الذي حكم عليه بالموت على

العجلة وبطريقة جديدة تماماً. ظل محتجزاً في السجن حتى صنعت عجلة خاصة. ثم ربط مقيد اليدين والرجلين إلى محيطها الخارجي وحُمل إلى قمة جبل وبعدها تمت دحرجته على السفوح الصخرية حيث كان من المفترض أن يموت ميتة رهيبة، وحسب ما يقول مؤرخ الشهداء هذا، ليس فقط أن القديس قد نجا بل إنه لم يخدش. ولقد نجا من الموت بأعجوبة (ولا نعرف كيف) بينما اندفعت العجلة "بين الكفرة" فقتلت عدداً كبيراً منهم في طريقها.

وربما كان من الأفضل أن نقاطع القصة عند هذه النقطة من أجل العودة إلى تقديمها بوضوح وفي سياقها التاريخي الملائم. ولا بد من تذكر أن معظم صنوف التعذيب الرومانية التي ذكرت حتى الآن كانت مخصصة للمجرمين والخونة وأعداء الدولة الآخرين الذين كانوا، ومن وجهة النظر الرومانية، يشتملون على المسيحيين. ولقد اختار هؤلاء المسيحيون ذلك بإرادتهم إذ فضلوا الاستشهاد على تقديم الولاء للآلهة الرومانية. وكان هذا النوع من التصرف في حينه يعتبر هرطقة بالنسبة إلى المواطن العادي كما كان أي خروج على المسيحية الأرثوذكسية بعد ألف سنة. وقبل أن ننهي هذا الفصل سنتوسع في الجوانب الأكثر غرابة في اضطهاد المسيحيين. وسيتضح كيف أن إجراء قضائياً عادياً قد انحط وسُلم إلى العربدة الشعبية الجامحة، الأمر الذي ساهم بشكل أساسي في انهيار الإمبراطورية القوية.

أيام الجمهورية الرومانية كان الأحرار آمنين، نسبياً، من العقوبة التعسفية. ولكن مع تفشي الاستبداد صارت الضمانات القائمة أقل وأضعف. وبدأت الحقوق المدنية بالانهيار عام 43 قبل الميلاد أيام الحكم الثلاثي الثاني. وكان ذلك مباشرة بعد اغتيال يوليوس قيصر ووصول أوكتافيوس قيصر ومارك أنطونيو وماركو ايميليوس ليبيدوس إلى السلطة. وكانت إحدى الدلائل الأولى المنذرة إبعاد شيشيرون وقتله.

وكان شيشيرون معارضاً عنيفا لأنطونيو. ولكن الأكثر غرابة وشذوذاً بين هيئة الحكم الثلاثي كان أوكتافيوس الذي جعله ضيق تفكيره وتعطشه للسلطة يكسب ألقاب أوغسطس[1] وبنتيفكس[2] والإمبراطور. وحين كان أوكتافيوس ما يزال في الهيئة الثلاثية حدث حادث كان إنذاراً مقلقاً بقدوم أمور أخرى.

قاض اسمه ك. غاليوس سلّم في الطريق على أوكتافيوس. وصدف أنْ كان الرجل يحمل لوحاً مزدوجاً تحت ردائه. وكان أوكتافيوس قد صار إنساناً عصبياً. ولأنه كان يحكم على الناس بما يدور في ذهنه، هو فقد صار متشككاً من المؤامرات. فتصور فوراً أنه رأى سيفاً. وبهذا المنطق قرر أنّ غاليوس كان يعتزم قتله. ودون أن يتريث لمعرفة الحقيقة، أمر أوكتافيوس باعتقال الرجل المنكود وبتعذيبه. ولما كان الرجل بريئاً من التهمة فإنه لم يستطع أن يعترف بشيء. وعلى الرغم من براءته فقد حكم عليه بالموت.

عندما مات أوغسطس تلاه طيباريوس، الإمبراطور الذي لم يعرف عنه اللطف قطعاً. كان مغرماً بمشاهدة أعدائه وهم يُعذبون، حتى أنه كثيراً ما كان يشرف على عمليات التعذيب بنفسه. وكانت جزيرة كابري مكانه المفضل لممارسة التعذيب. كان الطقس رائعاً والمناظر ساحرة. إضافة إلى أن المنحدرات الصخرية كانت مكاناً ملائماً لقذف الأجساد عنها. كانت الأجساد تقذف إلى البحر من منطقة مهجورة. وهذا ما وضع حداً لضرورة اللجوء إلى وسائل مطولة من عرض الجثث ومنع أنباء ما كان يجري من الانتشار.

قرابة عام 31م خطط لوشيوس ايليوس سيجانوس، أحد وزراء الإمبراطور، لقتل العائلة المالكة. وما أن اكتشفت المؤامرة حتى أُخضع

---

(1) المهيب.

(2) الحبر الأعظم.

سيجانوس وشركاؤه في التآمر لتعذيب استمر حتى الموت وبإشراف شخصي من طيباريوس نفسه. وفيما كان هذا التعذيب قائماً جاء صديق قديم من خارج البلاد في زيارة بناء على دعوة خاصة. وكان الحاكم السادي غارقاً في تعذيب أعدائه ومأخوذاً بذلك إلى درجة أنه وهو في حالة من غياب العقل أمر بأن يمدد مرافقه القديم على المخلعة، وحين عرف بخطئه أمر بقتل الرجل المسكين فوراً لكي يُخرس أي تذمر محتمل وللتخلص من أية سمعة غير حميدة.

خلال حكم طيباريوس صارت مبررات ممارسة التعذيب أكثر من الذباب على المزابل. فمثلاً قام ذات يوم أحد المواطنين بإزاحة رأس تمثال لأوغسطس بقصد استبداله برأس جديد أفضل. ولسوء حظه شوهد وهو ينتزع الرأس القديم. فقبض عليه واتهم بإهانة صورة الإمبراطور ثم، وعلى الرغم من ادعاءاته الحارة بالبراءة، تعرض لتعذيب رهيب ثم أعدم. وكان من الممكن لأي شخص أن يعذب لأسباب أقل من ذلك. قد تصل إلى درجة التعري أمام صورة للإمبراطور. وصار الأمر كله في النهاية سخيفاً للغاية. فالتفسيرات حول ما يتسبب في عدم الاحترام لصورة الإمبراطور وصلت إلى مستويات لا معقولة بحيث أن الإنسان قد يتعرض للتعذيب لأنه كان يحمل قطعة نقدية عليها صورة الإمبراطور في أثناء دخوله إلى المبغى أو إلى المرحاض.

كان الإمبراطور الذي تلاه هو القيصر كايوس، والمشهور باسم كاليغولا. قد لا يكفي فصل واحد لتقديم سجل بأعماله الوحشية. كان مهووساً هوساً كاملاً وكان يجد في ممارسة التعذيب أفضل وسيلة لقضاء الوقت. وكان من المألوف عن هذا الحاكم المعتوه أن يجلب السجناء أو العبيد ليعذبوا إلى جانب مائدة العشاء حيث يقوم بتسلية ضيوفه. ولحسن حظ روما أنه اغتيل وهو في التاسعة والعشرين من عمره. ومع ذلك فقد

حزن عليه رعاياه الذين أحبوه من أجل الحفلات الدموية والباذخة التي كان يقدمها لهم. ولو أن محللاً نفسياً معاصراً استطاع المغامرة بالعودة عبر الزمن لدراسة هذا الطاغية الشاب من مصادره الأصلية، لوجد أن لقبه وحده سيطرح بعض التفسيرات المخادعة. فكلمة "كاليغولا"، إذا ترجمت بقليل من التصرف إلى الإنكليزية المعاصرة تصبح Boots أي "خادم في فندق"[1].

وعاد الأمل إلى الظهور في الأفق الروماني حين وصل الإمبراطور التالي كلوديوس، إلى العرش. في بدء فترة حكمه أصدر عفواً عاماً شمل الجميع باستثناء قاتل كاليغولا. وتعهد بأن لا يسمح إطلاقاً بأن يعاني روماني حر من آلام التعذيب أو مهانته. وعلى الرغم من التزامه بتعهده قدر المستطاع، من خلال تحرير القوانين وتنفيذ إصلاحات ذات سمة إنسانية. فقد لحقت به سمعة لا يستحقها. فزوجته الثالثة، ميسالينا السادية الشبقة، مع مرافقيها نرسيس وبالاس، قد أوقعت بالرومانيين من الطبقات كافة أعمالاً وحشية لا توصف، وعلى الجميع، ابتداء من العبيد وحتى النبلاء. وحين اكتشف الإمبراطور غفلته أمر بقتل ميسالينا فوراً. غير أنه وقع على قرار موته هو بزواجه عام 49م من ابنة اخته اغريبينا، أخت كاليغولا الراحل. إذ كانت تسيطر عليها فكرة واحدة وهي انتزاع العرش لابنها نيرون. وقد استغرق إنجاز المهمة منها خمس سنوات. وفي عام 54م سمّمت كلاوديوس المريض وسرعان ما رأت حلمها يتحقق.

وعلى الرغم من أن حكمه قد بدأ بداية سعيدة إلا أن نيرون أثبت أنه فاسد وشرير بقدر ما كان خاله. وتحتم أن يجلب تسلسل الأحداث الذي

---

(1) وهو الخادم الذي ينقل الحقائب ويمسح الأحذية، وهنا مرجع الخداع في اسم جزار كهذا وبالتالي هذه الترجمة الأكثر دقة لكلمة Boots وليس اعتبارها جمعاً بمعنى أحذية. «المترجم».

بدأ في 18 تموز عام 64 أسوأ سمعة له. في وقت متأخر من تلك الليلة شبت النار في المقاعد الخشبية في الطرف الجنوبي الشرقي من الميدان العظيم. Circus Maximus. كان الصيف حاراً وجافاً فانتشرت النيران في كل اتجاه والتهمت كل ما يقع عليه البصر. ولم يكن من الممكن القيام بشيء، والذين استطاعوا أن يفعلوا شيئاً هربوا ناجين بجلودهم. وبعد ستة أيام كاملة من الحريق الهائل، اندلعت نيران جديدة في الحي الشمالي من المدينة. وحين تم إخماد آخر شرارة كانت المدينة بأكملها قد تحولت إلى خراب دخاني متفحم.

وانتشرت الشائعات بالسرعة التي كانت تنتشر بها النيران الخامدة. لقد أظهرت الآلهة عدم رضاها عن الإمبراطور لأن الإمبراطور ذاته هو الذي جلب الخراب عامداً. وامتزجت الشكوك والثرثرات والشائعات والتخمينات بالرماد الذي يملأ أجواء المدينة التي كانت نظيفة ذات يوم. بالنسبة إلى نيرون كان هناك أمر واحد يستطيع القيام به وهو العثور على كبش فداء بأسرع ما يستطيع. لا بد في البدء من تهدئة الناس، وبعدها سيكون هناك وقت كاف لإعادة بناء المدينة، ولحسن الحظ كان كبش الفداء جاهزاً تحت الطلب، وهو مذهب جديد ومثير للمشاكل يسمي عناصره أنفسهم "المسيحيين".

وفوراً تم اعتقال كل من أمكن العثور عليه منهم من أجل جريمتهم المزعومة. وبكلمات تاسيتوس، الذي كان شاهد عيان "لذا فقد تم أولاً اعتقال من اعترفوا، وبناء على المعلومات التي أدلوا بها اتهم جمع كبير من الناس ليس من أجل جريمتهم في الحريق بل لكراهيتهم للجنس البشري، والضحايا التي هلكت، أيضاً، لاقت الامتهان، فقد غطي بعضها بجلود الوحوش ثم ألقيت إلى الكلاب لتمزقها إرباً، بينما ثبت آخرون على الصلبان وأحرقوا ليضيئوا الليل بعد غياب الشمس. تبرع نيرون بحدائقه

للاحتفالات وكان يقدم عرضاً للسيرك وهو يختلط بالناس مرتدياً لباس سائق أو منطلقاً بسرعة كبيرة في عربة. وعلى الرغم من أن الذين استحقوا أقسى العقوبات كانوا مجرمين إلا أن شعوراً بالشفقة بدأ يظهر. خاصة وأنهم لم يكونوا يُقتلون من أجل الصالح العام بل من أجل إشباع النقمة المتأججة لدى شخص مفرد".

وهكذا بدأت الحملة الأولى من الحملات العشر في اضطهاد المسيحيين وبمعنى من المعاني كانت بداية لعلاقة غريبة أثبتت نفعها للأطراف المعنية كافة، فالمسيحيون الذين تراصت صفوفهم من خلال المعاناة والمعتقد المشتركين كسبوا من خلال الشهداء رموزاً لهذا المعتقد كانوا يستمدون منها وعلى نطاق واسع قوة أكبر وأتباعاً جدداً. ووجدت السلطة الرومانية مادة بشرية جاهزة لحفلات الترفيه والوحشية التي كانت تحول بها انتباه الناس عن الجوانب المزعجة في الحياة اليومية.

فقد صار التعذيب، باختصار، بالنسبة إلى المواطن الروماني العادي شبيهاً بما يعنيه التلفزيون للمواطن الأمريكي في القرن العشرين: الشكل الأكثر انتشاراً للتسلية الشعبية ولتخدير الجماهير.

ومرة أخرى علينا أن نعيد عقارب الساعة إلى الوراء قليلاً لكي نتمكن من متابعة تطور التعذيب كرياضة وتسلية بشكل صحيح. لم يسبق، ولم يتبع، أن كان هناك ما يعادل الألعاب الرومانية. وعلى الرغم من أن الإنسان المعاصر قد فاق الرومان فيما يتعلق بالقسوة المجردة، إلا أنه حتى رجال السينما في هوليوود وسينيستيا[1] لم يستطيعوا الاقتراب من عظمة الحفلات الخيالية التي أغرقت الإمبراطورية الرومانية ذات يوم بالدماء. وكما بدأت أفلامنا الصامتة، بدأت الألعاب الرومانية ببساطة.

---

(1) استديو كبير وهام للسينما قرب روما. برز منه أنطونيو وفيلليني ودوسيكا، «المترجم».

يقال إن مؤسسها هو تاركونيوس، الملك الأسطوري الخامس لروما، والذي يعزى إليه أيضاً بناء الميدان العظيم في القرن السادس قبل الميلاد، كانت الألعاب في البدايات تحتوي على مباريات رياضية وسباقات بالعربات على شرف الآلهة. ومع تزايد شعبية السباقات صار التنافس فيها أشد وصارت خطورتها أكبر. ولم يمر وقت طويل حتى كان الناس قد بدأوا يستمتعون بمشاهدة حوادث الموت العنيفة بمقدار ما يستمتعون بالسباقات نفسها. ثم ظهرت مبارزات المصارعين. وهذه أيضاً بدأت على مستوى بسيط ومصغر ولكنها، مثل السباقات، ازدادت شعبيتها "كرياضة" ووسيلة ترفيه ومع الأيام تحولت إلى تجارة رابحة. فبما أن المصارعين كانوا مجرد عبيد، كان استبدالهم سهلاً. وفي كل مرة كان فيها العرض ينتهي إلى مقتل المشاركين الذين هم أقل مهارة، كان المتفرجون المتعطشون للدماء يحصلون على متعة لا تعوض. وفي النهاية بدأ السياسيون يخضعون الألعاب لتكاليف باهظة من أجل كسب ود المواطنين. ومع الأيام لم يعد التنافس الفعلي في الميدان أو في الحلبة بل بين مقدمي العروض أنفسهم. وصارت المعركة حول من الذي يستطيع تقديم المشاهد الأكثر وحشية والأكثر دموية.

وقبل ظهور المسيحية بوقت طويل، تجلت العبقرية الرومانية في الحلبة. فالمجرمون المحكوم عليهم، بدل أن يتم إعدامهم في الزنزانات أو حتى بالطريقة العادية المألوفة، كانوا يجبرون على ارتداء ملابس خاصة لتجعلهم يتشبهون بشخصيات أسطورية من الميثولوجيا الإغريقية. ثم وفي مشاهد مترفة، كانوا يقتلون بطرق مختلفة. وكلما كان الحادث أكثر دموية وكان الموت أكثر إبطاء، ازدادت متعة المتفرجين. ويحكي لنا المؤرخ سترابو كيف تم إعدام مجرم عتيد من جبل إتنا بهذه الطريقة. ففي الوقت الذي كان فيه محتجزاً في السجن كان يتم بناء منصة خاصة وسط

الساحة العامة. وبني نموذج مصغر عن إتنا على مصطبة عالية وضع تحتها قفص مليء بالوحوش المفترسة الجائعة. وبعد أن سمح له بأن يركض حول المنصة، تم إسقاطه من خلال باب سري إلى القفص حيث مزقته الوحوش إرباً ـ واستمتع الحشد المتفرج أيما استمتاع.

كان استخدام الوحوش المفترسة شائعاً من قبل الرومان. وكانت صنوف القسوة التي توقع على تلك المخلوقات البائسة تفوق التصور. فبعد أن اكتشف أنه ما من حيوان يمكن أن يهاجم البشر غريزياً ويأكلهم، تم إفراز مدربين مختصين لوخز هذه الحيوانات وتجويعها وتعذيبها إلى أن تعلمت أنَّ أكلها للنساء والرجال والعاجزين هو فرصتها الوحيدة للبقاء على قيد الحياة.

وكانت هناك تنويعات أخرى. ذات مرة حين قدم الجزار الشهير، بومباي، عرضه في الميدان العظيم، أمر بذبح عشرين فيلاً إفريقياً. وقاتلت الحيوانات الضخمة ببسالة دفاعاً عن حياتها. أحدها، على الرغم من الجراح البالغة في أطرافه واضطراره إلى السقوط أرضاً، ظل ينتزع تروس مهاجميه ويقذف بها في الجو.

وسرعان ما أصبحت المذبحة الوحشية بين هذه المخلوقات الضخمة أشنع من أن تحتمل حتى بالنسبة إلى الجمهور الروماني القاسي. وأثارت أصوات الفيلة المتوجعة إحساساً مفاجئاً بالشفقة بين المتفرجين الذين نهضوا من مقاعدهم وأنزلوا اللعنات الغاضبة على قسوة بومباي، وتم التعبير عن رد الفعل بصوت واضح إلى درجة أنه كان لا بد من إيقاف المذبحة. ولقد أشار شيشرون وهو يعلق على المشهد المؤسف فيما بعد في رسالة إلى صديق، إلى أن الوحشية التي طبقت على الفيلة لم تثر، فقط، شفقة الناس، بل ألهبت شعوراً بالقرابة تجاه تلك المخلوقات الجبارة أيضاً. ولكن على الرغم من تعبيرات كهذه عن اللطف، فقد ظل التقتيل

العشوائي للحيوانات شائعاً. وذات مرة إبان حكم تراجان، حوالي 107م، تم تقتيل أحد عشر حيواناً في المدرج احتفالاً بانتصار الإمبراطور وفتحه ذاكيا، وهي منطقة في البلقان شمالي نهر الدانوب مباشرة.

وفي الوقت الذي أصبح فيه تقتيل المسيحيين جزءاً من التسلية العادية وصلت السادية إلى أعلى ذراها. وعلى الرغم من أنه لم يكن هناك أحد، عملياً، بمنجى من الإحساس بالنشوة التي ترافق سفك الدماء، إلا أن عدداً من الرومانيين المتنورين عبروا عن امتعاضهم مما كان يجري. وحتى حينما كان يتم تحديد موعد لعرض كبير كانت بعض الأحداث السابقة له تحدث ولا تهدف في معظمها إلى اجتناب هذا العرض. وكما يقول كاتب معاصر "كانت المقاعد خالية إلا من بعض البهائم الذين يستمتعون بالألم والعذاب وبمنظر الجراح النازفة. ولم يكن الأمر كله إلا مجزرة" لم يكن هناك أي نوع من العذاب يمكن للمسيحيين التعساء أن يتجنبوه. بعضهم كان يُعلق من إبهامه فوق نار خفيفة ثم يجلد أو يسلخ حياً.

وكان بعضهم يجبرون على ارتداء دروع وخوذ حديدية محماة حتى الاحمرار. كانت الألسن تنتزع والنهود تقتلع والأحشاء تستخرج وكان بعضهم تشق أجسادهم وتخرج أمعاؤهم ليتم إطعامها للحيوانات الجائعة قبل أن يموتوا.

وكما أشير سابقاً، فإن أكثر الأوصاف دقة للعذابات الغريبة يمكن إيجادها في تواريخ الكنائس، وبشكل خاص في سير الشهداء العديدة. لقد واجه القديس بنيامين نهاية مروعة حسب ما جاء في "التاريخ الكنسي لتيودوريه" وهو أسقف مدينة قرهص[1] وعالم لاهوتي من القرن الخامس. عذب الشهيد بطعنه مراراً وتكراراً بعيدان مدببة. ولما تبين أن بنيامين قد

(1) تسمى حالياً بالنبي هوري، وتقع قرب عفرين في سوريا.

تحمل عذاباته برواقية كاملة أمر معذبه "بقضيب آخر على أن يتم إدخاله هذه المرة في عضوه التناسلي حيث كان يتم سحب القضيب ودفعه من جديد مما يتسبب بعذابات لا يمكن وصفها، وبعدها أمر المعذبُ المتوحشُ بعصا قوية، ثخينة وخشنة جداً وعليها تشعبات من نواحيها كافةً ليتم إدخالها في شرجه".

هذا وصف نموذجي للتعذيب الذي كان يمارس، ليس في روما وحدها بل وفي الأجزاء البعيدة من الإمبراطورية، يصف يوزيبيوس، أسقف قيسارية، والملقب بأبي التاريخ الكنسي، الاضطهاد الذي حدث في ليون بفرنسا عام عام 178م. لقد كانت فترة من الحكم الصالح في روما نفسها لأن الإمبراطور في ذلك الحين كان ماركوس أوريليوس، وهو فيلسوف يحتوي كتابه "تأملات" على بعض ألطف الأفكار في العصر القديم. إلا أنه لم يكن قادراً على الإشراف شخصياً على كل ما كان يحدث في العالم الروماني. وفي عام 178م كانت ليون بالنسبة إلى روما تشبه ما تمثله تومبستون في أريزونا لبوستون أيام الغرب المتوحش. خلال سلسلة من الألعاب عُذِّبت عذراء مسيحية اسمها بلاندينا أياماً متعددة دون توقف وإلى أن صعق المتفرجون. وفي البداية جلدت ثم كسرت عظامها ومزق لحمها. وفي المرحلة الثانية علقت على خشبة في الحلبة وسط عدد من الوحوش المفترسة الجائعة التي رفضت الاقتراب منها. بعد ذلك أنزلت وجلدت من جديد ثم قليت في مقلاة كبيرة. وظلت حية. وأخيراً تم لفها في شبكة وألقيت إلى الثيران البرية لتتقاذفها. وفي النهاية كان لابد من قتلها بالسيف.

والمقلاة المذكورة آنفاً كانت عبارة عن وعاء فظيع. إن من الصعب التصديق بأن شخصاً ظل حياً بعد المرور بها ما لم تكن المقلاة غير محمّاة إلى درجة كبيرة. وأفضل وصف جاء عند غالونيو الذي قال: "المقلاة كانت

عبارة عن صحن كبير مكشوف أو صفيحة كانت تملأ بالزيت أو بالزفت أو بالصمغ أو الكبريت ثم توضع على النار وحين تبدأ بالغليان والجيشان كان المسيحيون من الجنسين يرمون فيها، وأولئك الذين كانوا ثابتين وجريئين في إيمانهم بالمسيح، وحتى النهاية، يمكن أن يظلوا يتقلون ويحمرون مثل الأسماك في الزيت المغلي".

وهكذا كان الأمر ينتقل من وحشية إلى فساد ثم عود على بدء. وما حدث في النهاية نعرفه كلنا. ليس فقط أن روما قد تبنت عقيدة أتباع المسيح بل أنهم هم (أي المسيحيين) تبنوا روما. وكم هو مثير للسخرية أن تصبح لغة أسوأ مضطهدي المسيحية هي لغة الكنيسة، وأن تكون عاصمة هؤلاء المضطهدين هي المنصب الأسمى في البابوية، ولربما كانت قصة كهذه ملائمة لطرح عدالة مثالية عظيمة، ولربما كانت المفارقة الحقيقية كامنة في مكان آخر. فبعد قرون قام الأحفاد الروحيون لأولئك الذين ماتوا تحت التعذيب دفاعاً عن عقيدتهم باستخدام الوسيلة نفسها ـ والأمر كله باسم العقيدة.

التعذيب حول العالم

لم يعد من اللائق في أيامنا هذه تصنيف الشعوب تحت عناوين اعتباطية من نوع "متحضرة" و"غير متحضرة". فطالما أن ثمرات الحضارة صارت في متناول البشر كلهم فإننا نفضل استخدام تعبيري "شعوب متطورة" و"شعوب غير متطورة". فبهذه الطريقة نتجنب الزلل.

إلا أنه، وحين يتعلق الأمر بالتعذيب، لا يبقى لأي من هذه التعابير أي معنى محدد. والسبب بسيط. فالناس لدى الشعوب كلها، المتحضرة وغير المتحضرة والمتطورة وغير المتطورة، يتبين أنهم بارعون حين يتعلق الأمر بإيقاع الأذى والعذاب على أبناء جلدتهم. وتلك واحدة من المناطق القليلة التي يتساوى فيها الجميع ـ وهي حقيقة لا يستطيع معظم الأمريكيين والأوربيين تقديرها حق قدرها.

إن إحدى الشائعات الرائجة في العالم العربي هي أن "الشرقيين" عملياً، أشرس الشعوب على وجه الأرض، وبالتالي فإنهم الأكثر خبرة في فن التعذيب. والحقيقة أن الشرقيين معذّبون ذوو خبرة. ولكنه ليس صحيحاً أنهم، بأي شكل من الأشكال، أكثر قسوة من الغربيين، الفارق كامن في حقيقة أنه في الشرق هناك اعتراف أكثر أمانة بالقسوة الغريزية التي تعتمل في قلوب البشر كلهم.

يعرف كل منها، على الأقل، نوعاً من الأساليب التي يتم بها إنزال

الموت الرهيب بواسطة نوع من أنواع التعذيب الصينية. والحقيقة أن أساليب التعذيب الصينية تصنف بين أبرع الأساليب التي صممت حتى الآن. فلكونهم أصحاب ثقافة قديمة استطاع الصينيون أن يطوروا التعذيب إلى درجة عالية من التعقيد والمنطق، وتكمن حجتهم في فلسفة جعل العقوبة تتلاءم والجريمة. فللتجاوزات البسيطة للقانون كانت هناك عقوبات خفيفة. حين يدان الرجل بالغش أو السكر أو إهانة من هو أعلى منه، مثلاً، فإنه يخضع للجلد القاسي أمام الهيئة القضائية. في البدء كان المتهم يجبر على الانبطاح تذللاً أمام القاضي المسؤول. ومن أجل تقرير عدد الضربات التي سيتعرض لها كان الرئيس يلقي بعدد من العيدان من كأس على المقعد أمامه. وهذه تشبه لعبة للأطفال اسمها لعبة التقاط العيدان. كل عود كان يمثل خمس ضربات. وحينما يتم تقرير المجموع يبدأ الجلد الفعلي بإشراف ضابطين ينفذان "بان تسي"[1] وهو نوع من الجلد على أخمص القدمين، فيما القاضي يشرب الشاي ويغرق في حديث لطيف مع أصدقائه.

والمفسرون الذين كانوا يقدمون معلومات مغلوطة عن عمد كانوا يخضعون لنوع خاص من العقوبة. كان واحدهم يجبر على الوكوع بينما توضع كرة كبيرة من الخيزران وراء ركبته. وفيما هو بهذا الوضع يشد اثنان ذراعيه ثم يلقيان بثقليهما على الكرة. هذا يتسبب في ألم كبير دون إيقاع أذى دائم. وهناك عقوبة أخرى كانت مخصصة لعدد من المخالفات الصغيرة، وهي شد الأذن: اثنان من الحرس يثبتان الضحية بإحكام وينتظران الأمر بإيقاع الألم. وحين كان يُعطى الأمر كانا يمسكان صيواني أذني المتهم ويلويانهما بقوة.

---

(1) هو ما يسمى عندنا بالفلق.

والبحارة الذين كانوا يخترقون القانون كانوا ينالون ما كان يعتبر العقوبة الملائمة تماماً. كانوا يجبرون على الركوع بين حارسين. يمسك أولهما بضفيرة المتهم ليشد بها رأسه إلى الخلف وإلى أقصى ما يمكن بينما يبدأ الآخر بضربه على خديه مرات عديدة وبأداة تشبه مضرب البينغ بونغ.

أما النساء الصينيات اللواتي كن يخرجن على القانون فكن يخضعن لنوع خاص من العقوبة يعرف باسم "التعذيب بالأصابع". والمخالفة المعنية هنا هي "قلة الأدب" وهذه كانت تشتمل على كمية كبيرة من الجنح، على الرغم من أن معظم الضحايا كان من المومسات. وحسب العرف، كن في البدء يجبرن على الركوع، ثم توضع قطع صغيرة من الخشب أو الخيزران بين أصابعهن ثم تشد الأصابع بحبال متينة.

وهناك حالات كثيرة في الصين لسجناء كان يكتفى بسجنهم أو نفيهم، وكانت الرحلة إلى منفاهم أو محل إقامتهم كافية عادة لقتلهم. أما العقوبة التي كانت تنتظر الهارب المقبوض عليه فقد كانت شنيعة. إذ كان يعرض للشلل. وبشكل خاص كانت تقطع بالسيف أوتار الكاحل. ولمنع النزف الغزير، وللتسبب بالحد الأقصى من الألم في الوقت ذاته، فقد كان يستخدم مانع قوي للنزيف، فإذا لم تمت الضحية من التلوث بعد عودتها إلى السجن فإنها كانت تظل مُعاقة بقية حياتها.

إلا أن أبشع أنواع الإعاقة كانت التعمية. كانت الضحية تمسك بقوة وهي راكعة فيما قطعة من القماش القطني ملوثة بكلس غير مطفأ تضغط على المحجرين مباشرة.

أما "الإسفين" فهي آلة رهيبة كان يخشاها كل من قُدِّر له تجريب عذابها، وهي، بشكل أساسي، شبيهة بالحذاء الحديدي الذي كان شائعاً في أوروبا، كان السجناء المحكوم عليهم بالإسفين يمددون على وجوههم فوق لوح خشبي قوي وأيديهم مثبتة على طرف منه بينما الأقدام على الطرف الآخر.

ويفيد الميجور ج هـ. ماسون، وهو حجة إنكليزي من القرن التاسع عشر، أن القدمين كانتا توضعان داخل نوع من "الملزمة الخشبية المزدوجة، والمؤلفة من ثلاثة أعمدة متينة، اثنان منها متحركان إلا أنهما مثبتان بكتلة توضع على كلا الجانبين. كان كاحلا المتهم يوضعان داخل الآلة ثم يمرر حبل حول الأعمدة يمسك به بشدة رجلان. ثم يأتي الجلاد الرئيس ويدخل إسفيناً في الفسحة المسببة لتغير الاتساع. ووسيلة التوسيع القسرية على القسم العلوي تجعل النهايات السفلية تنسحب نحو الوسط المثبت على اللوح. وهي بهذا تضغط على كاحلي المعذب المسكين الذي، إن كان بريئاً أو عنيداً، يتحمل تقدم الإسفين إلى أن تتحول عظامه تماماً إلى كتلة هلامية".

والعقوبة التي كان يعتبرها الصينيون الأكثر ترويعاً هي "ليغ تشي". وهي عقوبة مخصصة لقتلة الآباء والأمهات أو أية جريمة قتل لأكثر من طرف في عائلة واحدة. كانت تعتبر الأكثر إيلاماً والأكثر تحقيراً بين الميتات، لأنها كانت تشتمل بشكل أساسي على الربط إلى خازوق وتقطيع الأطراف قبل الموت. ولزيادة التحقير كانت "لينغ تشي" تنفذ دائماً في العلن وأمام الملأ وذلك من أجل الإلقاء بأطراف الضحية على الجمهور. والعقيدة الكامنة وراء لينغ تشي هي جعل الضحية في حالة تكون فيها غير لائقة إطلاقاً لملاقاة أسلافها في العالم الآخر. إضافة إلى أنه خلال التباطؤ في هذه العملية لا تعاني الضحية أبطأ تعذيب وأكثرها إيلاماً فقط بل تواجه التحقير في حده الأقصى. وإذا كان المحكوم عليه بالـ"لينغ تشي" غنياً أو له أصدقاء ذوو نفوذ، فربما استطاع تجنب الألم الجسدي. فالمبلغ الملائم من المال يمكن رشوة الجلاد أو آمر السجن به. وهذا يضمن أن تكون آخر وجبة للسجين محشوة بكميات كبيرة من الأفيون، أو أن يتلقى طعنة في القلب قبل تقطيعه.

وكانت هناك أنواع عديدة مختلفة من "لينغ تشي"، ولعل أكثرها ترويعاً "الموت بمئة وعشرين جرحاً" وأرأفها "الموت بثمانية جروح". أما الشائع منها فهو "الموت بأربعة وعشرين جرحاً" وكانت تحتوي على ما يلي: الجرحان الأول والثاني يزيلان الحاجبين، والثالث والرابع للكتفين، والخامس والسادس للثديين، والسابع والثامن للقسم بين كل كف ومرفق، والتاسع والعاشر ما بين المرفق والكتف، والحادي عشر والثاني عشر للحم الفخذين، والثالث عشر والرابع عشر لبطتي الساقين، والخامس عشر للموت حيث كان يخترق القلب. أما بقية الجراح فكانت تنفذ في الجثة. السادس عشر يقطع الرأس والسابع عشر والثامن عشر للكفين ومن التاسع عشر حتى الثاني والعشرين لقطع الذراعين والقدمين والأخيران الثالث والعشرون والرابع والعشرون لقطع الساقين.

إن التقاليد القديمة لا تموت بسهولة وحتى ما كان منها شنيعاً مثل "لينغ تشي" فلقد ظلت هذه العقوبة تنفذ حتى العشرينيات من هذا القرن.

وبفضل الكتابات التفصيلية لرحالة إنكليزي اسمه "هنري غوجر" وصلت إلينا صورة حية لحوادث الرعب التي واجهها في سجن بورمي منذ ما يقرب من قرن. فعلى الرغم من أنه ألقي في حظيرة واحدة مع المجذومين ومحتضري الجدري والحشرات الجائعة، إلا أنه استطاع أن يظل على قيد الحياة. وليس هذا فقط، بل إنه وفيما هو مكبل بالسلاسل استطاع أن ينتبه إلى ملاحظات يدونها بعد إطلاق سراحه في تقرير يقف له شعر الرأس.

صنوف كثيرة من التعذيب التي رآها غوجر كانت شبيهة بالوسائل الصينية المذكورة آنفاً، فبعض المساجين، مثلاً، وفيما هم يزحفون على أقدام المسؤولين بدلاً من أن يجلدوا بالعصي كانوا يُضربون على رؤوسهم بمطارق حديدية قصيرة وثقيلة. وآخرون كان يتم تمديدهم على ما يشبه

المخلعة ثم يضربهم الحرس بأحذية خشبية. وبعد أن تتكسر عظامهم كلها كانوا يجلدون بالهراوات حتى الموت.

وكانت هناك أيضاً صنوف من التعذيب النفسي. فغوجر يفيد أنه خلال مرحلة من مراحل سجنه كانت هناك لبوة تتضور جوعاً وهي محتجزة في قفص على مرأى من السجناء الذين كانوا يعيشون في ذعر دائم من أن يتم إلقاؤهم طعاماً لها. ثم يشير إلى مفارقة أن اللبوة هي التي ماتت جوعاً.

وكان البورميون، مثلهم مثل جيرانهم الهنود، كثيراً ما يعدمون المحكوم عليهم بسحق جماجمهم بواسطة الفيلة. إلا أن أحد أعنف صنوف التعذيب لديهم هو تنويع الصلب. كانت الضحية تجلد على شكل شبيه بالصليب الذي عذب عليه القديس أندريو[1]. ثم يتم نزع الأحشاء بالسيف لكي يدوم العذاب فترة أطول. وكان المحكوم يترك على هذه الحالة نصف ميت إلى أن تأكله العقبان وذباب الجيف.

وأكثر صنوف التعذيب البورمية "إنسانية"، كما يشير غوجر، صنفان مرتبطان بنهر اراوادي، كان المحكوم يلقى في الماء لكي تلتهمه أعداد غفيرة من السمك الشبيه بالضاري. أما الصنف الثاني فكان المحكوم يثبت على جذع عند مجرى المد ثم يترك ليموت غرقاً مع ارتفاع المياه.

وكانت صنوف التعذيب الهندية متنوعة وواسعة الانتشار. وإذا كان لا بد من وصف حي لها فليس من الممكن تجاوز "تقرير رئيس بعثة الاستقصاء لقضايا التعذيب المزعومة خلال رئاسة مدارس 1855". كان التقرير نتيجة تحريات أثارها بعض العناصر المشاغبين في البرلمان بعد عودتهم إلى لندن. وربما من أجل تهدئة مخاوف أعضاء البرلمان، أكد

---

(1) أندريو من تلاميذ المسيح الصيادين. صلب على صليب بشكل × بدلاً من الصليب المعروف على شكل +.

التقرير أن الأعمال الدنيئة كلها قد ارتكبها أناس غير إنكليز بل هم "خدم وطنيون تابعون للدولة". وبعد صفحات مطولة من النثر الفكتوري الممل تصل الحكاية إلى النقطة التي تقول: "بين أساليب التعذيب الرائجة في قضايا البوليس نجد ما يلي: لف حبل بشدة حول الذراع والساق كلها لمنعها من الالتواء، والرفع بالشاربين، والتعليق بالذراعين وهما مربوطان خلف الظهر، والكي بالحديد المحمى، ووضع حشرات مخرشة، مثل خنفساء الخشب على السرة أو على الصفن أو غير ذلك من الأجزاء الحساسة في الجسم، والتغطيس في الآبار والأنهار حتى المشارفة على الاختناق، عصر الخصيتين، الضرب بالقضبان، المنع من النوم، انتزاع اللحم بالكلابات، وضع الفلفل أو صلصلة الفليفلة الحمراء في العينين، أو إدخالهما في الأعضاء الجنسية للرجال والنساء، وكانت هذه الأعمال الوحشية تستمر إلى أن يحدث الموت عاجلاً أم آجلاً".

لقد كتبت مجلدات عديدة عن حوادث السلب والنهب التي أعطت الغرباء المبررات الكافية لوصف الأتراك بأنهم "رهيبون". وأقدم مثال يأتي من "تواريخ" غرافتون الذي يقدم الدليل على أن التسمية في محلها. يقال لنا إنه خلال غزو النمسا في القرن السادس عشر "مارس الأتراك قسوة وظلماً لم يسبق لأحد أن سمع أو كتب شبيهاً لهما، فقد كانوا يفقؤون الأعين ويجدعون الأنوف والآذان، ويقطعون الأعضاء الجنسية، وللنساء كانوا يقطعون حلمات الأثداء ويغتصبون العذراوات والمرأة الحامل كانوا يبقرون بطنها ويحرقون طفلها".

وبعد قرن تقريباً قدم أوروبيان آخران، هما فرانسوا كارون وجوست سكورتين، وصفاً تفصيلياً مهماً لمجزرة يابانية ضد المسيحيين حدثت في ناغازاكي في أيلول 1662.

"أجبروا النساء والفتيات الضعيفات على النزول على أكفهن وأقدامهن

وهم يحنونهن ويسندونهن ويجرونهن عاريات أمام الآلاف في الشوارع، وبعد أن تم ذلك اغتصبن وضوجعن من قبل الروس والأوغاد، وألقي بهن عاريات محتقرات على هذه الصورة في أحواض كبيرة مليئة بالأفاعي والثعابين التي كانت تنسل من ممرات عديدة على أجسادهن مما جعلهن في حالة لا توصف من البؤس والانهيار نتيجة لهذا الوضع الرهيب. وكانوا يدخلون كتل القنب والكتان في الأعضاء الجنسية للأمهات ثم يربطون الأبناء بالمادة القابلة للاشتعال نفسها ثم يلقونهم ويجبرونهم، وكذلك كان الأمر بالنسبة إلى الآباء والبنات، على أن يحرق كل منهم الآخر، وبحيث يعانون من آلام وعذابات لا يمكن تصورها. بعضهم كان يغطى بالعشب الجاف ثم يسكب فوقه الماء المغلي. ويستمر التعذيب بهذه الطريقة حتى الموت، الأمر الذي قد يستمر يومين أو ثلاثة أيام حسب قوة احتماله. وعري المئات منهم ثم أحرقت جباههم لكي تسهل معرفتهم ثم أطلقوا في الغابات، وتم إبلاغ الجميع، تحت احتمال عقوبة الموت، بأن لا يقدموا لهم طعاماً أو شراباً أو لباساً أو مأوى، وكثيرون غيرهم وضعوا في أقفاص على الشاطئ وبقوا هناك مبللين حيناً وجافين حيناً آخر حسب المد والجزر. ولكن كان مسموحاً لهؤلاء أن يأكلوا ويشربوا للإبقاء عليهم فترة أطول في حالتهم البائسة، وبحيث كانوا يظلون أحياء بين عشرة أيام واثني عشر يوماً. وكان هؤلاء الجلادون الدمويون يقتلعون عيون الأبوين ويضعون أطفالهم أمامهم وهم يقرصونهم ويؤذونهم طوال أيام متتالية فيجبرونهم على البكاء بدموع من دم وهم ينادون آباءهم وأمهاتهم العاجزين من أجل وضع حد لمعاناتهم التي لا حد لها إلا بانتهاء حياتهم، فيما أهلهم الحزانى العاجزون عن مساعدتهم أو مساعدة أنفسهم كثيراً ما كانوا يموتون أمام أطفالهم الذين لم يستطيعوا رؤيتهم لشدة حزنهم وألمهم. هذه الحوادث المؤسية كلها، والتي هي أكثر وأطول من أن تحصى، تحملها المسيحيون

المساكين بجَلد يصل درجة الإعجاز، باستثناء القليلين ممن لم يستطيعوا احتمال ضنى هذه العذابات فتخلوا عن معتقدهم، ليرتاحوا قليلاً من العذاب. ومرة كل عام كان يعاد استجوابهم ويكون، عندها، على كل فرد منهم أن يوقع في كتاب الكنيسة وبدمه أن يستنكر المسيحية، ومع ذلك لم يكونوا كلهم يفعلون ذلك لأن مئات من المسيحيين يتم العثور عليهم كل عام وتتم إبادتهم بمختلف صنوف التعذيب. وأخيراً وجدوا طريقة أكثر جهنمية وبراعة في التعذيب من كل ما مر سابقاً. حيث كانوا يعلقون هؤلاء المعذبين بكعوبهم، ورؤوسهم في تجاويف خاصة ليُعطى منفذ للدم ثم يجلدون بشكل متصالب (ولكنهم لم يعودوا يفعلون ذلك الآن) وبهذه الوضعية يظلون أحياء أياماً عديدة تصل إلى العشرة أو الاثني عشر يوماً، وخلالها يبدؤون بالهذيان حتى النهاية. إن قسوة هذا النوع من التعذيب تتجاوز الأنواع الأخرى كافة، وذلك لأن تحمله ومعاناته فوق طاقة البشر إلا لمن وُهبوا قدرة استثنائية تفوق من ذكروا حتى الآن. ونجحت هذه القسوة (وبسبب استمرارها) في إجبار الكثيرين على التنكر لأديانهم. ولقد أكد لي بعض أولئك الذين علقوا لمدة يومين أو ثلاثة أيام أن الآلام التي أحسوا بها كانت لا تحتمل، لا النار ولا أي نوع آخر من التعذيب يعادل هذا النوع في استمراريته".

***

إلا أنه مهما بدت صنوف التعذيب الشرقية وحشية، فإنها تبدو هزيلة بالمقارنة مع بعض الفظاعات التي جرت مؤخراً في أفريقيا، يصف ضابط بريطاني خدم في نيجيريا في الثلاثينيات من هذا القرن أعمالاً وحشية لا تصدق. ففي إحدى المرات اشتكى مجاورو قرية اسمها "ايفيل اتو" من أن "إيي" الزعيم القبلي المحلي، سادي غريب الأطوار، ولقد كانت التحريات صعبة. لأنه في كل مرة كان رجال الشرطة يذهبون فيها إلى القرية كان

يتم القبض عليم وتنتزع ملابسهم ثم يجلدون ويعادون مخزيين. وكانت التقارير التي يعودون بها أكثر شناعة من الشائعات الأصلية. كان الرئيس "إيبي" آكلا شرهاً للحوم البشر. وليس هذا فقط، بل كان يتباهى بذلك. وقد أرسل إلى السلطات البريطانية بأنه كان دائماً يستمتع بأكل أكباد الرجال السود، ولذا فإنه لا يفهم لماذا يجد أكباد هؤلاء البيض ممتعة بالمقدار نفسه. وكان هذا التهديد مفزعاً جداً حين وصفت العادات الطعامية للزعيم بتفاصيل مرعبة. وكان الشرطة المتعرضون للجلد يحكون وهم مرعوبون عما شاهدوه بأنفسهم.

كانت ضحايا أيبي تشوى حية. وكان ذلك يتم بغرز خطافات حادة في عضلات الظهر. وهذه الخطافات معلقة بسلاسل تنقلهم في قدور كبيرة إلى نار متأججة. وحين يستوي الشواء بدرجة يرضى عنها ذوق هذا الشيطان كان يقوم بنفسه بانتزاع الأكباد وأكلها. ولسوء حظ مطاردي أيبي فإنه كان ماكراً بمقدار ما كان ضارياً. وقد استغرقت ملاحقته من قبل البريطانيين سنوات عديدة حتى تم العثور والقبض عليه وتقديمه للمحاكمة.

كما أن ثلاثة من أشنع أشكال التعذيب الأفريقية روي أنها كانت تمارس في نيجيريا. وهي عقوبات للزنا يفرضها رجال القبيلة (إبو) على الذين يقبضون عليهم بالجرم المشهود. كتمهيد لتنفيذ الحكم كان يتم استدعاء المتهمين أمام هيئة قضائية في بيت "جو ـ جو". وفي هذا البيت كان الأطباء السحرة يمارسون سحرهم ابتداء من استحضار الأدوية والتنبؤ بالمستقبل إلى تطبيق العدالة. يجتمعون بوقار برئاسة سحرة القبيلة وعجائزها والعدد من المتفرجين الذين يسمح بهم اتساع المكان. وبعد أن يتم إثبات التهمة على المدعى عليهما (لم تكن هناك أية إمكانية للبراءة) كان يتم النطق بالحكم وتنفيذه على الفور.

فإذا تم انتقاء أرحم العقوبات كان المتهمان يُعرَّيان من ثيابهما كلها

ويجبران على المضاجعة أمام الحشد المحتشد. وفي أثناء مراقبة تمثيل الجريمة بمتعة كان الجمهور يغرق في حمى من الغناء وقرع الطبول والسخرية من الزانيين المحكومين اللذين يتلويان ويئنان وهما في ذروة نشوتهما الجنسية. وحين تصل الإثارة ذروتها كان يتم رفعهما، وهما ما يزالان في اتصالهما الجنسي، مع تسارع وتعالي قرع الطبول والصراخ والرقص من حولهما. ثلاثة فقط يبقون بمعزل عن التوحش المنطلق من عقاله لدى الآخرين. وهم رئيس الأطباء السحرة واثنان من الجلادين. وبإشارة من الرئيس يقترب الجلادان من الثنائي المقيد ومعهما عصا خشبية طويلة ومؤنفة ومطرقة خشبية، ووسط ضجيج الراقصين والقرع الهستيري للطبول كانت العصا تغرز في جسدي الزانيين المحكومين. ولم تكن زعقاتهما لتسمع إلا بصعوبة وسط هستيرية الضجيج الذي يصدره أبناء قبيلتهما.

وليس هذا إلا النصف الأول من العقوبة. فبعد أن تخترق العصا جسدي الضحيتين اختراقاً كاملاً، كان الجلادان يشرعانهما في الهواء ويتوجهان بهما إلى بركة مقدسة تعج بالتماسيح الجائعة، والمدانان، اللذان ما يزالان على قيد الحياة وهما يتلويان ألماً، يتعرضان أيضاً للهزء والإهانة، وبعد التطاول وشد شعر المحكومين، يقوم أصدقاؤهما وجيرانهما السابقون بتدوير الجسدين حول العصا وهم غارقون في الضحك. وأخيراً عند الوصول إلى البركة يقوم الطبيب الساحر باستدعاء الآلهة الزاحفة لاستلام قربانها البشري. وعندها يتم قذف الاثنين في الماء العكر. وتحدث عندها تقلبات مفاجئة وتخبطات عنيفة وإطباق فكوك التماسيح القوية. وبعدها تبدأ الفقاعات بالظهور إلى السطح وتنتشر غيمة حمراء بطيئة عبر المياه - وبعدها الصمت. تنتهي النوبة وتعود الحياة من جديد إلى مجراها الطبيعي.

وكانت عقوبة الإيبو الثانية للزنا أقل عنفاً لكنها أبطأ وبالتالي أكثر قسوة.

فبعد إدانة الزانيين تتم تعريتهما، كما في المرة السابقة، ولكن هذه المرة يطاف بهما عبر القرية بينما منادي القرية يردد تفاصيل جرمهما والحكم عليهما. ولا يمضي وقت طويل حتى يحيط بهما حشد ساخر صارخ وهو يبصق عليهما ويضربهما بالعصي ويحقرهما بكل طريقة ممكنة.

وحالما يصل الموكب إلى غابة من الأشجار المقدسة، يتم تنفيذ المراحل الأخيرة من الحكم. الأشجار فتية ومرنة، وتبعد كل منها عن الأخرى عدة أقدام، وهنا كانت المرأة تلقى على ظهرها ويداها ورجلاها مبعدة إلى أقصى حد ممكن. تثبت في هذه الوضعية حتى يجلب عشيقها ويمدد فوقها بحيث يكون رأسه بين فخذيها. ويثبتان وهما على هذه الحالة إلى الأشجار بحيث يظل جسماهما ملتصقين بينما أيديهما وأرجلهما منفرجة لتعطي شكل × ويتركان على هذه الحالة تحت الشمس اللاهبة عرضة للجوع والعطش ولسع الحشرات حتى الموت. وعلى الرغم من أنهما يكونان ظاهرين للعيان فما من عابر يجرؤ على الاقتراب منهما لأن الغابة محرمة. عادة يموت الرجل أولاً لأنه يكون معلقاً بالمقلوب. وكثيراً ما تتشبث المرأة بالحياة يوماً آخر أو ما يقرب من ذلك، وبما يكفي لأن تدرك أنها مقيدة حتى النهاية إلى جثة متفسخة.

ومهما بدا هذان النمطان من التعذيب رهيبين، فإن النمط الثالث من أنماط الإيبو في التعامل مع الزناة هو، بكلمات موظف رسمي بريطاني، "أكثرها وحشية وربما بدا من الصعوبة تصور قدرة أكثر المتوحشين انحطاطاً على ابتكار نمط شيطاني كهذا".

تنص قواعد العقوبة الثالثة على أن يعرى المحكومان ويربطا بإحكام إلى عصوين قرب بيت جوجو كل منهما في مواجهة الآخر وعلى بعد ما يقرب من أربعة أقدام، ويكون ربطهما بحيث يعجزان تماماً عن الحركة. ويظلان تحت الحراسة المشددة ليلاً ونهاراً، ولا يسمح لهما بأي طعام،

ولكنهما يستطيعان أن يشربا أي كمية من الماء يريدانها، إلا أن هناك لعبة غريبة؛ فالماء شديد الملوحة. وبعد أربع وعشرين ساعة يصل المحكومان إلى درجة رهيبة من الظمأ والجوع. وهنا يسأل الحراس الرجل إن كان يريد أن يأكل شيئاً ما. وبالطبع سيجيب بالإيجاب. وعندها يمسك أحد الجلادين سيفاً شبيهاً بالمنجل ويقتطع به قطعة من ثدي المرأة ويدفعها في فم الرجل. ولإيقاف نزف المرأة يرش الحارس مسحوقاً قاطعاً للنزيف على الجرح. وبما أن المحكومين مقيدا اليدين والرجلين فليس أمامهما أية وسيلة للمقاومة. ثم تعاد العملية نفسها بشكل معكوس. ولإطالة أمد عذاب الاثنين المحكومين يتم تقطيعهما بمنتهى الحرص. يتم تجنب الشرايين والأوردة المهمة لمنع النزيف الغزير. وأخيراً عندما يموت أحدهما يتم إطعام الآخر من لحمه بشكل دائم وإلى أن يتدخل الموت ويرحمه.

ومن الطبيعي أن فظاعات رهيبة كهذه كان ينظر إليها برعب وقرف أولئك المحظوظون الذين ولدوا وسط بيئات "متحضرة" في الغرب. وكان الأفارقة والآسيويون والهنود والأمريكيون، والحقيقة السكان الآخرين في العالم كافة، يرون بشكل عام أنهم يقيمون في بؤرة من الوحشية والهمجية والفوضى. وبالتالي كم هو مفهوم أن معظم التلاميذ الأوروبيين والأمريكيين نادراً ما يعلمون أن إعادة سلخ فروة الرأس كانت موضة قديمة بين الأنغلوساكسون تعود إلى القرن التاسع. والحقيقة أن نزع فروة الرأس تعود في قدمها إلى ما قبل المسيحية. ولقد أشار إليها هيرودوتس في القرن الخامس قبل الميلاد بقوله: "كل سيثي يشرب دم أول أسير يأسره ويقدم للملك رؤوس الأعداء الذين قتلهم في المعركة، لأنه إن جلب رؤوساً كان له نصيب في الغنيمة وإلا فلا. وكانوا يقتطعون هذه الرؤوس بفتح دائرة حول الرقبة قرب الأذنين ثم يسلخون الجلد كما يفعلون برأس الثور".

وخلال حكم وليم الفاتح كان السجناء الإنكليز كلهم يشوهون تشوهات دائمة إن لم يعدموا. وقد استمر هذا قروناً عديدة. وخلال حكم ابنه، هنري الأول، كان مزيفو العملة لا يواجهون فقط قطع أيديهم اليمنى، بل كانوا يواجهون الخصي أيضاً. وذات مرة كتب شاعر اسمه لوكدولابار هجائية ضد هنري، فحكم عليه فوراً بسمل عينيه، واستطاع أن يتهرب من هذا الحكم بالانتحار. ولم تكن عقوبة سمل العينين نادرة في إنكلترا. ففي عام 1203 رأت امرأة اسمها أليس كريتيكريش جريمة قتل وسرقة. وارتكبت خطأ فادحاً إذ قبلت جزءاً من المسروقات مقابل سكوتها. وحين كشف الأمر حوكمت وأدينت وحكم عليها بالإعدام. إلا أنها فيما بعد نالت تخفيفاً عن الحكم بالإعدام فاستبدل باقتلاع العينين.

وفي ألمانيا، في العصور الوسطى، كان المزيفون يعاملون بقسوة. بعضهم كان يسلق بمرجل من الزيت والماء، وآخرون كانوا يحرقون وهم أحياء. أما المحظوظون فكانوا يواجهون حكماً سريعاً ورحيماً نسبياً وهو قطع رؤوسهم. وفي أنحاء أوروبا كان التعذيب المؤلم الرهيب يطبق على كل من يطعن آخر متعمداً جرحه. وليس قتله. وكان المتهم يجبر على وضع اليد التي وجهت الطعنة على طاولة خشبية، الراحة إلى أسفل والأصابع ممدودة. ومع تثبيته حيث هو يمسك الجلاد بالسكين أو بالخنجر الذي استخدم في العملية ثم يغرزه في الكف المتعدية ليثبتها على الطاولة. ثم يكون على المجرم أن يفك يده دون سحب الخنجر.

أما جرائم الكفر وشهادة الزور فكانت تنجم عنها غالباً عمليات بتر رهيبة. كان "المجرمون" المتهمون بهذه الجرائم في فرنسا وسويسرا يواجهون غالباً جدعاً لشفاههم وأنوفهم. وكانت عمليات البتر والجدع الجزائية واسعة الانتشار إلى درجة أن الأشخاص الذين شوهتهم الحوادث أو الحروب كانوا كثيراً ما يعتبرون، خطأ، مجرمين. ونتيجة

لذلك كان المشوهون الأبرياء من أي زلل يجبرون على حمل شهادات تؤكد براءتهم.

وبشكل عام كان فن التعذيب يمارس حتى آخر درجات الوحشية من قبل أكثر الأوروبيين "تمدناً". وطوال فترة الحكم الإقطاعي كان النبلاء الأقوياء مالكو الأراضي يتحكمون بشكل مطلق في حياة وموت أقنانهم الذين كانوا يعتبرون أفضل بقليل من الممتلكات الشخصية الأخرى. وبكلمات بوغير، المؤرخ الفرنسي، الذي كان يكتب عن تلك الفترة: "النار والسيف والقبور الجماعية والفسخ إلى أربعة أجزاء والدولاب والوضع في أكياس، والبلطة، والشوكة والمشنقة لم تكن غريبة على السيد. كان يعرف كيف يثمل وينخس ويخلع ويكسر الأسنان ويحرق العيون ويبتر الأيدي والأقدام والأنوف والآذان. وكان يعرف كيف يخصي ويقطع الأطراف ويجلد ويكسر العظام على الدولاب ويهين ويسلخ الأحياء ويسلق ويقلي بمنتهى التأني والوقار".

أحدهم كان اسمه الدوق دوسواسون، وكان مريضاً بمزاجه السادي، أمر ذات مرة بدفن رجل وامرأة وهما على قيد الحياة لمجرد أنهما تزوجا دون استئذانه. وأكثر ما كان يرضي الدوق في المآدب إجبار قن عار على الإمساك بمشعل ملتهب بين ساقيه إلى أن يحترق. وكان على ضحية هذا العذاب تحمل الآلام بصمت ودون تحريك عضلة في الجسم تحت طائلة الحكم بالموت. وهذا النبيل الحقيقي الحي هو النموذج الشائع للشخصيات المتعطشة للدم التي تملأ روايات دوساد.

ولم يكن الإنسان العادي أقل تفضيلاً لهذه الوحشية حين تثور في نفسه وخاصة حين يعتبر تعذيب ضحاياه مسألة مشروعة. في عام 1584 أقدم شخص اسمه بمالاثازار جيراد، وكان واضحاً أنه مجنون، على اغتيال وليم أمير أورانج. فقبض عليه جمهور هائج من الهولنديين وراحوا يجلدونه في

الشارع بحبال ذات عقد، ويمزقون لحمه بعيدان مشقوقة، ثم رشوه بالملح ولفوه برداء منقوع بالخل والبراندي وألقوه في زنزانة.

في اليوم التالي وضع على المخلعة ومدد إلى أن تخلعت مفاصله وتمزقت أطرافه. لكن هذا كله لم يكن إلا بداية. فخلال ثمانية عشر يوماً بعد ذلك ظل يعذب دون توقف، وكان بقاؤه على قيد الحياة ضرباً من الإعجاز. في اليوم الأول وضع على منصة في الساحة العامة وسط سخرية الجمهور وإهانته فيما كانت ذراعه اليسرى (الذراع التي طعنت الطعنة القاتلة) موضوعة في مرجل من الزيت المغلي. وحين صار واضحاً أن جيرارد لن يصرخ بعد الآن أخرجت ذراعه من المرجل متغضنة ومقلية. وأعيد إلى زنزانته ليلة أخرى. وفي الصباح أعيد من جديد إلى الساحة لبتر يده أمام الناس. ودون أن يصدر جيرارد صوتاً اكتفى بأن ضرب العضو المبتور بقدمه فألقاه عن المنصة.

وفي اليوم الثالث انتزع لحم صدره وذراعه اليمنى بكلابات محماة حتى الاحمرار. وأعيدت هذه العملية على أجزاء عديدة أخرى من جسده منذ اليوم الرابع وحتى اليوم الثامن عشر. ولكن المسكين ظل حياً فربط عارياً على عصا وأحيط بالفحم المشتعل. وظل على هذه الحالة إلى أن صار عاجزاً عن الاحتمال وراح يزعق ألماً.

وعندها أنزل عن العصا كتلة من اللحم المتفحم غير أنه كان ما يزال حياً. وبدلاً من ترك جيرارد ليموت وضعه معذبوه على الدولاب ليكسروا عظامه خلال ست ساعات متوالية. وأخيراً حين راح يتوسل من أجل جرعة من الماء قاموا بخنقه.

وبمقدار ما نعرف نستطيع القول إن الهولنديين لم يعاملوا الناس بهذه الطريقة. غير أن الذين ارتحلوا إلى جزر الأنديز الشرقية (الهولندية) قبل الحرب العالمية الثانية لديهم آراء مختلفة.

فبعد ستة وعشرين عاماً فقط من ذلك الإعدام الشنيع لبالاثازار جيراد ضرب رجل فرنسي اسمه فرانسوار رفيلاك ضربة أوصلته إلى نهاية شبيهة. كان متعصباً دينياً وقد واجه مزعجات عديدة خلال حياته، وحين سمع رفيلاك شائعات تقول إن هنري الرابع، البروتستانتي السابق، مزمع على شن حرب ضد البابا، قام فوراً باغتيال الملك. وكان هذا خطأ لأكثر من سبب. أولاً لم يكن هنري بأي شكل ينوي مهاجمة المقر البابوي المقدس. ومن جهة ثانية كان ملكاً محبوباً يستحق الشعبية التي أحيط بها. وبالتالي فإن مسألة أن يواجه قاتله نهاية بشعة كانت مسألة محسومة ومعروفة.

غير أن رفيلاك كان أسعد حظاً من جيرارد. إذ لم يبق حياً لفترة طويلة على الرغم من أنه عومل المعاملة نفسها. أولاً تم شده من خلال أربعة خيول قوية وفي اتجاهات مختلفة وفي وقت واحد، ولمدة ساعة كاملة، وحين لم يؤد ذلك إلى تمزيقه أمسك به جمهور هائج متعطش لدمه. اندفع إليه هؤلاء مثل قطيع من الذئاب المسعورة وراحوا يقطعوه ويضربونه ويمزقونه بالسيوف والخناجر والهراوات.

والحقيقة أن كل سلاح وقع تحت أيديهم كان يستخدم بوحشية. وكان على الجلاد المكلف بإعدامه أن يقف جانباً دون عمل بينما الآخرون يمزقون سجينه قطعاً ويأخذونها ليحرقوها في أرجاء مختلفة من المدينة.

وكثير منا، بعد أن عرفنا أية عصبة متعطشة للدماء كان أسلافنا، يميلون نحو التحسن بسرعة. ونقول: "خلاصة الأمر أن هذا قد حدث منذ زمن بعيد. إنه تاريخ قديم. كانت الحياة رخيصة.. الخ.. الخ.. الخ".. وحقيقة الأمر أنه ليس كله تاريخاً قديماً. هل نعتبر شنق الأطفال نوعاً من التعذيب؟ اعلم إذاً أنه منذ قرن فقط كان الأطفال في إنكلترا يشنقون من أجل الجريمة المتمثلة في سرقة طلاء قيمته بنسان. وقد وصف لنا معاصرون كيف كانوا

يشعرون وهم يرون عربات محملة بالفتيات الصغيرات، اللواتي يرتدين ملابس ملونة، وهن في طريقهن إلى حيث يشنقن على "الشجرة الميتة التي لا تخضر أبداً" في تيبرن. ويقول شاهد عيان على موكب مأساوي مشابه من الصبيان: "لم يسبق لي أن رأيت صبياناً يبكون هكذا".. ولماذا يبكون؟ كانوا أطفالاً يجرون إلى موت وحشي حقير.

وكانت هناك ممارسة أخرى في إنكلترا "العجوز المرحة" لا علاقة لها بالجريمة أو بالعقاب أو بالقانون. قديماً حين كان منظفو المداخن منتشرين مثل انتشار مصلحي التلفزيون في أيامنا هذه، كان عمال هذه المهنة الأساسيون صبياناً صغاراً. كان يجب أن يتوفر فيهم صغر الحجم لكي يستطيعوا الانسلال عبر المداخن الضيقة. وكثيراً ما كان أحدهم ينحشر في المدخنة فلا يستطيع التحرك. تعرف ما هي الطريقة المقبولة التي كانت تتبع لتخليصه؟ ببساطة: إشعال النار تحته. ولم يكن ذلك يؤدي الغرض دائماً وخاصة حين يكون الفتى محشوراً بشدة في مكان ما من المدخنة، فلم تكن النار تفعل شيئاً أكثر من حرقه ببطء حتى الموت. غير أن هذا لم يكن إلا أسلوباً واحداً من بين الأساليب المتعددة. فالمهم أنه ليس أكثر من منظف مداخن. وفي معظم الأحوال كان يعتبر من الأمور المسلية التفرج على آلام الصبي وهو يتملص من المدخنة مندفعاً أهوج بسبب الحرارة اللاذعة والدخان الخانق والخوف الأعمى. وتستطيع بشكل ما، أن تقارن هذه العملية بالتجمع الذي يحدث اليوم لمشاهدة شخص ما وهو يشنق أو يقتل في مكان عام. إنه أمر أكثر إثارة من التلفزيون ولا تعادله حتى الإعلانات التجارية.

والمسألة أن الإنسانية ما تزال رحيمة جدّاً. فنحن لم نصل بعد إلى مقام نقترب فيه من القدسية ولو عن بعد، وذلك على الرغم من أن قلة نادرة من

أمثال الدكتور الراحل ألبرت شفيتزر[1]، قد اقترب من تحقيق ذلك. فربما كنا نستطيع ادعاء حسن النوايا بين حين وحين آخر إلا أننا في غالب الأحيان متعودون على التمتع بآلام الآخرين ومعاناتهم، سيان اعترفنا بذلك أم لم نعترف. لم يعد الإنسان الأصفر "عديم الرحمة" ولم يعد الأسود متوحشاً، والإنسان الأبيض وعلى الرغم من رأيه في نفسه، ليس أفضل من الآخرين وليس أسوأ منهم.

بالنسبة إلى من لم يقتنعوا بعد بذلك، سنعيد عقارب الساعة إلى الوراء وإلى حادث صغير جرى خلال الحرب العالمية الثانية. كان مرفأ كازابلانكا (الدار البيضاء) المغربي يعج بالنشاط. وعلى طول الشاطئ كانت هناك جدران حجرية ودرجات عالية. ولم يكن مشهداً نادراً رؤية جثة عارية لأمريكي شاب أو إنكليزي أو أسترالي - فجنسيته لم تكن تهم كثيراً، لقد كان في صفوف قوات الحلفاء. وكان المقتول دائماً مقيد اليدين والقدمين ومغطى بالكدمات والجراح - وقد بترت أعضاؤه الجنسية. ولم تكن مبتورة فقط بل مقطوعة من مكانها وموضوعة في فم صاحبها - إشارة صغيرة ودية تعبر عن عدم محبة هذا الكافر الذي اغتصب النساء المسلمات.

وعلى الرغم من التحريات الرسمية، فإنه لم يتم التوصل إلى حل لغز أي من عمليات القتل هذه. وكانت تحدث، بشكل عام، عمليات انتقام بشكل حوادث اغتصاب أو حوادث قتل في البارات أو تحطيم كباريه. وهذه الحوادث أيضاً، كانت تمر بشكل عام دون عقاب.

الحادث المقصود قابل للتكرار لأن له دلالته. في كازبلانكا، كما في معظم الموانئ، كان هناك مجال واسع للترفيه والتسلية. وفي النهاية كانت

---

(1) ألبرت شفتيزر (1875 - 1965) فيلسوف وعالم لاهوتي وعازف أورغ. قام كطبيب بمهمة إنسانية في إفريقيا الاستوائية ونال جائزة نوبل.

الأمور تنتهي إلى معيارين: الذوق والمحفظة، إن كنت راغباً في دفع السعر فليس هناك حدود للمسألة، والبرامج كلها كانت صاخبة. ولم تتغير الأمور بهذا الخصوص في كازابلانكا أكثر مما تغيرت في مرسيليا أو بالبوا أو يوكوهاما أو أي مرفأ آخر.

وفي ليلة معينة كانت هناك مجموعة من البحارة من ست جنسيات على الأقل التقوا، كل من طريق، في غرفة صغيرة حارة تفوح بالمعصية في القصبة[1]. وتحلقوا على مقاعد قاسية متفاوتي السكر يسعلون ويتجشؤون وينفخون غيوماً متلاحقة من الدخان في الجو المشبع أصلاً بالدخان. كانت هناك ستارة معتمة تغطي النافذة الوحيدة. وكان الضوء الوحيد يأتي من مصباح كهربائي صغير متدل من السقف بحبل أسود بال. ومن مكان ما في الخلف كان يسمع صوت المحرك. ربما كان مولد الطاقة للمصباح العاري لأن ضوءه كان يشع ويخفت بالتناغم مع الصوت.

لمدة ربع ساعة تقريباً كان كل منهم جالساً حول المنصة المرتفعة في مركز الدائرة ينتظر بصبر. وعندها أطلق أحد الأمريكيين، وهو مزيت على سفينة ليبرتي، صرخة مفاجئة: "بحق المسيح دعونا نشاهد هذا العرض اللعين فوراً". وخلال لحظة علا الضجيج في المكان كله. وبدأوا يصيحون ويخبطون ويرفسون. وكان القتال على وشك أن ينشب حين ظهر عربي ضخم ذو لحية حمراء من وراء الستارة. من مظهره كان يمكن للمرء أن يحكم أنه بربري أو حتى أوروبي مرتد. ولم يكن هذا يعني أي شيء. كانت وراءه فتاة تلبس الزي التقليدي المحجب للنساء المسلمات. توقفت الضجة بالسرعة التي بدأت بها. كان ذو اللحية الحمراء يرتدي بذلة تبدو وكأنها مأخوذة من فيلم قديم لفالنتينو. الشيء الوحيد فيه الذي لم يبدُ

---

(1) لا يعني حي القصبة المعروف في الجزائر بل أي حي وطني في مدينة من شمال أفريقيا.

مصطنعاً كان سيفاً معكوفاً يتقلده وهو مربوط من خلال مسكة في غمده مدلاة على خصره.

عند دخولهما الغرفة جلب الاثنان معهما جواً غير مريح؛ إنه مزيج كريه من رائحة الإبط والعطر الرخيص والثوم والسمك المنتن. وفيما راح الرجل يحدق في جمهوره تقدم ثلاثة فتيان هزيلين من وراء الستارة القذرة. كان أحدهم يحمل نوعاً من الربابة والثاني معه صنجان صغيران للأصابع في كل يد والثالث معه نوع من الطبل. وبدأ البحارة يتململون من جديد. وتكلم البحار الأمريكي ذاته الذي كان قد بدأ المشكلة: "طيب يا علي بابا، ما الذي ستقوله؟".

كأنما كان قوله هذا إشارة انطلاق. في لحظة كان الآخرون كلهم قد بدأوا يتكلمون بلغات متعددة. وقف ذو اللحية الحمراء دون حراك. ثم فرقع بأصابعه مرة واحدة. بدأ الفتيان الثلاثة يعزفون، إذا صحت تسمية ذلك الشيء عزفاً. كان نشازاً نائحاً أقرب إلى ضجيج الحافلات منه إلى الموسيقى. إلا أنه كان هناك نوع من الإيقاع الحسي يصدر عن تصادم صنوج الأصابع وقرع الطبل. كان الأمر في مجمله مسفاً، ولكن صوت الربابة الذي هو كصوت المسمار على الزجاج كان نوعاً من التعذيب لأي محب للموسيقى.

ولم يكن هناك عشاق موسيقى بين الجمهور. كل شخص موجود هناك كان مهتماً بشيء واحد فقط هو "العرض". وقد بدأ العرض بعد مقدمة قصيرة. خلال دقائق قليلة قدم الرجل والمرأة ما يشبه الرقص. والحقيقة أن كل منهما لم يكن يفعل أكثر من تمزيق ملابس الآخر فيما هما يتماوجان على المنصة الصغيرة. وحالما انتهى ذلك لم تعد هناك أية حاجة لمتابعة المهزلة. إلا أنهما لسبب ما تابعا. كان مشهداً غريباً.

ومع استمرار الثلاثة الجامدين في العزف في خلفية المنصة قام الرجل

المغطى جزئياً بلمسات من الزغب الأحمر بإلقاء المرأة أرضاً على ركبتيها ثم اعتلاها وكأنها كلبة في حالة نزاء.

وراح البحارة يحدقون مأخوذين وخيوط صغيرة من العرق تتدفق على وجوههم. وراح العارضان يتحركان على إيقاع الموسيقى ويضيفان زعقات ونخرات وهمهمات من حلقيهما. وكان من الممكن أن يصل الأمر إلى ذروته المقررة لولا أمر واحد. كان المجال ضيقاً إلى درجة أن أي واحد من المشاهدين كان يستطيع أن يصل ويمسك الثنائي على المسرح. ولا شك في أن الفكرة قد مرت ببال أكثر من واحد. ولكن كان يكفي أن يفعلها واحد. كان بحاراً فرنسياً شرب أكثر من الآخرين. وكان يجلس في الصف الأول مشدوهاً منذ اللحظة التي دخل فيها مترنحاً. وما جعله يفعل ما فعله أمر غير قابل للتفسير. كان وراء "الراقصين" مباشرة وليس أبعد من ثلاثة أقدام طبعاً. وكان يمسك بيده حذاء جلدياً إيطالياً. وبغتة، وبحركة سريعة أفعوانية، نفض الرماد وأطفأ سيجاره المشتعل، مستخدماً مؤخرة الرجل ذي اللحية الحمراء كمنفضة. وانفجر الجنون. كان ضحية هذه العملية الحمقاء قد أطلق زعقة تجمد الدم في العروق وتطغى على كل شيء آخر. وقفز البحارة وتعثروا وركضوا يتدافعون إلى الباب وكل منهم يسقط على الآخر والجميع يدوسون الموسيقيين الفتيان الذين كانوا يبذلون قصارى جهودهم الآن للهرب. وأمسك العربي بسيفه المعكوف وهو يصرخ ألماً وغضباً واندفع عارياً نحو الرجال الهاربين. لقد خرج الجميع أحياء. ولم يعد هناك ما يحكى عن القصة.

عدد من الرجال الذين كانوا حاضرين يتذكرون هذه الحادثة، عند التحدث عنها بعد ذلك، على أنها شيء ظريف؛ نكتة عظيمة وقصة جميلة تحكى للأولاد عند العودة إلى الوطن، أما حقيقة كونها ـ من الناحية التقنية ـ أمراً فظيعاً فلم تخطر لهم على بال. هذا على الرغم من أنهم كانوا يذعرون

حين يسمعون عن الرجال الذين يخصون أو يذبحون أو يقذفون على الجدران. كانوا يقولون إن هذا أمر مختلف. بالنسبة إلى الدرجة يختلف الأمران فعلاً. أما في الصميم، فهل كان هناك فعلاً أي فارق بينهما؟!

التعذيب وسيلة لتحقيق الهدف

لقرون خلت والفلاسفة وعلماء النفس يبحثون عن إجابة عن السؤال المحير حول السبب الذي يجعل الإنسان بكلمات جان بول سارتر "أكثر الحيوانات فحشاً وضراوة وجبناً". والذين يبحثون عن الحقيقة كانوا غالباً يفشلون في التعرف عليها لأنها، كما أشار الشاعر ملتون، غالباً ما تكون "أكثر تخفياً وأكثر ترويعاً من كثير من الأخطاء". أما الآخرون الذين أخطأوا فنقبوا عميقاً جداً فقد دفعوا الثمن الأكبر، لأن الحقيقة كانت دائماً تجعل السلطة ترتجف. ولم تبدأ جذور دوافع الإنسان الخفية بالظهور من الظلام إلا في السنوات الأخيرة، والفضل الأساسي في ذلك لعزق معاول فرويد. ولسنا في أكثر من بداية التعلم لماذا يتعاطف الإنسان مع العنف. وللأسف ما نزال بعيدين جداً عن أن نتعلم كيف نحمي أنفسنا بشكل دائم. وفي أحسن حالاتنا لا نبدو أكثر من قادرين على التنافس فيه فنقترف بهذا الجرم ذاته الذي نقول لأنفسنا أننا نود أن نقمعه.

وعلى الرغم من هذا البحث المغرق في قدمه عن مفتاح حقيقة "وحشية الإنسان تجاه الإنسان" فقد كان هناك كمية هائلة من الأعذار. وعلى الرغم من وجود الألعاب الرومانية فإن التعذيب بين القدماء يعتبر وسيلة لانتزاع المعلومات. وهذا، وبالطبع، كان وما يزال المبرر الأكثر شيوعاً لاستخدام التعذيب. والسبب في اعتباره مبرراً واهياً سبب واضح

جداً. فالذين يرغبون في أن يكونوا شهداء نادراً ما يعترفون أو يكشفون عن أي شيء بالإكراه. وعلى العكس من ذلك، كان آخرون قد عرف عنهم أنهم يعترفون بأية جريمة ويقدمون أية معلومات عندما يخضعون للتعذيب.

حين كانت محاكم التفتيش في ذروة أعمالها اتهمت امرأة من لشبونة اسمها ماريا كوتشيكاو بالهرطقة وعذبت على المخلعة. اعترفت فوراً. ولكنها حين استجمعت قواها تنكرت لاعترافها. عذبت ثانية وثالثة وفي كل مرة كانت تعترف، وبعدها تتنكر لاعترافها. وبعد ذلك ثبطت من عزائم المحققين حين قالت: "حالما أتخلص من المخلعة سأتنكر لما انتُزع مني وأنا متألمة".

كانت ماريا محظوظة جداً لأنها بتشبثها الشجاع بموقفها الثابت تخلصت بحكم مخفف نسبياً - الجلد العلني ثم النفي عشر سنوات. وحقيقة كونها برئت من الذنب لا علاقة لها بالمسألة. ففي كل مرة يمارس فيها التعذيب فترة طويلة يصبح من المستحيل على الضحية أن تثبت براءتها.

إلا أننا سنكون في منتهى السذاجة إذا خطر لنا أن من يقومون بالتعذيب يهتمون أي اهتمام ببراءة ضحاياهم أو إدانتها. فحين لا يعلنون عن أنفسهم أنهم أدوات الانتقام (الإلهي)، فإنهم يدعون أنهم منفذو العدالة العمياء. وبمعزل عن السلطة التي يدعون خدمتها فإن مبادئهم غير المرئية تظل على ما هي عليه. وهم قادرون على التبرؤ من الذنب الشخصي لأنهم لم يكونوا أكثر من منفذين للأوامر، وبتبني هذا الموقف لا يتخلصون من ذنوبهم فقط، بل إنهم يخلصون المجتمع من ذنوبه.

ولقد كانت هناك بعض المواقف "العملية" من التعذيب، وهي مواقف فعالة في القرن العشرين بمقدار ما كانت فعالة في العصور المظلمة. ولقد كان الطغاة، من نيرون حتى هتلر، يعززون مكانتهم بتقديم الضحايا إلى

الغوغاء المتعطشة للدماء. هل هناك تعبير عن الكراهية أكثر وضوحاً من التعذيب؟! وهل هناك وسيلة أكثر فعالية لبث الذعر من التعذيب؟! وهل هناك وسيلة لإجبار الناس على التصرف بطريقة محددة أقوى من استخدام التعذيب؟!

لقد كتبت أجوبة هذه الأسئلة وأعيدت كتابتها بدماء شهداء قضايا عديدة وبدموعهم. وللأسف إن تاريخ هذه المعاناة البشرية ما يزال يكتب في أجزاء كثيرة من العالم. وحين نقرأ عن فظاعات الماضي، وخاصة فظاعات العصور القديمة والوسيطة، فإن هناك مبرراً كافياً للارتجاف. إلا أن ما يزعجنا ويربكنا ليس تلك النظرة إلى الوراء التي نلقيها على الأزمنة السحيقة، بل هو معرفتنا بأن هذه الأعمال الفظيعة ما تزال تحدث. الأمر المخيف هو إدراكنا أننا، نحن البشر، لم نتجاوز النزعات الهمجية في ماضينا.

منذ سنوات أشارت صحيفة اسكوتلندية إلى "ذلك الحيوان الغريب المدهش الهمجي والمقرف والذي اسمه الإنسان". ويا له من وصف دقيق! حين نسمع عن جريمة مروعة ارتكبت نصرخ ونثور مطالبين بتطبيق العدالة. وإذا ما صدف، خلال مجريات الحوادث، أن تسلم السلطة شخصاً ارتكب فظاعة ما ضد المجرم، نهز رؤوسنا علناً ونهمهم "رهيب". أما في سرنا فنقول لأنفسنا إن هذا المجرم لم ينل إلا ما يستحقه.

وعلى الرغم من أننا لا نحب أن نعترف بالأمر إلا أن أسوأ الفظاعات التي ارتكبها أسلافنا الأوروبيون إنما ارتكبت باسم الرب والوطن والصالح العام. ففي العصور الوسطى - وبعدها بزمن طويل أيضاً - لم يكن هناك ما يعتبر رهيباً أكثر من جريمة بحق الرب. فجريمة كهذه تستنزل عقوبة سماوية على المجتمع ككل، ولذا لا بد من التعامل مع المذنبين فوراً قبل حلول الكارثة. إن للجريمة أنواعاً عديدة لكن لها اسماً واحداً:

الهرطقة. وفي أذهان العامة، إن النهاية المنطقية للهراطقة هي الموت مع الألم الشديد. وعلى الرغم من أن الكنيسة (إلى أيام محاكم التفتيش) كانت تتخذ موقفاً متسامحاً نسبياً وكانت تعاقب الهرطقة بالكفارات والحرمان من الحقوق الكنسية، إلا أن العامة كانت تطالب بالدم. وكانت تظهر بين حين وآخر أصوات معارضة في الكنيسة. فالقديسة هيلديغارد كانت تصر على أنه حتى الهراطقة هم أبناء الرب ويجب أن لا يحرم أي منهم من حياته. غير أن دعوة تلك القديسة من أجل هؤلاء الخاطئين لم تحقق نفعاً كبيراً، فالقليل من الهراطقة من نجا بحياته، إذ كان زملاؤهم يمسكون بهم ويعذبونهم حتى الموت. وبالنار عادة.

ومع الأيام، ومع انغماس السلطات الكنسية في أمور غير روحية تغيرت الظروف. كان الملوك والأباطرة والأساقفة والبابوات يتنافسون فيما بينهم على الممتلكات والثروات والسلطة. وكانت للكنيسة الكلمة العليا لأنها تمسك بمفاتيح أبواب العالم الآخر. وكلما شكّل أفراد أو جماعات خطراً من أي نوع، كانت الكنيسة تقف في وجوههم بغض النظر عن المركز أو العمر أو الجنس.

ومذبحة الألبيجنسيين[1] مثال واف. كبرت هذه الطائفة الدينية، التي لم تقدم ولاءها لروما، إلى درجة أن البابا ألكسندر الثالث، أصدر فتوى ضد أتباعها في المجلس المسكوني الحادي عشر في عام 1179. وبدأت حملة صليبية ضد الأبيجنستيين انتهت بعد خمس وستين سنة بحرب مدمرة، وكانت النتيجة مذبحة هائلة لمن تبقى من الهراطقة في برج مونتسينور في لانغيدوك بفرنسا.

---

(1) (Albigensians) مذهب ظهر في جنوب فرنسا في القرنين الثاني عشر والثالث. وقد جاء الاسم من مدينة البي، بدأت الحملة ضد أتباعه عام 1209 واستمرت حتى القضاء عليهم عام 1244.

في ذلك الحين كانت محاكم التفتيش قد تأسست وانتشرت فروعها القوية في أنحاء أوروبا كافةً مثل شجرة هائلة. وصارت السياسة مسألة أكثر ضغطاً من الإيمان بكثير. ولهذا فعلى الرغم من التحاملات غير المستحبة ضد الحكام إلا أنهم كانوا، كباراً وصغاراً، يتعاركون مع الكنيسة ويتعاركون فيما بينهم معتمدين على أي تحالف يكون مستحباً أكثر من غيره في كل فترة متاحة. كان الرهان كبيراً واللعبة قاتلة. وكان السلاح الأكثر فعالية هو الخوف. وكان من أفضل الوسائل للإبقاء على السيطرة استخدام التعذيب، ولذلك فقد استخدمه الجميع.

حين بدأت محاكم التفتيش في النصف الأول من القرن الثالث عشر لم تحكم على الهراطقة بالحرق. كان المحققون أكثر حساسية بكثير من أن يفعلوا ذلك. كانوا رجال دين منضبطين غير معنيين إلا بشن الحرب ضد أعداء الله والكنيسة. وعند النطق بالحكم على مهرطق سادر في غيه كان رئيس اللجنة القضائية يعلن: "بما أن الكنيسة لا تستطيع أن تفعل شيئاً بمهرطق من نمطك فإننا نحيلك إلى المحاكم الدنيوية، ومع ذلك فإننا نوصيها بالسلطة التي لنا عليها، وحسب مقتضيات القانون، أن تحافظ على حياتك وعلى أعضائك من خطر الموت إذا ما اعترفت اعترافاً كاملاً بتهمة الهرطقة المعزوة إليك".

وبالطبع، لم تكن المحاكم الدنيوية تلقي بالاً لهذه التوصية، كما أن أحداً لم يتوقع منها ذلك، وإلى جانب ذلك كانت هناك سبل لانتزاع الاعترافات من أولئك الذين كانوا يرفضون الكلام. وذلك لأنه في القرن الثالث عشر كانت هناك فتوى بابوية بالسماح باستخدام التعذيب. وفي إسبانيا والبرتغال انحدرت محاكم التفتيش إلى حيث أصبحت حكماً سياسياً قوامه الإرهاب.

وحتى مجرد النظرة إلى غرفة التعذيب كانت كافية لدفع الإنسان إلى

الاعتراف. كانت، عادة، عبارة عن قبو معتم دون نوافذ وتحت الأرض فيه جوانب غائرة في الظلمة ولا يضاء إلا بشموع راعشة يتصاعد منها الدخان، عند الدخول الأول إلى الزنزانة كان السجين يلقي نظرته الأولى أيضاً على معذبيه. كانوا ملفعين بالسواد وغارقين في صمت جليدي. يخفون ملامحهم بأقنعة سوداء مخفية لا تظهر إلا عيونهم. وللمزيد من الإرهاب عند الوصول، كان السجين، أو السجينة، يعرى "دون اعتبار للإنسانية أو الشرف، ليس فقط فيما يتعلق بالرجال، بل وبالنساء والعذارى وأكثر النساء شرفاً وفضيلة ممن يأتين أحياناً إلى السجون".

كان الأسلوب المفضل في التعذيب هو المخلعة والبكرة والحديد المحمى والجلد. ولم تكن هناك وسيلة واحدة يمكن اعتبارها الأكثر قسوة. فالنظام ككل كان يقوم على التعذيب. وكان مجرد الوقوع في قبضة محاكم التفتيش يعني الحكم النهائي بالموت لأن قلة نادرة استطاعت النجاة. وكان الجلد شائعاً بالنسبة إلى هؤلاء السجناء مثل استنشاق الهواء. يقول أحد الكتّاب في وصف محاكم التفتيش في لشبونة: "لأقل خطأ يُجلد المرء جلداً عنيفاً. يعرونه ويلقونه على الأرض على وجهه. ويمسك به عدة رجال وهو في هذه الوضعية بينما يقوم آخرون بجلده بقسوة بالغة بحبال تزداد قساوتها بغمسها بالزفت، حتى تصبح قادرة على انتزاع اللحم مع كل ضربة، وحتى يصبح الظهر قرحة كبيرة واحدة".

ولقد كانت هناك، بالطبع، وسائل تعذيب أخرى معقدة تطبقها محاكم التفتيش لا تكفي المجلدات لسردها، ويأتي أحد الأوصاف ممن عانى من المعاملة الوحشية وهو الاسكوتلندي وليم ليشغو الذي أوصله سوء حظه إلى إسبانيا عام 1620، وإذا صدقنا روايته فإنها رواية قيمة لأن شخصاً له قدرة استثنائية على الاحتمال هو وحده الذي كان من الممكن أن يعيش بعد التعرض لهذه الوحشية.

اعتقل تحت شبهة أنه جاسوس، وألقي في زنزانة وعُذب لمدة طويلة من الزمن. إضافةَ إلى وضعه على المخلعة وجلده، مُزِق لحم إحدى يديه لأنه كان عليها وشم يحمل اسم الملك جيمس الأول وتاجه. ولقد انزعج المحققون من هذا الوشم لأنهم كانوا يعتبرون الملك الإنكليزي عدواً مهرطقاً. وبعد ذلك كله يقول ليشغو: "بدأت عيناي ترتجفان وفمي يرغي ويزبد وأسناني تصطك مثل إيقاعات مضارب الطبال. يا لوحشية البشر الغريبة، يا للجزارين الرهيبين! وعلى الرغم من عجزي عن مقاومة ارتعاش شفتي، في هذه الحالة الانفعالية الهائجة، وتأوهاتي الحارة، ودمي المتدفق من ذراعي وأعصابي المحطمة وفخذي وركبتي المتخاذلة، وارتكاز ثقلي على حبال تقطع اللحم، فإنهم راحوا يضربونني على وجهي بالهراوات لإسكاتي ولإيقاف صراخي الداوي".

ويقول إنه كان يوضع على المخلعة يومياً ساعات عديدة في نهاية العملية، وأخيراً وبعد اثنتين وسبعين ساعة دون طعام أو شراب أخضع لـ "تورمنتود وتوكا" أو التعذيب بالماء. وكان هذا يشتمل على سكب الماء في حلقه عبر كيس من الشاش. وفيما كان الماء ينزل كان المسكين يتقلب ويقاوم إلى أن يدخل الكيس إلى معدته. وفي وصف هذه الطريقة يقول ليثغو: «يا للعذاب الخانق! أغلقت شفتي مرة أخرى لإيقاف هذه القسوة البالغة. الأمر الذي أثار غضب "الكابدي"[1] ففتح لي أسناني، حيث أن بطني المنطبق جوعاً كان يصدر أصواتاً من خوائه أشبه بالطبول، لأن الألم كان خانقاً خاصة أن رأسي كان متدلياً وكان الماء يتسرب في حلقي بقوة دافقة، فقد كان الماء يخنقني ويقطع أنفاسي بسبب زعيقي وأنيني».

وإضافة إلى هذه القسوة التي عاملته بها الأيدي البشرية، يخبرنا ليشغو بأنه: "قد ابتليتُ بالحمى الوحشية الناجمة عن الهوام اللاذع الذي كان

(1) لقب مسؤول السجن.

يتقلب في مجموعات كبيرة زاحفة داخل جسدي وحوله وعليه، وتتجمع حول لحيتي وشفتي ومنخري وحاجبي حتى تكاد أن تحجب عني الرؤية. ولإرضاء نزعاتهم القاسية بشكل أفضل قام الحاكم باستدعاء أريتا، حافظ صحنه الفضي، لتجميع هذه الحشرات وإلقائها عليَّ مرتين خلال ثمانية أيام، الأمر الذي كنت سأعاني منه حتى الموت لو أنه كان عقوبة دائمة".

وعلى الرغم من قسوة هذه الأساليب في التعذيب إلا أن الأساليب المطبقة تحت إشراف محاكم التفتيش تظل تعتبر من الدرجة الثانية. فالمهم هو النتيجة النهائية. فإذا مات السجين دون الاعتراف بأية جريمة فقد كان يعتبر من الأفضل التخلص منه بهذه الطريقة. أما إذا اعترف وأعلن عن إيمانه فقد كان هذا هو الأفضل. ليس فقط لأن المشهد العلني المتضمن إحراق الهراطقة التائبين كان يسر العامة، بل كانت وظيفته أن يكون إنذاراً صارماً لهم بأن يتصرفوا بطريقة مرسومة بدقة وحزم.

حين بدأ الإصلاح البروتستانتي في القرن السادس عشر صار أتباع الحركة الجديدة أعداء لدودين للكنيسة الكاثوليكية. ومن الطبيعي أن أية فئة يصدف أن تكون هي الأقلية في أي مكان كانت تتعرض للاضطهاد من الفئة الأخرى. وكانت كل فئة مصممة على قمع الأخرى بكل الوسائل. وكان من المفضل اللجوء إلى العنف. ولقد لخص مارتن لوثر الحس العام حين قال: "لا حاجة لأن يظن أحد أن العالم يمكن أن يحكم دون دماء. كان السيف المدني، وعليه أن يكون، دموياً".

الصدع العميق الذي مزق المسيحيين إلى معسكرين كان قاتلاً بحيث أنه حين يحدث الصدام المنتظر كان الضعفاء يسحقون دائماً. وقد أفاد شاهد معاصر لمذبحة الدولدويين[1] بما يلي: «هجم الجمع المسلح على الدولدويين بشكل عنيف جداً، ولم يكن لشيء أن يُرى إلا الرعب والأسى،

(1) فرقة مسيحية بزعامة بييروولدو ونشأت في جنوب فرنسا عام 1670.

دم يلوث أرض البيوت، أجساد ميتين ملقاة في الشوارع. الصرخات والتأوهات تسمع في كل مكان... في إحدى القرى عذبوا، بوحشية، 150 امرأة وطفلاً وذلك بعد أن هرب الرجال ثم قطعوا رؤوس النساء ونثروا أدمغة الأطفال».

ولقد قرأنا عن حوادث مشابهة في إيرلندا 1642 عندما تم تقتيل البروتستانت الإنكليز. رجال ونساء وأطفال شُوِّهت أجسادهم ورجموا حتى الموت أو تم شيهم وهم أحياء. بل كان هناك ما هو أسوأ من ذلك؛ حيث بقرت بطون الحوامل وأخرج الأجنة. وأجبر الأطفال على ذبح آبائهم وأمهاتهم وأجبرت الأمهات على ذبح أطفالهن والرجال على ذبح زوجاتهم.

وحتى العالم المعاصر الذي يشاع عنه بأنه ملجأ من الاضطهاد الديني لم يكن إلا جحيماً للمنشقين. فحين طوردت جماعة من الكويكرز[1] خارج بريطانيا في القرن السابع عشر، لأنهم اعتُبروا تهديداً للنظام، هربوا إلى أمريكا آملين أن يجدوا فيها الحرية والأمان. ولكنهم بدلاً من أن يجدوا ذلك اضطهدوا بقسوة من قبل البيوريتانيين المتطهرين في نيو إنغلاند، الذين كانت ذاكرتهم قاصرة بشكل واضح. وبزعامة الحاكم جون انديكوت قام مستوطنو ماساتشوستس الشجعان بتعذيب القادمين الجدد تعذيباً لا رحمة فيه. ليس فقط كانوا يلاقون الإذلال العلني، بل إن بعضهم سجن وآخرون أعدموا أو بيعوا رقيقاً. والقصة المخزية كلها مسجلة في كتاب لا يدرس إلا في المدارس العامة. عنوان الكتاب هو "نيو إنغلاند تحكمها روح الرب" لجورج بيشوب. وكان هذا الكتاب قد نشر في لندن عام 1703. والمقطع التالي تسجيل لبعض ما فعله بعض آبائنا المؤسسين لمنحوس من الكريكر اسمه وليم برند.

(1) الصاجيون وهم مذهب يدعو إلى البساطة وإلغاء الطقوس وتجنب الحروب.

"قيده السجان بقيود حديدية في رقبته وقدميه وقد قارب بينها بشدة بحيث لم يبق مجال بينها لخصلة شعر الحصان التي شدتهما بإحكام. وترك على هذه الحالة لمدة / 16/ ساعة - كما اعترف السجان نفسه - لأنه لم يشتغل، وظل هكذا دون طعام فيما ظهره يتمزق من الجلد الذي يتعرض له في اليوم السابق، الأمر الذي لم يرضِ السجان المتعطش للدم. ولأن الجلاد كان مصمماً على القضاء عليه وقتله بهذه الوحشية أنزله إلى الشغل في اليوم التالي. وعلى الرغم من أنه ظل عدة أيام دون طعام إضافة إلى الجلد ورقبته وساقاه مزرقة من القيد لفترة طويلة إلا أنه لم يذعن لأوامره، لذا ألقاه أرضاً وضربه عشرين ضربة بحبل مغمس بالزفت على ظهره وذراعيه وبأقصى ما يستطيع من قوة ولدرجة أنه لقسوة الضربات تصلب الحبل وتورمت ذراعاه أيضاً. وبعد ذلك فوراً، إما لأن السجان قد أصلح حبله أو لأنه جلب حبلاً جديداً، عاد إليه مجدداً. وبعد إلقائه عن الدرج بعنف وقوة يفوقان ما مضى، سلط على جسده المتكسر والمزرق والواهن أربع وجبات من السياط (كل وجبة من عشرين سوطاً) وسبع عشرة ضربة أخرى والزبد يخرج من فمه كالمجنون والغضب يمزقه. ويضاف إلى ذلك المزيد من الضربات لو أن حيله وقوته لم يخذلاه إذ أنه الآن لم يعد يهتم بما يفعله. وهذا كله لأن المسكين لم يعمل في خدمته، الأمر الذي لم يكن يستطيع القيام به لعجزه الجسدي ولكون عقله غير محرر. وهكذا جلده 117 جلدة بالمجموع بحبل مغموس في الزفت حتى اسود لحمه وتحول إلى هلام، وتحت ذراعيه تدلى اللحم المزرق وسال الدم، وهو معفر كأنه موضوع في كيس، يتعرض الكيس للضرب فلا يعود من الممكن رؤية موقع أية ضربة من غيرها"[1].

هنا أيضاً مثال على التعذيب المستخدم في التعامل مع أناس كانت

---

(1) هذا المقطع مكتوب أصلًا بركاكة.

جريمتهم الوحيدة تبني معتقدات خاصة بهم. ومن زاوية هذا الاحتكاك الشديد بين الطوائف المختلفة يصعب تصور أنها قد استطاعت الاتفاق على شيء. إلا أنه كان هناك نشاط مشترك وحيد انسجم فيه الكاثوليك والبروتستانت انسجاماً ضمنياً؛ وهو اضطهاد الساحرات.

كانت شنيعة وقاسية تلك الفظاعات التي أوقعها صيادو الساحرات على ضحاياهم إلى درجة لا يرقى إليها الخيال. وكالطقوس العنيفة الجماعية كافة، فقد تطور الهوس بالساحرات تطوراً بطيئاً. ففي القرون الأولى من المسيحية كان السحرة الذين يعدمون يموتون من أجل جرائم محددة كالقتل. وكان السحر ذاته يعتبر في مجمله نشاطاً متناقضاً مع المسيحية وبالتالي يجب ألا يمارس ولا يشجع. وكان الذين يعملون في مجاله يعاقبون بشكل عام بالكفارة وبالتوبيخ القاسي والحازم للإقلاع عن السحر.

وحين بدأت محاكم التفتيش حربها على الهرطقة، كان الذين يتهمون بممارسة السحر غالباً ما يعذبون حتى الموت، ولكن بصفتهم هراطقة وليس بصفتهم سحرة. وعملية الإحراق حتى الموت تعود بشكل عام إلى رأي يعزى لبارتولوس من ساسوفيراتو، وهو قاض أومبري يعتبر من أفضل العقول المشرعة في القرن الرابع عشر. وقد أمر بإحراق الساحرات معتمداً على كلمات المسيح: "من لم يبقَ معي ينخلع كغصن ويذبل، ثم يجمعها الناس ويلقونها في النار لتحترق".

في عام 1484 حين أصدر إنوسنت الثامن بيانه التاريخي ضد السحر "سوموس ديزيد يرانتيس افيكيتبوس" تغيرت الصورة تغيراً جذرياً. كان قداسته يعتقد فعلاً أن مؤسسة السحر قد أصبحت تشكل خطراً حقيقياً على الكنيسة، وأوكل صلاحية تنفيذ البيان لراهبين ألمانيين، جاكوب شبرنغر وهايزيش كرامر. وكان هذان ساديين ومتصلبين وذكيين. وأكثر

من ذلك كانا من أشد الناس عداء للمرأة وكراهية لها إن لم يكن في كل زمان ففي عصرهما على الأقل. وقد كتب هذا المحققان مذكرة "ماليوس ماليفياكروم" أو "مطرقة الساحرات" التي قال عنها هري لي، الذي كان المرجع الأول في العالم في تاريخ السحرة، إنها "أكثر الآثار ترويعاً حول الخرافات في كل ما صدر في العالم". لقد منهجت مبدأ السحر وأصبحت عملياً مجموعة من القوانين يرجع إليها القضاة الموكلة إليهم مسؤولية محاكمات السحرة. وخلال القرون الثلاثة اللاحقة اعتبر الكاثوليك والبروتستانت السحر سلاحاً فتاكاً. وضنف الخرافات والسخافات المتعلقة بالسحر كافةً، وخاصة تلك التي لها طبيعة جنسية. وفي أيامنا هذه يعتبرها المحللون النفسيون مثالاً حياً على الشذوذ الجنسي المكبوت والإحساس بالذنب الممتزجين بعقدة الخصاء عميقة الجذور. ويسجل التاريخ الأثر القاتل الذي يحدثه هذا الخليط.

وبما أن بيان البابا ضد السحرة قد صدر أصلاً من خلال التقارير الواردة من ألمانيا، فقد عرفت هذه البلاد سلسلة مروعة من عمليات القمع. ولقد هيمن الخوف الدائم من الاعتقال والتعذيب والموت الغامض على البلاد كلها وألقى بظله الرهيب. كان الرجال والنساء والأطفال يشوهون وتقطع رؤوسهم ويحرقون أحياء بالمئات. ووصل الجنون إلى درجة مروعة بحيث أنه ذات مرة قام أسقف تريفيس بإحراق معظم النساء في أبرشيته. ويقدر أحد المؤرخين الألمان أنه خلال الحملة المسعورة على السحرة قتل ما لا يقل عن مئة ألف شخص. ولكن جانسين في "تاريخ الشعب الألماني" يقول: "من كل محرقة كانت تبرز مجموعة جديدة من الساحرات".

ولقد أحدث أبشع استخدام للسحر كذريعة قبل بيان إنوسنت الثامن بمئتي عام. فقد كان فيليب الرابع في حاجة ماسة إلى المال، فألقى بنظره الشره على ثروات فرسان الهيكل الأقوياء الأتقياء ولفق ضدهم

تهماً غريبة. واتهم السلك كله بالممارسات الشاذة التي كان منها السحر والهرطقة واللواطة. ويقول شارل مالكي في "أوهام شائعة غاية في الغرابة" واصفاً ما حدث بعد ذلك: "في كل مكان من أوروبا ألقي بفرسان الهيكل في السجون وصودرت أموالهم وممتلكاتهم. وضع المئات منهم على المخلعات فاعترفوا حتى بالتهم اللامعقولة التي نسبت إليهم، مما أدى إلى زيادة السخط الشعبي وإلى انتعاش آمال أعدائهم. صحيح أنهم حين ينزلون عن المخلعة كانوا ينكرون كل ما سبق لهم أن اعترفوا به، غير أن هذا لم يساعد إلا على زيادة النقمة عليهم وعلى اعتباره تهمة أخرى تضاف إلى تهمهم. صار ينظر إليهم بمنظار أكثر سوءاً من قبل فتم إلقاؤهم إلى النار على أنهم هراطقة مرتدون. أحرق تسعة وخمسون من هؤلاء المساكين في مجموعة واحدة بنار هادئة في حقل في ضواحي باريس وهم يحتجون حتى آخر رمق ويعلنون براءتهم من الجرائم المنسوبة إليهم ويرفضون تقبل العفو المشروط باعترافهم بذنبهم. وأخيراً، في 1313 اختتم المشهد الأخير من هذه المأساة بإحراق الزعيم الأكبر، جاك دوموليه، ومرافقه غي زعيم نورمانديا. إنه لمن الصعب تصور ما هو أكثر بشاعة -وما هو معيب أكثر للسلطان- الذي بدأ، وللبابا الذي أيد وللعصر الذي تسامح، مع هذا الظلم الرهيب. إن تمكن حقد قلة من الناس من اختراع تهمة كهذه هو أمر مهين لكل غيور على جنسه. أما أن يقبله الملايين فهو أكثر إهانة".

ولولا استخدام التعذيب لما أجبر فرسان الهيكل على "الاعتراف" بالتهم الملفقة. وذلك على الرغم مما أشار إليه المؤرخ و.ي.هـ ليكي من أنه لم يكن من الضروري دائماً اللجوء إلى التعذيب الفعلي: "إن رهبة المحاكمة وتوقع أشد الميتات شناعة، وتطبيق أقسى أنواع التعذيب على جسد ضعيف لامرأة عجوز واهنة كان يجعل عقلها يختل. تنهار أعصابها

أمام الألم الدائم فيغيب الوعي بالبراءة وتهال الضحية المسكينة إلى النيران وهي قانعة بأنها على وشك أن تهوي إلى جهنم الأبدية".

وللأسف حين كان يطبق قدر كاف من التعذيب كان المبدأ ذاته يصح على الرجال الأقوياء كما حدث في النهاية المأساوية لفرسان الهيكل.

ولقد سبق الاضطهاد المنظم للساحرات الإصلاح البروتستانتي بما يقارب من مئة عام. ولذا كان من المنطقي للكثيرين افتراض أنه مع التغيرات المتسارعة في التفكير الديني فإن الجنون العام، من أمثال السعار ضد الساحرات، سوف يتلاشى. إلا أنه، وكما لاحظ أكثر من مفكر ذكي، فإن الأمراض التي تصيب عقول البشر لا تشفى بالضرورة مع التغيير الديني. والحقيقة أنه فيما يتعلق بالحرب ضد السحر فقد فاق المصلحون البروتستانت أسلافهم الكاثوليك في الوحشية والقسوة والفعالية.

كان من ألد أعداء السحر الملك الاسكوتلندي جيمس السادس، الذي تسلم عرش إنكلترا فيما بعد باسم جيمس الأول. وعلى الرغم من أنه كان أقل وحشية من عمته ماري (التي اشتهرت باسم ماري الدموية[1]) وأقل قوة وتصميماً من سابقته إليزابيث الأولى، إلا أنه أعلن حرباً شاملة على الساحرات والشياطين والتبع. وكما هو مألوف في حملات كهذه كان التعذيب هو المولد الأساسي للأعداء. إن عجائز الكنيسة الاسكوتلندية القساة المتجبرين كانوا على استعداد لأن ينفذوا المهمة بأنفسهم، إلا أنه، ومع توفير الدعم الكامل من قبل الملك، أعلنت الحرب الضارية بكل قسوتها على الساحرات. ويقول أحد القضاة: «إن زوجة عجوزاً يصدف أن تُتهم بالسحر في المجتمع الكنسي في غالوي لن يكون لها حظ من الرحمة إلا ما ليهودي أمام محاكم التفتيش الإسبانية».

---

(1) Bloody Mary

في عام 1591 حدثت إحدى أشنع المحاكمات. وكان الملك مهتماً بها، بشكل خاص لأنها كانت تمسه شخصياً، فلقد اتهم جيلي دونكان وأغنس سامبسون والدكتور جون فيان وأربعون آخرون بأنهم قد استخدموا السحر في محاولة لقتل الملك.

ولم تكن جيلي دونكان كغيرها من الساحرات. فهي لم تكن عجوزاً ولم تكن بشعة. كانت تعمل خادمة عند وكيل مزرعة في ترانينت، وهي مدينة تبعد ما يقرب من عشرة أميال عن أدنبرة. وكان عدد من جيرانها قد بدؤوا يشكون، منذ فترة، بأنها تمارس السحر وذلك لأنها كانت تدعي أن لديها قدرة على شفاء الأمراض. وقام السيد الذي تشكك بالمسألة بتعذيب البنت المسكينة لكي تعترف بالحقيقة، إلا أنه لم ينجح في انتزاع أي اعتراف منها. وأخيراً، وبعد تكرار عمليات التعذيب، انهارت جيلي واعترفت بأنها باعت روحها للشيطان. وأضافت إلى ذلك أن سمَّتْ أسماء شركائها وكان من أهمهم أغنس سامبسون، التي وُصفت بأنها ساحرة "وقور ولها مظهر السيدات المحترمات" والدكتور جون فيان.

وكان من الطبيعي أن يُعتقل المتهمون كلهم. وأخضعت السيدة سامبسون فوراً لتعذيب مبرح بالـ"بيليوبنكيز" وهو نوع من اللولب. وكان وسيلة فعال لشدة الألسنة إذا لم نتطرق إلى طحن الأصابع به. واعترفت السيدة سامبسون بأنها ساحرة. كما أنها حَكت كيف أنها هي وجيلي وفيان وما يقرب من مئتين آخرين كانوا يلتقون بانتظام في كنيسة نورث برويك في اجتماع بعد منتصف الليل وبرئاسة الشيطان نفسه. وحكت أيضاً كيف كان الشيطان يصف الملك جيمس بأنه "ألد أعدائه" وأن أبناء الشيطان لن يجدوا السلام على الأرض ما لم يتم القضاء على جيمس. وكان الجوهري في الاعتراف أن الساحرات كن يثرن عواصف هوجاء في البحر بغية تحطيم سفينة الملك خلال رحلته إلى الدانمارك قبل عامين.

وانشرح السلطان بالمسألة كلها، ووصل إلى درجة دعوة جيلي دونكان إلى القصر لتعزف له على "قيثارة اليهودي" لأنه لا يريد أن يتفوق عليه بعلزبول[1]. وقد قام جيمس بهذه البادرة بعد أن استمع إلى شهادة تقول إن جيلي كانت قد قدمت عدة عروض أمام أمير الظلام خلال رقصات الساحرات، وبناء على طلبه.

أما في قضية الدكتور فيان فقد أخذت المسألة منحى آخر أكثر خطورة، كان فيان من أولئك الذين يودون أن يصبحوا سحرة إذا تمكنوا من ذلك. ولأنه لم تسنح له الفرصة فقد مثل دور الساحر بكل طاقته. كان قد اشتهر عنه التعامل بالسموم وبأنه ساحر عصامي. أما فيما يتعلق بالمؤامرة على حياة الملك فقد ادعى فيان أنه بريء. وحتى بعد أن مددوه على المخلعة رفض أن يعترف. وحين رأت السلطات أنها لم تحقق غايتها أمرت بتعذيب الدكتور المنحوس بـ"الأحذية". وهو الأسلوب الذي قيل عنه في حينه بأنه يسبب "أقسى وأشنع ألم في الدنيا". وكان عبارة عن هيكل حديدي على شكل حذاء توضع في داخله القدمان فيغطيهما حتى الركبتين، وكانت تدق بعد ذلك الأسافين التي كانت تزحن العظام وتهرس اللحم. وأحياناً كان الحذاء يوضع في النار إلى أن يحمر قبل استخدامه. وفي الحالات كافة، كان الذي يتعرض لهذا التعذيب يعترف ودائماً ما كان يقضي بقية حياته كسيحاً.

في البدء لم يستطع الدكتور فيان أن يتكلم لأن الألم الممتزج بالوهن الذي أصابه بنتيجة فصول التعذيب السابقة أفقده وعيه. وحين استيقظ لم يكن قادراً على التماسك، فوقّع على اعتراف كامل منسجم مع اعترافات جيلي دونكان وأغنس سامبسون فألقى به في زنزانته. والمذهل في الأمر أن فيان استطاع بعد يومين أن يهرب من سجنه مما عزز الاعتقاد بأنه ساحر

---

(1) رئيس الشياطين.

حقيقي. وحين قبض عليه من جديد أنكر كل ما كان قد اعترف به تحت التعذيب. وكانت تلك خطيئة فادحة. فلقد عذب من جديد ولكن هذه المرة بطريقة شنيعة بدت أمامها المعاملة السابقة رحيمة.

قلعت أظافره بالكماشات، ثم غرزت إبر طويلة في محجريه، ثم أعيد مرة أخرى إلى الحذاء. ولقد ظل يعامل بهذا الأسلوب الوحشي إلى درجة أن رجليه، بتعبير كاتب معاصر للحادثة، "سحقتا ودمجتا معاً إلى أصغر حجم ممكن وتهشم العظم واللحم حتى اندفع الدم والنقي معاً بكميات كبيرة، وبحيث صارت رجلاه غير صالحتين للاستخدام طوال حياته".

وما يجعل هذه المحاكمة نفسها والجنون الناجم عنها بهذا القدر من الترويع، هو أن تمثل الجهل والسطحية الكاملين، فكلما طال استخدامها صارت الشهادة غير معقولة. وفي إحدى المراحل قرف الملك واتهم الساحرات المزعومات بالكذب. ولقد حُكم على المتهمين كافةً بالشنق والحرق باستثناء امرأة اسمها بربارانا بيير. وغضب الملك غضباً شديداً لإهمالهم لها وهدد بقتل القضاة. فأسرعوا لإعادة النظر في الحكم واعتذروا عن خطئهم بحرارة وسلموا بربارا إلى الجلادين.

وعلى الرغم من أنه كان أمراً شائعاً أن يتم شنق الضحايا قبل إحراق الأجساد على عمود، إلا أن إحدى "المتآمرات" وهي يوفيميا ماكالزيان، قد حكم عليها بأن تحرق وهي حية. وعلى الرغم من أنها كانت متهمة بالسحر إلا أنها في الحقيقة كانت ضحية اضطهاد سياسي. وكانت جريمتها الحقيقية الوحيدة أنها كانت من الموالين للورد بوتهيل، قبل سنوات. وهذا اللورد هو المسؤول عن قتل والد الملك. كانت المسألة انحرافاً بسيطاً في اللولب، وآخر مظهر للانتقام.

وفي أوج ملاحقة الساحرات، كان الساديون الجوالون الصغار قد راحوا يظهرون في الأرياف كالفطور السامة. وكان هدفهم مزدوجاً: إشباع

رغباتهم الشاذة وتعبئة جيوبهم في الوقت نفسه. وسموا أنفسهم بالباحثين عن الساحرات أو الواخزين. وقد جاءتهم التسمية الثانية من عملية غرز الإبر النحاسية الطويلة في الأجساد العارية للمشبوهات بالسحر من الرأس حتى القدم. وكان من المعتقد أن لكل ساحرة نقطة محددة في جسمها تسمى "ستيغماتا ساغاروم" أي سمات العرافات، ولم تكن نقطة ظاهرة بالطبع إلا أنها كانت نقطة عديمة الحساسية لأي نوع من الألم لأن الشيطان قد لمسها. وبغية العثور عليها، وقبل أن يبدأ الوخز العملي، كان الباحث عن الساحرات يحلق كل شعرة في جسد المتهمة. وفي كثير من الأحيان كانت الضحايا المذعورات يصلن إلى درجة كبيرة من الذعر تجعلهن لا يشعرن بإحدى وخزات إبرة الواخز. وكان بعض الواخزين يعززون نجاحهم باستخدام إبر مسكوبة ومصممة خصيصاً لهذا الغرض. وكانت هذه الوصفات الخبيثة تؤكد ذنب المتهمة مما يضمن المزيد من التعذيب الذي سيؤدي إلى الموت المحتوم.

وفي كثير من الأحيان كانت الأحوال تنقلب ضد صيادي الساحرات. فلقد كان أحد الواخزين الموفقين في شمال اسكوتلندا، واسمه باترسون، مكروهاً بسبب الطريقة الداعرة التي كان يمرر بها يديه على الأجساد العارية لضحاياه. وبعد أن تسبب في موت العديد من النساء تبين أنه ليس سوى امرأة متنكرة وهذا ما وضع نهاية لعمله.

وكان أشهر باحث إنكليزي عن الساحرات محامياً من الدرجة الثانية ووغداً دون أخلاق اسمه ماثيو هوبكنز. كان يتمتع بعقل متميز في العمل فيفرض على كل بلدة جزية من عشرين شلناً إضافة إلى نفقات معيشته وعشرين شلناً غيرها لقاء كل ساحرة كان يكتشفها. وصار هوبكنز مزعجاً جداً، فاتهم هو الآخر بالسحر والشعوذة وأعدمه الجمهور دون محاكمة.

ولعل المرء يتساءل وهو يستعيد الفظاعات الماضية لدى أسلافنا: ما

علاقتنا بهذا كله؟! والجواب بالطبع، هو أن الإنسان المعاصر ليس أفضل من المحقق في محاكم التفتيش أو من صياد الساحرات أو أي متجبر آخر من متجبري الأيام السالفة. إن الإنسان العاقل -هومو سابيان- وسيان رضي أم لم يرضَ، هو مخلوق متناقض يضم تحت هذا المظهر مخلوقاً عنيفاً بشكل وحشي ملتحماً به التحاماً أبدياً.

لقد كانت عصابات حاملي الجثث المسعورين، الذين كانوا يعذبون الأبرياء أيام الكوارث الكبرى، يقترفون جرائمهم المروعة لمجرد تحقيق الربح المادي. وفي أيام الرق كان المالكون والمراقبون يفرضون أشنع أنواع العقوبات من أجل ترويض العبيد ولإجبارهم على أداء الحد الأقصى من العمل. وفي مراحل التاريخ كلها كان السجانون يستخدمون التعذيب لبث الذعر في المساجين ولفرض الهيمنة عليهم.

وسيان ارتكبت الفظائع في زنزانات القرون الوسطى أو في معسكرات الاعتقال في القرن العشرين فإن المبادئ كانت هي نفسها. وكما في الحادث المعاصر الذي كان المجرمون الأفارقة فيه يشوهون الأطفال ويحولونهم إلى كسحاء عجزة لمجرد زيادة دخلهم كشحاذين، فإن أعمال التعذيب والأعمال الوحشية كانت دائماً تستخدم من أجل تحقيق أغراض مختلفة. والمفارقة الجلية هي أن أفظع أنواع المجازر الجماعية كانت دائماً من صنع أولئك الذين كانوا أكثر "تحضراً".

ولقد لمس السير جيمس فريزر الراحل مؤلف "الغصن الذهبي" صميم المسألة حين كتب: "يبدو في الحقيقة أنه حتى في أيامنا هذه يظل الفلاح وثنياً ومتوحشاً في أعماقه. وتمدنه قشرة رقيقة سرعان ما تزيلها ضربات الحياة القاسية لتكشف عن الجوهر الصلب للوثنية والهمجية تحتها".

ولم يعش السير جيمس حتى نهاية الحرب العالمية الثانية. وربما لو أنه عاش ذلك الحين لاستبدل كلمة "فلاح" بكلمة "إنسان".

التعذيب كعقوبة

عملياً، كان هناك دائماً خط دقيق غير واضح بين التعذيب والعقاب. وعلى الرغم من أننا نستطيع أن نجد حوادث لا حصر لها كان التمييز فيها قائماً بينهما، إلا أن نظرة صادقة على الحقائق الجلية كثيراً ما تجعل هذا الفارق الضئيل مضحكاً. ووصية العهد القديم "العين بالعين" مثال كامل على ذلك. وكل من تعرض لعقوبة كهذه سيكون في وسعه أن يعلن دون أدنى تردد عما إذا كانت تعذيباً أو لا. وما يزال هناك ناجون من معاملة كهذه في الشرق الأوسط. أما مسألة دفعهم إلى الكلام فتلك مسألة أخرى.

وكلما توغلنا في الزمن نجد أن الانتقام هو القوام الأساسي للعقوبة. والمنطق الأساسي وراء أشنع الفظاعات كان، بالطبع، دائماً الإعاقة. وفي "تاريخ النساء" نقرأ أنه في مصر القديمة "كانت طهارة العذراوات محمية بقانون ذي طبيعة على غاية من القسوة، فكل من يغتصب امرأة حرة تبتر أعضاؤه الجنسية بحيث لا يبقى في مقدوره أن يرتكب جريمة مشابهة، وبحيث يدب الرعب في قلوب الآخرين من هذه العقوبة المخيفة".

ومن أغرب حكايات التعذيب الانتقامي ما جاء في مخطوط ألباني يعود إلى القرن السابع. ولا يدل هذا الحادث الغريب بوضوح على الاستخدام المبكر للتعذيب كعقوبة فقط، بل يثبت مرة أخرى أن القسوة تولّد القسوة.

في الربع الأخير من القرن الخامس قمع ملك ألبانيا فاتشاكان الهراطقة

والأشرار قمعاً لا هوادة فيه. وكانت رغبته الأساسية موجهة نحو اجتثاث "قاطعي الأصابع"؛ وهم طائفة خاصة كرست نفسها للشيطان والسحر. ذات يوم جاء إلى الملك شاب يحمل أنباء مقلقة. إذ أنه بينما كان الشاب يتجول في غابة من الصنوبر على ضفاف نهر ساير شاهد جمعاً من الناس يبدو أنهم يمددون على الأرض طفلاً صغيراً، وحين اقترب أكثر ليرى ما هم مزعمون عليه، رأى أن الطفل الضحية مربوط من خلال إبهامات يديه ورجليه بسيور جلدية إلى أربع عصي خشبية. وحين تأكدوا من إحكام ربط الفتى المسكين انقضوا عليه بأجمعهم وراحوا يسلخونه وهو حي. وبغتة انتبهوا إلى أن الغريب كان قد رأى ما كان يقومون به، فانطلقوا للإمساك به بغية معاملته بمثل معاملتهم لضحيتهم. غير أن الشاب كان سريع العدو فلم يلحقوا به. ونجا. قفز في النهر وسبح إلى جزيرة واختبأ في شجرة إلى أن توقف مطاردوه عن البحث عنه. ولم يكن ما أثار الملك أن الشاب قد رأى الأعمال الدموية لـ"قاطعي الأصابع" فقط، بل إنه عرف المشاركين.

وبعد أن عرف الملك أسماءهم أمر باعتقال الطائفة كلها وتعذيبها. وحين لم يعترف أي من عناصرها، سيق الجميع إلى مكان الإعدام. وهناك اختار الملك شاباً منهم ومنحه حريته مقابل الإدلاء بالحقيقة. ولدهشة المحتشدين انهار الشاب وقال: "مرة في كل عام يظهر الشيطان بشكل بشر ويأمر الناس أن يقفوا في ثلاث مجموعات. الأولى تمسك بالضحية دون إيذائها، والآخرون يقومون بسلخها سلخاً كاملاً ابتداء من إبهام اليد اليمنى ثم صعوداً في الذراع وعبر الصدر ثم الإصبع الصغرى في اليد اليسرى التي تقطع وتؤخذ مع الجلد. وتجري عملية مماثلة مع القدمين فيما الضحية ما تزال على قيد الحياة. وبعد ذلك تذبح وينتزع جلدها عنها ويعد حسب ما تقتضيه العادة ويوضع في سلة.

وحين تحين ساعة التعبد يقيم المؤمنون عرشاً حديدياً على أقدام

شبيهة بأقدام البشر. وتوضع حلل فاخرة على العرش يرتديها الشيطان حين يتربع على العرش. وبعد أن يتسلم جلد الضحية البشرية وأصابعها، وليس قبلاً، يتجلى كاملاً. وإن لم يتسلم نصيبه المعهود من اللحم البشري يأمر الشيطان الجماعة بتقديم بدل من لحاء الشجر وبعدها يضحى بالمواشي والأغنام. ثم تعد المائدة ويشاطر الشيطان أتباعه كلهم أكل اللحم. وفي الوقت ذاته يظل حصان مسرج مهيأ له. وحين ينتهي الشيطان من وجبته يمتطي الجواد وينطلق به ثم يختفي حالما يتوقف الحيوان عن الجري".

بعد سماع اعتراف الشاب أمر الملك بتنفيذ الطقوس المروعة على "قاطعي الأصابع" أنفسهم وأمام الجماعة كلها. وقد وقعت العقوبة على كثيرين منهم أمام أعين أسرهم. وفي ذلك اليوم أيضاً قتل عدد كبير من المسممين الكريهين، فقد كان من عادتهم أن يقوم كل واحد من الطائفة بتسميم شخص ما قبل نهاية كل سنة، ومن لا يجد ضحية كان يتعرض لأذى كبير من الشيطان إلى أن يضطر في النهاية إلى تسميم واحد من أقاربه، وكل مقصر في واجباته الدينية، أو من يبلغ عنه من قبل أي من زملائه، كان الشيطان يوقع عليه العمى ويصيبه بالطاعون.

وليست نهاية "قاطعي الأصابع" غريبة إذا عرفنا أنهم عاشوا وماتوا قبل سنة 500 ميلادية، والجانب المهم في حكايتهم هو أنهم عذبوا في البدء من أجل الحصول على معلومات ثم عذبوا حتى الموت كعقوبة.

كانت العقوبة في العصور الإنكلوساكسونية أمراً متناقضاً. ففي بعض الحالات، المذكورة آنفاً، كانت العقوبة قاسية وفظة. وفي حالات أخرى أكثر رفقاً وليناً مما يمكن أن نتصور. وبما أنه كانت هناك مراتب عديدة مختلفة في المجتمع فكذلك كان الأمر بالنسبة إلى أنماط العقاب. كان النبلاء والأثرياء أعلى مستوى من أن ينالهم التعذيب القاسي، إلا أنه حتى هؤلاء كانوا أحياناً يتعرضون لذلك. إذ يخبرنا وليم ماكسبري أنه "في القرن

التاسع" حين كان الملك إثلرد طفلاً أغضب أمه ذات يوم إلى درجة أنها انهالت عليه ضرباً بعدد من الشموع. ولأنها لم تكن تملك سوطاً تحت متناول يدها فإنها ضربت الأمير الصغير بأول سلاح وقع تحت يدها. وكلما انكسرت في يدها شمعة تناولت الأخرى واستمرت في ذلك حتى كاد الصبي يفقد وعيه. ويضيف المؤرخ "وبسبب هذه الحادثة ظل يخاف الشموع طيلة حياته وإلى درجة أنه لم يكن يحتمل أن يدخل ضوؤها إلى حضرته".

ولم يرث إثلرد طبيعة أمه لأنه بعد أن اعتلى العرش أمر بما يلي: "المسيحيون لا يحكم عليهم بالإعدام، بل يجب تطبيق العقوبات الخفيفة بشكل عام ولا يجوز السماح لهذا الإنجاز الإلهي الصغير ولمن اشتراه، بثمن باهظ، أن يدمر".

ولسوء الحظ، وكما هو الحال غالباً، فإن العدل والرحمة كانا يسودان نظرياً أكثر مما كانا يسودان في التطبيق العملي. ولقد واجه هذا الأمر أولئك الذين هم في أسفل السلم الاجتماعي. كان الخدم عبيداً بالمعايير العملية كافةً. وكان لأسيادهم وسيداتهم عليهم سلطة الحياة أو الموت. وكانوا يتعرضون في أغلب الأحيان للضرب حتى الموت لمجرد إرضاء نزوة سيدة كانت في بعض الأحيان تمارس الجلد بنفسها. وكانت الخادمات. بشكل خاص، يعذبن تعذيباً رهيباً لأبسط الأخطاء. ونقرأ في سجل كنيسة في القرن العاشر كيف أن خادمة تيوتيك، صانع جرس ونشستر، "من أجل خطيئة بسيطة" قيدت بالسلاسل وعلقت من يديها ورجليها طوال الليل. وفي الصباح فكت قيودها وجلدت بقسوة ثم أعيد تقييدها من جديد طوال الليل. وبشكل ما استطاعت أن تهرب وتجد ملجأ في ضريح القديس سويتون المجاور. أما فيما يتعلق بالأذى الشخصي فقد كان الإنكلوساكسونيون لطفاء نسبياً. ويبدو قانون العقوبات مثل

قانون التأمين المعاصر للتعويض عن الحوادث. إذ قطع شخص ما أذن شخص آخر عليه أن يدفع اثني عشر شلناً. والعين تكلف خمسين شلناً وجرح الأنف تسعة شلنات. وكان المظهر الشخصي يؤخذ بعين الاعتبار "لكل من الأسنان الأمامية ستة شلنات ولما يتبعها ثلاثة شلنات ولما تبقى فشلن لكل ضرس". وكانت الإبهامات تؤخذ بعين الاعتبار أيضاً، فقد كان الإبهام يكلف عشرين شلناً مقابل ثمانية شلنات لـ "إصبع الإطلاق" وأربعة للإصبع الوسطى وستة لإصبع الخاتم وعشرة شلنات للإصبع الصغرى، وحتى الأظافر لها أسعار؛ فظفر الإبهام يعادل ثلاثة شلنات وبقية الأظافر يعادل كل منها شلناً واحداً.

لكن العقوبات في ظل الحكم الدنماركي كانت أقسى بكثير. صار التشويه هو العقاب لأبسط الجرائم. فالرجال الذين يوسمون أو يفقدون أيديهم وأقدامهم أو ألسنتهم تحولوا إلى إنذار دائم لمن يتجاوزون القانون. والمأساة في هذا كله أن معظم "المجرمين" كانوا يدفعون إلى أعمالهم تلك بسبب الفاقة واليأس. ولنورد ما يقوله وليم أندرز في "عقوبات الماضي":

"بين فظائع الفتح الدنماركي كانت العيون المسمولة والأنوف والآذان والشفاه العليا المقطوعة. كانت فروات الرؤوس تسلخ. وفي بعض الأحيان، وهناك ما يدفعنا إلى التصديق، كان الجسد كله يسلخ والشخص حي".

بعد الفتح النورماندي يبدو أن التشويه صار مخصصاً لمنتهكي الحرمات، ومرة أخرى كانت هناك أيضاً درجة عالية من التمييز الطبقي. إذا أقدم رجل حر على أي عمل عنيف ضد حارس الألعاب الملكية (كانت الألعاب كلها مخصصة للملك ونبلائه) كان عرضة لأن يفقد أملاكه وحريته. أما إذا ارتكب عبدٌ الجريمة نفسها فتقطع يده اليمنى، وإذا ارتكب الجريمة مرة أخرى يعدم، وإذا قتل غزالاً يفقد عينيه الاثنتين، وإذا

كان محظوظاً فقد حياته لأن الوجود الدنيوي للعبد كان جحيماً أبدياً على الأرض.

خلال حكم ريتشارد الثالث كتب رجل اسمه كولنفبورن ثنائية هجائية مهينة عن ريتشارد ومستشاريه كاتسبي (القسم الأول من الاسم يعني قطة) وراتكليف (القسم الأول من الاسم يعني فأرة) ولوفيل مع ملاحظة أن شعار الملوك كان الخنزير الأبيض.

القط والفأر ولوفيل الكلب.

يحكمون إنكلترا كلها في ظل خنزير.

من أجل هذين البيتين أعدم كونلغبورن وأخرجت أحشاؤه وأحرقت. وقد حدث الأمر بسرعة كبيرة وإلى درجة أنه حين أخرج الجلاد قلب الضحية ارتجف شعراء البلاد ذعراً.

وحتى عام 1630 كانت عمليات التشويه كعقوبة ما تزال مستمرة. فلقد ثبتت التهمة على رجل كنيسة اسمه الدكتور لايتون. والتهمة هي مهاجمة كنيسة إنكلترا بعمل مطبوع وذلك حين كتب "دعوى صهيون ضد الأساقفة". فقد جُرّد من منصبه وغرم بعشرة آلاف جنيه ووضع على المشهرة (ورد وصفها في الفصل الأول). وكان المهين أكثر هو تسلسل العقاب. وُسم لايتون وجلد بالسياط وحكم عليه بالسجن المؤبد بعد جدع أنفه وقطع إحدى أذنيه. وبعد أن قضى في السجن أحد عشر عاماً أعيد النظر في الحكم وأطلق سراحه. وقرر مجلس العموم أن تشويه الدكتور لايتون وسجنه كانا غير شرعيين.

كان الجلد هو الأسلوب الأكثر شيوعاً واستمراراً كعقاب في العالم كله. وأول أداة استخدمت لضرب إنسان كانت يد الإنسان دون شك. وكل الأدوات الأخرى، من العصا البسيطة إلى السوط المسمى (القطة ذات

التسعة أذيال)، لم تكن أكثر من تطوير الأصل. وقد يقول كثيرون إن الجلد ليس من أنواع التعذيب. وهنا. مرة أخرى، تبرز مسألة الدلالة اللفظية. فالأب كثيراً ما يقول لابنه "ستنال جلدة من ذلك".

قد تكون النتيجة تعذيباً وقد لا تكون. ولكن، بشكل عام، حين ينفذ العقوبة جلاد أو ضابط لا يظل هناك أي مجال للشك. والأمثلة التي سبق أن طرحت لا بد أن تكون دليلاً كافياً على أن الجلد في معظم الأحيان نوع من التعذيب. ولا شك في أنه كان تعذيباً متميزاً في أيام "المحاكمات الدموية"، حيث كان القاضي، سيئ الذكر، جورج جيفريز يجلس على المنصة. وكان الشائع بين أحكامه السادية نداءه "أيها الجلاد، آمرك بأن تولي هذه السيدة عناية خاصة. اجلدها بقوة، اجلدها إلى أن يسيل دمها. نحن في عيد الميلاد والطقس بارد يمنع السيدة من التعري. فحاول أن تدفئ كتفيها جيداً".

وربما كان من الملائم هنا أن نسرد إحدى الحوادث المضحكة التي تحدث عادة حين تعطي الوحشية عكس نتائجها. المقطع التالي مقتطف من رسالة كتبها الشاعر الإنكليزي، ويليم كوبر، من القرن الثامن عشر. كان مؤرخاً، قد شاهد ما كان من المفروض أنه الجلد العلني للص عادي ووصف المشهد بقوله: "بدا الرجل جلوداً. لكن الأمر كله لم يكن إلا خدعة، كان الشماس الذي يجلده يملأ كفه اليسرى بالمغرة[1] وكان بعد كل ضربة يلقي منها على جلد اللص كمية صغيرة فتعطي شكل الجرح على الجلد. إلا أنه لم يكن في حقيقة الأمر يسبب له أي أذى. واكتشف الكونستابل هذه الخدعة وكان قد تبع الشماس ليتأكد من أنه يقوم بواجبه فأنزل العصا، دون إنذار أو تدبير مسبق، على ظهر الشماس. صار المشهد الآن مثيراً وممتعاً. فالشماس لا يمكن أن يضرب اللص بقسوة، الأمر

(1) أوكسيد الحديديك المائي الطبيعي ويكون لونها أصفر أو أحمر.

الذي أثار غضب الكونستابل وجعله يضرب الشماس بقسوة أكبر، وهكذا استمر الجلد المزدوج إلى أن أشفقت فتاة من "سيلفراند" على الشماس المسكين الذي كان يتوجع بين يدي الكونستابل القاسي، فانضمت إلى الموكب ووقفت وراء الكونستابل مباشرة وأمسكت بسوطه المجدول من الشعر وشدته بعنف إلى الوراء وصفعته على وجهه بغضب أمازوني. لقد استغرق مني وصف هذا الحادث أكثر مما كنت أريد، لكنني لم أستطع منع نفسي من أن أقص عليك كيف كان الشماس يجلد اللص والكونستابل يجلد الشماس والسيدة تضرب الكونستابل وكان اللص هو الوحيد الذي كان ألمه أقلهم جميعاً".

ولكن فصولاً طريفة من هذا النوع قليلة جداً للأسف، في سجلات القسوة الإنسانية. فالعادة أن الانتهاكات الوحشية هي القاعدة. ولكننا بعد أن نصبح في مأمن منها نبدأ بملاحظة غاية في الأهمية. ففي العصور القديمة، مثلاً، وفي مناطق معزولة اليوم أو بين الشعوب المختلفة، كانت العقوبة دائماً مسألة شخصية أكثر مما هي عليه في أكثر المجتمعات تعقيداً. بمعنى آخر؛ لقد كان هناك دائماً في الحضارات البدائية ميل إلى الثأر والعداء الدموي. وحيث تتراخى قبضة السلطة المركزية فإن عقوبات المخطئين تفرض من قبل عائلات الأطراف المتضررة أو أصدقائهم. ومن جهة أخرى، ففي الحضارات المتطورة جداً صارت الجريمة تعتبر بشكل آلي مسألة عامة تعالجها السلطات. ويتشابه المتحضرون وغير المتحضرين في وحشية عقوباتهم.

في أوائل القرن السابع عشر غرقت قبيلتان اسكوتلنديتان، هما ماك فارلان وبو كانان، في عداء دموي طويل. وذات يوم صادف عدد من آل ماك فارلان جورج بوكانان وهو يصطاد برفقة أربعة من كلابه. أمسكوه وقيدوه إلى شجرة وبعدها ذبحوا كلابه. وخلال الساعات الأربع عشرة

التالية راحوا "يطعنونه بخنجر ثلاث طعنات قاسية في أجزاء من جسده لا تسبب له الموت السريع" كل ساعة مرة. وأخيراً بعد هذا العذاب المتواصل قطعوا عنقه وعروا جثته وقطعوا لسانه. وبعد اجتثاث لسان أحد الكلاب، وضعوه في فم الرجل الميت.

ولم يكتفوا بذلك، لكي يزيدوا من تحقيره تمادوا أكثر من ذلك. فقد ورد في سجل محاكمتهم أنهم:

"حين لم يكتفوا بذلك، ولكي يشبعوا وحشيتهم الهمجية اللاإنسانية من الجثة العارية، بقروا بطنه وأخرجوا أحشاءه ووضعوها في بطن أحد الكلاب بعد أن بقروا بطن الكلب وأخرجوا أحشاءه ووضعوها في بطن الرجل، ثم تركوه مسجى عارياً وحوله الكلاب الأربعة. وظل هناك ملقى على الأرض طوال ثمانية أيام إلى أن عثر عليه".

هذا الانتهاك لحرمة الجسد البشري، بعد الموت، يمكن فهمه حين يقوم به متوحشون بدائيون أو تقوم به جماهير هائجة. فهناك أعداد كبيرة من السجلات الوثائقية عن أحداث مريعة حدثت خلال الثورة الفرنسية أو ضمن مجريات بعض مجازر الهنود. أما حين تحدث من قبل سلطات شرعية كخطوة نهائية في عقوبة قاسية فإن انتهاكاً كهذا للجثة لا يمكن أن يكون أكثر من نمط منحرف من أنماط التعذيب. وحين كان هذا النمط شائعاً كان الأشخاص، الذي يحكم عليهم ويعرفون ما ينتظر بقاياهم، يعانون من آلام لا يمكن تصورها في ساعات عذابهم الأخيرة.

وكانت أكثر أساليب التعذيب الجزائي شيوعاً السحل والتعليق والتقطيع إلى أربعة أجزاء، ويسمى هذا التقطيع أحياناً: "مسلخ الله". وكانت هذه التسمية التي تدعي التقرب من الله تستخدم لأن السلطات، كما هو الحال في العديد من الأعمال الوحشية الشنيعة الشائعة، تدعي أنها قد وجدت أصولها في الكتاب المقدس. ولا يمكن تقديم وصف لهذه

العقوبة الرهيبة أكثر دقة من الاستشهاد بالحكم القديم الذي كان الخونة الإنكليز يحكمون به. وفيه أن المحكوم: "يؤخذ من السجن ويمدد على مزلجة أو لوح خشبي ثم يجر إلى المشنقة أو مكان تنفيذ الإعدام، ثم يعلق من عنقه حتى يشرف على الموت وبعدها يبقر بطنه وتنتزع أحشاؤه من جسده ويقوم الجلاد بإحراقها. وبعد ذلك يفصل رأسه عن جثته ويقسم جسده إلى أربعة أجزاء. ثم يعرض رأسه والأقسام الأربعة من جسمه في مكان مكشوف حسب التعليمات".

قبل ذلك كان المجرمون المحكوم عليهم يسحلون بربطهم إلى ذيل حصان ثم يجرون على الأرض.

وكان الجلاد، عادة، قبل إحراق الأحشاء يقوم بانتزاع القلب وعرضه أمام الجمهور المحتشد وهو يصرخ: "انظروا إلى قلب الخائن".

وبعد ذلك يعلق الرأس والأجزاء المتقطعة من الجسد على بوابات المدينة أو على أعمدة مجاورة للمحلات العامة. وكان الشائع في لندن تعليقها على جسر لندن أو في أماكن بارزة في قاعة ويستمنستر.

ويقال إن هذا النمط الرهيب من العقوبات قد طبق لأول مرة في إنكلترا على ابن أحد النبلاء وكان متهماً بالقرصنة عام 1241. وقد ألغيت هذه العقوبة في القرن الماضي. ولكن آخر تطبيق لها هو النموذج الأمثل للظلم الوحشي.

وقد حدثت الحادثة في بنتريك، دير بي شاير، عام 1718. قام جواسيس الحكومة بخداع عدد من العمال الجائعين ودفعهم إلى القيام بتمرد، وكان الهدف من جنون كهذا إضعاف معنويات الشعب وجعله عاجزاً عن الضغط للمطالبة بإصلاحات برلمانية. ونجحت الحيلة تماماً لأن ثلاثة منهم، وهم إرميا براندت ووليم ترنر وإسحق لولادم، وضعوا خططاً عملية للقيام

بالتمرد الذي أجهض منذ بدايته. وكانت السلطة تعرف طبعاً بما يجري في المراحل كافة، فجعلت الأمر يبدو كما لو أنه حدث في ألمانيا النازية.

حوكم القادة الثلاثة محاكمة سريعة وحكم عليهم بتهمة الخيانة العظمة. وفي تنفيذ الحكم، 7 تشرين الثاني، تجمع حشد هائل حزين. صنعت فؤوس خاصة بالمناسبة، وكانت شبيهة بالفؤوس الأثرية الموجودة في برج لندن، وبعد أن علق المحكومون ساعة بأكملها قتلوا وقطعت رؤوسهم. وكان الجلاد عاملاً في مناجم الفحم ضخم الجثة اختير لهذه المهمة بسبب قوته الفائقة، إلا أنه، ولقلة خبرته في تقصيب الأجساد، لم يقم بعمله كما ينبغي. فكان لا بد من إكمال قطع رأسين من الرؤوس الثلاثة بالسكين، بعد أن كان العنقان قد قطعا بضربتين لم تكونا كافيتين. ولم يستمتع الجمهور بهذا المشهد البشع. وإذا كان هناك أي سبب للتمرد قبل الحادث فقد صار هناك أسباب أكثر أهمية بعده.

قد كتب أحد المشاهدين ما يلي: "حين سمعت ضربة الفأس الأول حدث ذعر مفاجئ بين الجمهور. وحين عرض الرأس انطلقت صرخات الرعب واندفع الناس يركضون في كل اتجاه وكأنما ركبهم جنون مفاجئ".

وصدف أيضاً أن شاهد الشاعر شيلي هذه العملية الشائنة فوصفها بقوله:

"حين شاهد إدوارد ترنر أخاه يجر على اللوح صرخ مذعوراً وسقط مغمياً عليه فنقله رجلان كالجثة. كم كان ألمهم[1] مخيفاً وهم يجلسون في عزلتهم ذلك اليوم حين أنبأهم صوت الذعر الهادر أن الرأس العزيز عليهم قد فصل عن الجسد. نعم، كانوا يستمعون إلى الزعيق المسعور الذي ينطلق من الجمهور. وسمعوا اندفاع عشرة آلاف قدم مذعورة. كما سمعوا

---

(1) كان الأخ وعدد آخر من «المتآمرين» محتجزين في مكان قريب ينتظرون ترحيلهم إلى مستعمرة جزائية.

التأوهات وصرخات الاستهجان التي تنبئهم أن الرأس المشوه والمقطوع مرفوع عالياً".

ومن أغرب أساليب تعذيب إنسان حتى الموت الأسلوب المعروف بـ "الألم الشديد والقاسي"[1]، أو الضغط حتى الموت، ويصف وليم أندروز في "عقوبات الماضي" هذا الأسلوب الإنكليزي بأنه "وحشي وقاس". وقد حدد هذا الأسلوب كعقوبة للشخص الذي يرفض الدفاع عن نفسه عندما يتهم بجريمة. وكان قد ظهر في مطلع القرن الخامس عشر فحلَّ محل العادة القديمة التي كانت تقضي بتجويع المتهم حتى الموت. ويقوم أسلوب "الألم الشديد والقاسي" على فلسفة مفادها أن المتهم قد يتكلم في أية لحظة بعد تطبيق العقوبة فينتهي عذابه. وكان هناك فخ كالمعتاد. فإذا قال الشخص إنه بريء ثم ثبتت إدانته وأعدم كانت تلك المسألة تستحق الاهتمام، خاصة وأن القانون يقضي بأن كل من يموت بأسلوب "الألم الشديد والقاسي" يستطيع أن يوصي بثروته كما يشاء. وبما أن المنفذين كانوا دائماً عرضة للاتهام بجرائم مختلفة لغرض واضح هو الاستيلاء على ثرواتهم وأملاكهم تحت ستار القانون، فقد كان المتورطون في مكائد خطرة إنما يتورطون وهم يعرفون معرفة كاملة العواقب التي تنتظرهم إذا ما فشلوا في الوقوف مع الجانب الظافر.

ولذا فإن كثيرين كانوا يختارون ميتات شنيعة لأسباب مالية. وليس هناك من وصف لهذا النوع من التعذيب أفضل من كلمات الحكم التي سينفذ يقول الحكم في صيغته الأصلية:

"... سيعاد السجين إلى حيث جاء ويوضع في غرفة معتمة واطئة، بحيث يستلقي هناك دون مهاد أو شيء تحته، وبحيث تشد إحدى يديه إلى

---

(1) بالفرنسية Peine Forte et durve.

إحدى زوايا الغرفة بحبل وتشد اليد الأخرى إلى زاوية أخرى وتشد قدماه بالطريقة نفسها. ثم تلقى عليه أثقال بالقدر الذي يستطيع احتماله. ولا يقدم له من القوت إلا أسوأ كسرات الخبز والماء على ألا يأكل في اليوم الذي يشرب فيه. ويستمر على هذه الحالة إلى أن يموت".

وغالباً كانت السلطات تستطيع أن تتجنب إضاعة المكاسب التي ترافق موت السجين بهذه العقوبة وذلك باللجوء إلى مشجعات إضافية لإجباره على الكلام، مثل فتل الإبهام بحبل. وفي حالات أخرى كان الضغط يتزايد إلى درجة لا تحتمل فيضطر الرجل إلى الاعتراف وإيقاف المحاكمة. ففي سنة الاستقلال الأمريكي نفسها نشر كاهن اسمه ويليت "حوليات نيوغيت". وروى فيها حادثاً جرى في أثناء تعذيب قاطع طريق اسمه توماس سبيغوت. كان سبيغوت قد تحمل لفترة طويلة وضع أثقال مرهقة فيما كان كاهن السجن يقف إلى جانبه ويصلي. ومع الاستمرار بدأ السجين المرهق يذوي ويضعف. لقد أقنع بأنهم يحاولون سحق جمجمته. وكان هذا أكثر مما يستطيع احتماله. أما من حيث الواقع فلم يكن هناك إلا قطعة رقيقة من القماش ملفوفة حول وجهه. فارتفع ضغطه إلى درجة أنه تخيل الضغط الجديد وأخيراً:

"حين ظل نصف ساعة تحت هذا العبء وحين أضيف خمسون باونداً من الأثقال عليه، فوصل وزنها إلى أربعمئة باوند، أبلغ المشرفين عليه أنه سيعترف. رفعت الأثقال عنه وقطعت الحبال وأوقفه رجلان وقدما له قليلاً من البراندي لإنعاشه ثم نقل إلى حيث تستكمل محاكمته".

هذا النمط الحقير من التعذيب ألغي نهائياً عام 1827. وفي ذلك الحين صدر قانون يطلب إلى المحاكم قبول الادعاء الآتي القائل "ليس مذنباً" في كل حالة يرفض فيها السجين أن يعلن عن ذلك بنفسه.

وقبل الانتهاء من "الألم الشديد والقاسي" لا بد من ذكر ما يمكن اعتباره

التطبيق النموذجي للتعذيب بالأثقال على الضحية في التاريخ الإنكليزي. وقد حدث ذلك عام 1383 أيام حكم الملك ريتشارد الثاني. وكان المتهم راهباً إيرلندياً وشى بتهمة خيانة دوق لانكاستر إلى الحاكم. ولم يتم تقبل الأمر بلطف بل يقال لنا: "جاء اللورد هولاند والسير هنري غرين الفارس إلى هذا الراهب ووضعا حبلاً حول عنقه ثم ربطا الطرف الآخر للحبل بأعضائه التناسلية، وبعد رفعه عن الأرض وتعليقه وضع حجر على بطنه. وبهذا الثقل، وبالثقل الموضوع على بطنه اختنق بعد أن تعذب. لقد تحطم عموده الفقري إضافة إلى شد أعضائه التناسلية. وهكذا بثلاثة أنواع من العذاب أنهى حياته. وفي صباح اليوم التالي طُلب أن تُسحل جثته في أحياء المدينة. وحتى النهاية كان يبدو أنه قد تعذب كما يستحق جزاء لكذبه وخيانته العظمى".

وأخيراً، وعلى الرغم من هذه الإضافات الوحشية الشنيعة، تم شنق الكاهن المنكود. ولم يكن الشنق كأحد أقدم أنواع العقوبات الأساسية، ليعتبر بأنه نوع من التعذيب. إلا أنه في تلك الأيام التي لم يكن الشنق ينفذ فيها بطريقة علمية، أي بقذف المحكوم قذفاً مفاجئاً يكفي لكسر رقبته، فإنه لم يكن من الممكن إلا تصنيفه كتعذيب. وكل طريقة أخرى للشنق لم تكن إلا عملية خنق بطيء ومؤلم، ولا شك في أن "حفلات ربطات العنق" الأمريكية الشائعة هي من هذا النمط الثاني. وباستثناء حالات نادرة كانت عمليات الشنق بلا محاكمة تنفذ دائماً على أيدي هواة لا خبرة لديهم وليس على أيدي جلادين محترفين.

وقبل استخدام "الحبل الطويل"، الذي يقتل فوراً ودون ألم، كان الشنق مجرد عذاب نهائي متطاول للشخص المحكوم. وكما رأينا، كان الشنق غالباً جزءاً من أسلوب معقد يشتمل على "التحميص" ونزع الأحشاء قبل الموت. والحادث النادر لعملية الشنق البطيء - وربما كان الحادث الوحيد

الذي أثبتت أنه لصالح الضحية – هو الحادث المذهل الذي جرى لرجل اسمه جون سميث. فبعد أن حكم عليه عام 1705 بالموت لارتكابه عمليتي سطو، تمَّ جره إلى المشنقة بالطريقة المعهودة ثم علق بالشكل الملائم. وبعد أن تدلى ما يقرب من خمس عشرة دقيقة جاء لإنقاذه فارس على جواد جامح في آخر دقيقة، وأنزل سميث بطريقة درامية وسط الهتافات المتعاطفة، ثم أنعش وبعد ذلك أعفي عنه. أكثر من ذلك استعاد صحته تماماً وعاش وهو يتمتع بشهرة واسعة لأنه صار يُعرف فيما بعد بالاسم الطريف "سميث نصف المشنوق".

إلا أن أكثر أساليب الشنق شناعة لم يكن الشنق بالعنق، بل العقوبة الرهيبة التي تقضي بالتعليق حياً. وكانت عادة التعليق شائعة في أوروبا طوال عدة قرون. وكانت تشتمل على تقييد جثة المجرم المحكوم داخل قفص حديدي وتعليقه في مكان عام حتى يتفسخ ويتفتت. ولم يكن يسمح لأحد بإزاحة هذه المادة المرعبة تحت طائلة العقوبة العنيفة، لأن التعليق كان يقصد به التحذير الصارم لأشرار المستقبل. ولكن كما يحدث في العصور كافة، فقد ظلت الجريمة مزدهرة وظلت الأقفاص المعلقة شائعة شيوع الأشجار التي تتدلى منها. وصار الناس لا يبالون بمنظر الأقفاص المعلقة التي تهتز وتصر على مفارق الطرق. وصارت تستخدم بإتقان لتخويف الصغار، أو كوسيلة للمرح الفظ أو كنقطة علام. وكثير من كتب الإرشاد للرحالين القدماء مليئة بتوجيهات موجزة من نوع: "تمر بقاعة بن مرس ثم بمطحنة هل دروت 250 ـ 4. وكلتاهما إلى اليسار وبعدها تصعد هضبة صغيرة عليها قفص معلق إلى اليمين". أو: "تترك فرامبتون وويلبرتون وشربك، وكلها إلى يسارك، ثم عند قفص على اليمين فوق جسر حجري".

كانت القاعدة أن يعلق المجرمون في الأقفاص بعد موتهم، وكان هذا من حسن حظهم فعلاً. أما التعيس المسكين الذي يوضع في القفص حياً

فقد كان يواجه موتاً بطيئاً مؤلماً نتيجة التعرض للعوامل الجوية والجوع والعطش. وكانت هناك عادة أساليب إضافية شيطانية عديدة. ولقد وصف رحالة إنكليزي اسمه فانيس موريسو إحدى هذه الإضافات في "يوميات الرحلة" وهو الكتاب الذي يقال إنه إحدى أكثر القصص دقة عن أوروبا أوائل القرن السابع عشر. ومن أقواله نفترض أن هذه الممارسة الخاصة كانت سائدة جداً في ألمانيا في ذلك الحين. فهو يقول:

"قرب لنداوا رأيت شريراً متدلياً بسلاسل حديدية من المشنقة وكلباً هائل الحجم متدلياً على كل جانب قرب كعبه. فحين يتضور الكلبان جوعاً يأكلان من لحم الشرير قبل أن يموت هو جوعاً. وفي فرانكفورت رأيت عقوبة مشابهة مطبقة على يهودي".

ولم يكن نادراً تعليق رجل في قفص يدلى فوق الماء قرب الشاطئ ويظل مقيداً في هذه الحالة وهو يتلوى ويقاوم حتى العياء فيما يرتفع الماء تدريجياً حتى يغرقه.

وفي إنكلترا حين كان الرجل يعلق حياً في قفص فإنما العادة أن تكون عقوبة الجريمة غريبة جداً. ولقد نفذ حكم من هذا النوع في مقاطعة دورهام في أوائل عام 1683، فقد قام اندروميلز بقتل الأطفال الثلاثة جون وجين وإليزابيت. وكان ميلز خادماً مختل العقل يعمل عند والديهم. وحين قبض عليه اعترف بالقتل وأصر على أنه كان مأموراً من قبل الشيطان لتنفيذ تلك الجريمة. وكان العرف المحلي أن يعلق القاتل حياً في قفص قرب مسرح جريمته. وتفيد إحدى روايات هذه القصة أنه قد أبقى عليه حياً وقتاً إضافياً طويلاً بفضل حبيبته التي كانت تجلب له الحليب بعد هبوط الظلام. ولكن رواية أخرى تقول إن رغيفاً من الخبز قد وضع على قضيب معدني بطريقة لا بد فيها من أن يخترق القضيب حلقه إذا حاول أن يأكل الرغيف. وفي الحالتين يقال إن زعقاته وصرخاته كانت أقصى من أن يُحتمل سماعُها

وإن كثيرين ممن كانوا يعيشون في الجوار اضطروا إلى هجر بيوتهم إلى أن أسكته الموت.

وكان التعليق حياً في القفص أمراً شائعاً جداً في جزر الهند الغربية البريطانية. وهناك عدد من الحكايات التي تعود إلى القرن الثامن عشر عن مجرمين وعبيد علقوا حتى شويت جلودهم تحت الشمس الاستوائية وحتى ماتوا من الظمأ ومن التعرض في العراء. وكان للقفص المستخدم في جامايكا عدد من المواصفات الشنيعة الخاصة. فقبل تعليق المحكومين في الأقفاص كانت تتم تعريتهم. وما أن يصبحوا داخلها حتى يصبحوا في وضع ميؤوس منه. وإمعاناً في التعذيب فقد كانوا يتعرضون لآلام مباشرة. ففي اللحظة التي يتعبون فيها من تدليهم من قيود الأيدي ويتزايد ألمهم وعذابهم، فإن أول مستند بديل يستندون إليه هو طوق حديدي ضيق يمر بين الساقين. والمستند الثاني زوج من الركاب للقدمين وفي كل منهما ثلاثة قضبان مؤنفة تخترق أسفل القدم إذا ما حاول المحكوم أن يدوس عليها. وقد وصفت مجلة قديمة من القرن الماضي أن هذا التعليق في القفص "تعذيب يبدو الصلب ذاته أمامه لطيفاً".

وربما كان أكثر أنواع التعليق في الأقفاص شناعة الطريقة التي استخدمها الهولنديون لإعدام العبيد في سورينام. في البدء كان كلّاب حديدي يدخل في شق بين أضلاع المحكوم. ثم يتم ربط الكلّاب بسلسلة يعلق بها المحكوم حياً من حبل المشنقة. وكان المحظوظون من هؤلاء هم الذين يموتون بسرعة. أما سيئوا الحظ فكانوا يعيشون ما يقرب من ثلاثة أيام.

وكلما يخطر لنا الملك الإنكليزي هنري الثامن تلوح في المخيلة صورة جلاد مزود بفأس هائلة. وبما أن الموت بقطع الرأس كان يعتبر دائماً موتاً فاخراً حتى من قبل ضحاياه (لأنه كان يعتبر موتاً مشرفاً) فإننا لن نتعرض

له هنا. ولنلقِ بدلاً من ذلك نظرة سريعة على أحد أقسى أساليب الإعدام التي ابتكرها حكم الملك هنري وهي السلق حتى الموت. ففي عام 1531 سنّ قانوناً يقضي بسلق السجناء أمام الناس. وقد سن هذا القانون ليطبق على طباخ اسمه ريتشارد روز كان قد نجح في قتل شخصية من أصل سبعة عشر شخصاً سممهم في بيت أسقف روشستر. ووضع روز في مرجل حديدي كبير معلق فوق كومة من الحطب المشتعل وتحمل ساعتين من العذاب الحارق قبل أن يموت. وفي وقت لاحق من ذلك العام سلقت خادمة بطريقة مشابهة لأنها سممت سيدتها. وفي عام 1542 طبخت فتاة أخرى وهي حية في سميثفيلد ولحسن الحظ ألغي هذا القانون أيام الملك إدوار السادس.

وظل الحرق بالشد على الوتد موجوداً في سجلات القوانين في معظم البلدان حتى بداية القرن التاسع عشر. ولكن الموت حرقاً كان قد ألغي في إنكلترا قبل ذلك عام 1790. ومن الغريب أن الجرائم التي كان يشنق الرجال من أجلها كانت النساء يحرقن على الخازوق من أجلها نفسها. وكان التبرير المضحك وراء ذلك يقوم على أخلاقية ملتوية. ويبرر بلاكستون التشريعي البارز هذا الأمر بقوله:

"بما أن الحشمة المتعلقة بالجنس تمنع من الكشف عن أجسادهن وعرضها علناً، فإن الحكم عليهن (والذي هو مروع للحس كالحكم الآخر) هو أن يتم جرهن إلى أماكن الإعدام وهناك يحرقن وهن على قيد الحياة". ويسارع إلى الإضافة: "إن إنسانية الأمة الإنكليزية قد شرعت تلطيفاً عاماً لهذا النوع من الأحكام وبموافقة ضمنية، ينجي من العذاب والقسوة، وهو زحافة أو لوح شخبي يزود به الخونة المحكومون عادة ليتم جرهم، وحيث أن هناك حوادث قليلة جداً (بالمصادفة أو من قبيل الإهمال) لا يتم فيها نزع أحشاء أي شخص أو حرقه ما لم يتم إفقاده الإحساس بالخنق".

وعلى الرغم من هذا المزاج اللطيف الذي تتمتع به الأمة الإنكليزية إزاء "الخونة"، فإن القانون لم يكن ينظر إلى هذا الأسلوب من الإعدام العائد للقرون الوسطى على أنه تعذيب. وبالتالي فإن مسؤولية القتل "الإنساني" كانت تعتمد بشكل دقيق على المنفذين كأشخاص. ولنأخذ، مثلاً، قضية كاترين هايز. ربطت هايز إلى الخازوق في تامبرن في 3 تشرين الثاني عام 1726. وحسب العادة المتبعة ربط حول عنقها حبل وبدأ الجلاد عملية الخنق. وبغتة (من قبل المصادفة أو الإهمال) أحرقت النار التي كانت قد أشعلت منذ قليل يدي الجلاد. ولما لم يكن راغباً في التعرض لأي ألم لا لزوم له ألقى بالحبل وقفز مبتعداً قبل أن تفقد ضحيته وعيها. وعندها، كما يقول شاهد عيان:

"بدأت النار تضطرم من حولها. ورآها المتفرجون تدفع الحطب بعيداً عنها وهي تملأ الجو بصرخاتها واستغاثتها. ولكن حزمة أخرى من الحطب ألقيت عليها. غير أنها ظلت حية وسط النيران فترة لا بأس بها. ولم يترمد جسدها قبل مرور ما لا يقل على ثلاث ساعات".

وربما كان أكثر وصف يقف له الشعر من مشاهد الإحراق العلني هو ما جاء في سجل شهداء البروتسانت لهنري مور. فهناك وصف بتفاصيل مؤذية لموت صاحب النيافة الدكتور جون هوبر، الأسقف العام في غلوسستر عام 1555، وهو العام الذي استحقت فيه "مريم الدموية"[1] لقبها المشؤوم. كان صباحاً بارداً رمادياً تهب فيه الريح. ولكي يخفف الأسقف

(1) من الطريف الإشارة هنا إلى مشروب روحي هو مزيج من الفودكا وعصير البندورة الممدد يحمل اسم (بلودي مريم) - مريم الدموية أو السفاحة - وهو يوحي لشاربه أنه يشرب كأساً من الدم، وماري المقصودة هنا هي أول ملكة تحكم إنكلترا ويكون ذلك من حقها. لقبت بالدموية أو السفاحة لاضطهادها البروتستانت. ولدت عام 1516 وماتت عام 1558. (المترجم).

من عذابه وضع رزمتين من عيدان القصب وكيسين مليئين بالبارود بين ساقيه المقيدتين والمرفوعتين عالياً. وبعد أن تلا الأسقف المحكوم صلاته وتمتم الجلادون باعتذاراتهم المرتبكة بدأ الفصل الأخير من المأساة. يقول مور:

"أعطي الأمر بإشعال النار، ولكن بسبب وجود بعض العيدان الخضراء مر بعض الوقت قبل أن تصل النار إلى عيدان القصب. ولأن الريح كانت معاكسة والصباح شديد البرودة فقد ابتعد عنه اللهب بحيث أن النار لم تمسه إلا قليلاً. وأشعلت نار أخرى أشد قوة. وهنا انفجر كيسا البارود غير أنهما لم يجديا الأسقف المتألم، فراح يصلي بصوت مرتفع: مولاي يسوع. ارحمني. مولاي يسوع. استقبل روحي "وكانت هذه آخر الكلمات التي سمعت منه. ولكن حتى حين صار وجهه أسود تماماً من اللهب وتورم لسانه حتى لم يعد قادراً على الكلام ظلت شفتاه تتحركان حتى انفرجتا عن اللثة. وظل يضرب صدره بيديه حتى سقطت إحداهما. وظل يضرب بالأخرى فيما كان الشحم والماء والدم تقطر من نهايات أصابعه. وأخيراً، وبعد تجديد النار تلاشت قواه وثبتت يده في الحديد الذي كان يطوقه. ومباشرة بعد ذلك، وبعد أن كان النصف السفلي من جسده قد التهم تماماً سقط على الحديد الذي يحيط به وسط النيران وبين الصرخات والزعقات المرعبة التي كانت تنطلق من زمرة السفاحين الملتفة حوله.

ظل هذا الشهيد المقدس أكثر من ثلاثة أرباع الساعة وهو يحترق، والألم الذي لا يوصف كان يتحمله كحمل دون أن يتحرك إلى الأمام أو إلى الوراء أو إلى أي من الجانبيين. التهمت النيران نصفه السفلي وتدفقت أحشاؤه منه قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة. وهكذا قضى بطريقة تشبه أشنع أنواع العذاب التي يمكن أن تقدمها جهنم، بطريقة أكثر وحشية من الوسائل التي اتبعها الهنود الحمر المتوحشون مع أسرى حروبهم. هكذا قضى

الأب المحترم جون هوبر الذي كان في وقت مضى أسقف وورسستر ثم أسقف غلوسستر".

إننا نرتعد ذعراً اليوم من شناعة هذه العقوبات البالية. ونقول لأنفسنا إننا أكثر "تحضراً" من أن نفعل مثلها وإننا حين نتعامل مع المجرمين إنما نفعل ذلك وقصدنا الإصلاح والردع. ونصر على أن الانتقام ليس غايتنا. ولكن لو أن استفتاء فورياً أجري بعد جريمة مروعة، مثل اغتيال الرئيس كندي، فكم سيكون عدد الذين يفضلون واحداً أو آخر من أساليب التعذيب التي وصفناها ليطبق على القاتل؟

أصول التعذيب في الأدب

المركيز دوساد والشيفالييه فون ساشر مازوش

في كل عام تظهر كمية هائلة من القصص التي تعالج، ولو جزئياً، الوحشية الجسدية. وعلى الرغم من أن السادية ـ المازوشية قد لا تكون في صلب الموضوع إلا أنها تكون متوفرة في نسبة كبيرة من القصص. وأحد الأدلة على ذلك يبدو في عدد المبيعات الهائل لما يُسمى مدرسة الكتابة البوليسية الواقعية. إن شعبية العنف الأدبي تعكس ذوق المجتمع. فالذين لا يستطيعون، لسبب أو لآخر أن يخلقوا الجحيم الذي يتوقون إليه، يشبعون رغباتهم في العالم الخيالي للكتب وأفلام السينما والتلفزيون.

وكل من يستطيع القراءة هذه الأيام صار على صلة بكلمتي السادية والمازوشية. وما لا يعرفه إلا قلّة هو أن كلاً من التعبيرين يمد جذوره العميقة في عالم الأدب. ولقد اشتقت الكلمتان من اسمي نبيلين أوروبيين هما الكونت دوناتييه ألفونس فرانسوا دوساد والفارس ليوبولد فون ساشر - مازوش. ومن المستحيل البحث في الجوانب الأدبية للتعذيب دون التنقيب عن دوساد الفرنسي وساشر - مازوش النمساوي. وليس فقط أن كتابتهما تمثل الحد الأقصى المتطرف من حالة شذوذ جنسي محددة، بل أن قصتي حياتهما الشخصيتين تساهمان في توضيح كيف أن اسميهما قد اندرجا بين التعبيرات العلاجية السريرية.

ولد الماركيز دوساد في الثاني من حزيران عام 1740 في إحدى أبرز العائلات في وسط النبلاء الفرنسي. ولد ومعه لقب ماركيز ثم ورث لقب الكونت بعد موت والده. إلا أنه وقد كوّن شهرته قبل موت الأب فإن اللقب الأول ظل أكثر شيوعاً. وكان العديد من أسلافه قد أرسوا مكانة متميزة للعائلة كرجال دين وأبطال عسكريين ورجال دولة. وما من شك في أن أشهر أسلافه هي جدته في القرن الرابع عشر لورا دونوف التي خلدها بترارك في شعره ثم أصبحت زوجة هيغو دوساد مؤسس العائلة.

قضى المركيز الصغير السنوات الأربع الأولى من حياته مع أمه، وهي ابنة أخ الدوق دوريشليو سيئ الصيت ووصيفة الأميرة دو كوندي من آل بوربون. وأفسد دوناتيين، الطفل الجميل ذو الشعر الذهبي الطويل والعينين الزرقاوين الواسعتين والتفاصيل الدقيقة، بالتدليل والملاطفة اللذين كان يجدهما عند كل من حوله. لم يكن ليمنع عنه أي وجه من وجوه الرفاه. ولما كان قد أظهر دلائل النجابة منذ أن كان في الرابعة فقد بدأ يزعج من هم أكبر منه. وعلى الرغم من أنه كانت له ملامح ملاك إلا أن مزاجه كان شيطانياً. فحين لا يفعل ما يشاء يتحول إلى انطوائي حقود. وبكلماته هو كان "مغروراً متسلطاً سريع الغضب".

إلا أنه لم يكن أمراً غير عادي أن تبرز هذه المواصفات في نبيل غر أيام لويس الخامس عشر. وبالنسبة إلى دوساد، فقد كانت المسألة كامنة في أنه أذكى ممن هم أكبر منه. وكان ذلك مفسداً ليافعي القرن الثامن عشر مثلما هو مفسد اليوم. ومع الأيام أرسل الغلام إلى المقر الريفي لعمه فرانسوا، وهو كاهن بحّاثة هجر الحياة الدنيا في باريس وانقطع إلى الدراسة والتأمل. وهناك نمّى الماركيز تعطشه للمعرفة وحبه للكتب. وحين أصبح في العاشرة من عمره انخرط في الجوزيت في "كلية لوي دوغراند" في باريس.

وحين صار عمره أربعة عشرة عاماً كان قد حصل على ثقافة عالية. تفوق في اللاتينية واليونانية. وتألق في المبارزة والمناقشة والتمثيل والفنون الجميلة. وأسفر عن موهبة متميزة في الرسم والنحت. وفي ذلك الحين أيضاً غرق في الملذات الجنسية التي ميزت فرنسا القرن الثامن عشر ما قبل الثورة. وتحول إلى رحالة في دروب الجسد في فترة خدمته العسكرية ما بين 1754 و 1763. ولقد قضى جزءاً من هذه الفترة العسكرية في ألمانيا حيث اشترك في حرب السبع سنوات. والجانب الوحيد الذي كان يستمتع به في حياته العسكرية هو الاستمتاع بالإجازات، وكان أفضلها ما يقضى في المباغي حيث كانت الممارسة الجنسية الغريبة تعمل على إثارة الشهوات المتخمة لدى الزبائن الأرستقراطيين.

وحتى ذلك الحين لم يكن هناك ما يميز الماركيز دوساد عن أقرانه النبلاء. كان شاباً شهوانياً فاسقاً همه الأول التجديد في السعي إلى المتعة. وكان التميز الطريف الذي سيخلده كفيلسوف للرذيلة لم يظهر بعد.

في عام 1763، وبعد أن مل حياة الجيش واستقال برتبة كابتن في سلاح الفرسان وعاد إلى باريس وإلى حياة المرح الهائج. كان عمره ثلاثة وعشرين عاماً. وفي ذلك الحين خيمت غمامة قاتمة على مستقبله على الرغم من أنه لم يكن يعرف ما هي. قرر والده، الكونت دوساد، أنه قد آن الأوان لأن يستقر ابنه. ولم يكن الأب، الضابط الكبير في الجيش وحاكم عدة ولايات، غنياً بمقاييس القرن الثامن عشر. ولذا فقد كان من الضروري بالنسبة إليه أن يرتب زواجاً غنياً لوريثه الأول. وهذا ما فعله فوراً. وكانت الفتاة رينيه بيلاجي كوردييه دولونية دومونتريو، ابنة رئيس مصلحة الضرائب.

وعلى الرغم من أن دوساد الشاب لم يكن يستسيغ الفكرة إلا أنه أدرك أن لا خيار أمامه. فإذا رفض أمر أبيه في الزواج من رينيه فقد كان يعرف

بأنه سيلقي به إلى السجن بأمر "ليتردو كاشي" من الملك. وكانت تلك هي الطريقة الشائعة في إجبار الأبناء العنيدين من النبلاء على إطاعة ذويهم. وبالتدريج صار مرغماً على القيام بزياراته إلى آل مونتريو في باريس. ولكن مدام دومونتريو، التي كانت ترتدي البنطلون في العائلة، فتنت بالشاب الأنيق منذ اللقاء الأول. وعلى الرغم من أنه لم يكن طويلاً إلا أنه كان بالغ الأناقة ذا شخصية جذابة وكان النموذج الأمثل للأرستقراطي التقليدي.

وكانت هناك مشكلة صغيرة واحدة فقط. فحين وصل دوساد صدف أن وقعت عينه على أخت رينيه الصغرى، لويز، وهي صبية شقراء جميلة ذات مظهر مثير. كانت تتمشى في حديقة المنزل في ذلك الوقت. وربما كانت قد وضعتها هناك أمها الماكرة كطعم. ولا شك في أن مدام دومونتريو الخبيثة قد افترضت أن اللقاء مع صهرها المقبل سيكون ألطف إذا ما رأى في البداية الابنة الأكثر جاذبية. ولم يتم التعارف بين الاثنين. لكن أعينهما تقابلت بسرعة وكان رد الفعل الكهربائي الكيمياوي متوافقاً بينهما. وفرح الماركيز وقد ظن أن الفتاة التي تحمل الأزهار هي عروس المستقبل. وحين عرف الحقيقة ثارت ثائرته. وبالطبع لم يكن وارداً في تلك الأيام تزويج الفتاة الصغرى قبل الكبرى. وعلى الرغم من أن دوساد أبلغ حماة المستقبل بفظاظة أنه يفضل أن يتزوج لويز إلا أنه أُبلغ بفظاظة مماثلة أنّ هذا أمر غير وارد.

ودون أي تأخير حدث الزواج في باريس في 17 أيار 1763 في كنيسة "سان روش". وكان مهر العروس كافياً لإنقاذ عائلة دوساد من كارثة مالية. وبالقيمة الشرائية المعادلة في منتصف القرن العشرين كان المهر يقرب من مليونين ونصف المليون من الدولارات.

ولو أن رينيه، الجذابة المطيعة الوديعة، استطاعت أن تثير أدنى اهتمام

لدى زوجها الجديد، لاتخذت حياته في المستقبل مجرى مختلفاً تماماً. لسوء الحظ كانت مملة إلى درجة أن مجرد ذكرها كان يقيده. ولذا فإنه انغمس، أكثر من ذي قبل، في حياة مسعورة من الفسق.

وككثير من معاصريه كان له "منزل صغير" في اركويل في ضواحي باريس. وكان اسم هذا المنزل "لومونيري" وهو المخبأ النموذجي للشاب المستهتر. كان البيت يبدو تماماً كبيت فلاحي وكان محاطاً بسور واطئ ومختبئاً بين الأغصان المائلة عليه من الحدائق الجميلة. جدد البيت من الداخل تجديداً كاملاً وكان ذا جدران كتيمة ومداخل مستورة ويضم وسائل ترف المدينة كافة، بما في ذلك مجموعة من الخدم الكتومين. وفي هذا المكان اعتاد دوساد أن يقيم "عربداته العطرة" مع أصدقائه ومحظياته الباريسيات. وكان اثنان من رفاقه المفضلين في تلك الحفلات الصاخبة هما الأمير دولا مبال والدوق دوفرونساك. كان الأول متزوجاً من الأميرة سيئة الحظ التي مزقها الناس إرباً ومثلوا بجثتها في أثناء الثورة. أما دوفرونساك الخليع الشهير، فكان شاباً موهوباً في الهندسة. وقد اخترع كرسياً عبارة عن فخ (هو الأصل للأريكة المعاصرة القابلة للانفتاح) وكان يستخدمه لإغواء البغايا الممتنعات. وكان مصمماً بحيث ما أن تجلس عليه فتاة حتى ترى نفسها مرمية على ظهرها وساقاها مرفوعتان ومفتوحتان.

وما كان يزعج مدام مونتريه أن صهرها لم يكن يقضي إلا وقتاً قصيراً جداً مع زوجته خلال الأشهر القليلة الأولى من الزواج. والأسوأ من ذلك أن رينيه التافهة كانت ترفض أن تعرف ما يحدث. وبالغ دوساد في سلوكه كثيراً جداً، في أعين منتقديه، حتى وصل الأمر إلى اعتقاله في 29 تشرين الأول، بعد خمسة أشهر فقط من العرس، وسجن في قصر فنسن. وليس من المؤكد تماماً أن ما قام به كان مسيئاً. ولكن إذا حاولنا تجميع شذرات

مختلفة من المعلومات فإننا نستطيع أن نخمن أنه كان يعاقب لكتابته كتاباً بذيئاً جداً يحتوي على وصف تفصيلي للواطة. إذ أنه لم يكن يؤذي أحداً بشكل علني في الوقت الذي اعتقل فيه، فلقد أوقظ من نوم عميق كانت تطوقه فيه عاهرتان عاريتان.

وبعد أن قضى فترة قصيرة في فنسن أطلق سراحه وأمر بمغادرة باريس وأرسل إلى قصر حميه في النورماندي حيث لم يتحسن سلوكه أي تحسن. في أيار عاد إلى باريس من جديد واستأنف ممارساته السابقة كلها. وأكثر من ذلك أن سمعته، بعد أشهر، أصبحت أكثر سوءاً. وفي الفترة الفاصلة بين جولتين له في الريف مع محظياته الباريسيات المتنوعات اتخذ له عشيقة اسمها بوفوازان، وكانت راقصة في الأوبرا. وما لم يكن يعرفه هو أنه كان تحت مراقبة دائمة من الشرطة، وكان هذا، على الأغلب، نتيجة لكيد حماته التي كانت الآن قد أعلنت حربها الشاملة على الماركيز.

في تشرين الثاني 1765 نجح دوساد في إغضاب عائلته كلها. فبعد أن حملت رينيه منه في باريس رحل إلى قصره في بروفنس مع بوفوازان. ولم يكن انزعاجهم لأنه ذهب مع عشيقة (خاصة) بل لأنه كان يقدمها على أنها الماركيزة. وبمساعدتها صار دوساد يشرف على طقوس العربدة والفسق التي كان كل منها أكثر صخباً من سابقه ودون أية محاولة للإبقاء عليها في الخفاء. وخلال فترات استراحته صار دارساً للانحراف والفساد. فقد كان يقضي ساعات طويلة في المخابئ وهو يراقب أعمال الفسق ويسجل الملاحظات التفصيلية عما يحدث.

وخلال السنوات الثلاث التالية نزلت سمعة دوساد إلى درج أحط بحيث صار له سمعة المسخ الشاذ. ولم يكن هذا صحيحاً على الإطلاق. وعلى الرغم من أنه كان دون شك شخصاً ذا شهوات جنسية لا حدود لها، إلا أنه لم يكن أسوأ من غيره من متهتكي أيامه في أي شيء. غير أن سوء

حظه جعله يمارس لعبته بين أيدي أعدائه، لأنه كان دائماً نفساً متحررة ذات طبيعة متمردة.

صباح أحد عيد الفصح عام 1768 ارتكب أحد أسوأ أخطائه. وهناك روايات عديدة لما حدث فعلياً في ذلك اليوم. أصل المسألة كان على هذا النحو: غرر بامرأة فقيرة اسمها روزكيلرا إلى "بيته الصغير" بدعوى أنه مالك سيؤجرها منزلاً. وما أن استفرد بها حتى نزع عنها ملابسها وقيدها إلى السرير ثم جلدها. وفيما كانت عاجزة عن المقاومة أخذ سكيناً صغيراً وجرحها في عدة أماكن من جسدها. ويصعب التأكد مما إذا كان فعلاً قد سكب الشمع على هذه الجروح كما ادعت فيما بعد. وأخيراً دهن الجروح وتركها وحيدة. وعند هذا الحد استطاعت أن تفك قيودها وأن تهرب من البيت.

ومن الطبيعي أن ظهور روز أمام البوليس مشعثة وفاقدة الأعصاب من الخوف والألم، كان ذلك بداية فضيحة مثيرة. اعتقل دوساد وقدم للمحاكمة. واعترف بمعظم التهم. إلا أنه بصلف كبير أبلغ المحكمة أن العالم يجب أن يكون ممتناً له لما فعله. وأوضح أنه لم يكن يفعل أكثر من ممارسة تجربة عملية عن مراحل عمل بلسم جديد عجيب يشفي الجراح كلها. وأقنعت روز بسحب دعواها ودفع لها تعويضاً كبيراً.

وكان الهامش المهم الذي ظهر في المحكمة جزءاً من شهادة روز وعلاقته بما كتبه دوساد بعد سنوات. فحين كانت تحكي قصتها في "البيت الصغير" أبلغت المحكمة أنه بعد تجريحها "بدأ الماركيز يطلق صرخات حادة مخيفة". وهذا ما يشير إلى أنه قد وصل إلى ذروة جنسية عنيفة خاصة. وعن الموضوع ذاته كتب فيما بعد: "وبما أنه لم يعد هناك مجال للشك في أن الألم يؤثر فينا بشكل أقوى من المتعة، حين نولد هذا الإحساس بالألم لدى الآخرين، فإن كياننا كله سيرتعش بقوة كبيرة من أثر الصدمات

الناجمة". ونتيجة لهذا الطيش سجن الماركيز شهرين ثم أطلق سراحه أخيراً بعد أن دفع غرامة مقدارها مئة فرنك. والحادث الثاني الذي سبب له سمعة غير حسنة كان بعد أربع سنوات. في حزيران 1772 ذهب مع خادمه إلى مبغى في مرسيليا. وبعد انغماسه في عمليات جلد ولواطة قدم للفتيات سكاكر تحتوي على الذراح[1]. وفي وقت متأخر من تلك الليلة عاد لزيارة إحدى النساء، وبعد اللهو الخاص أعطاها المزيد من السكاكر المثيرة.

خلال أيام قليلة اشتكت المومسات اللواتي شاركن في اللعبة كافة إلى البوليس إثر تعرضهن لأعراض مرضية صغيرة من الذراح. وصدرت مذكرة بالقبض على دوساد وخادمه. وفتش قصر لاكوست وتم الاستيلاء على أملاك الماركيز. وفي هذه الفترة أتلفت كميات كبيرة من خصوصياته بما فيها الأوراق الشخصية والكتب والأعمال الفنية الجنسية.

واستطاع دوساد أن يضلل البوليس، إلا أنه اقترب من نقطة التحول الخطيرة في حياته. فمنذ تلك الفترة صارت حياته لعبة مطاردة واختباء (لعبة الكلاب والأرنب). وكانت الكلاب هي التحالف القائم بين حماته والبوليس الذين يطاردون الماركيز المتمرد مطاردة دائمة. وكان وقت الماركيز يهرب من يديه بسرعة.

ومع ذلك فقد عاش في السنوات القليلة التالية حياة مليئة ومتخمة وهو يعيش حياته القلقة. وعلى الرغم من مطاردة البوليس الجادة له بسبب "حفلة سكاكر الذراح" فقد نجح في إغواء لويز، أخت زوجته، والهرب معها إلى إيطاليا. وفي الوقت ذاته صدر عليه في وطنه حكم غيابي بقطع رأسه وإحراقه. وكانت المرحلة الإيطالية مرحلة استجمام إلا أنها كانت مرحلة قصيرة. وافترق العاشقان المتيمان فراقاً أبدياً. إذ أرسلت لويز

---

(1) مركب من مسحوق حشرة خاصة اسمها الذراح يحدث بثوراً على الجلد ويستخدم كمثير جنسي.

إلى الدير واعتقل دوساد مرة أخرى. وهذه المرة بأمر من ملك ساردينيا (وبوشاية من حماته).

وما إن علمت رينيه أنه يتألم في حصن ميولان في شامبري حتى هرعت لإنقاذه؛ الأمر الذي أرعب والدتها. تنكرت رينيه في زي رجل وحاولت الدخول إلى الحصن دون جدوى. وبعدما يقرب من شهر، وفي وقت متأخر من ليل 30 نيسان 1773 نجحت رينيه مع عصبة من خمسة عشر رجلاً في ترتيب هروب دوساد. وعلى الرغم من أن الأمر يبدو لنا في هذه الأيام غريباً جداً، إلا أن ولاء رينيه لزوجها ظل ثابتاً مدة أطول مما يتوقع. ولكن لا بد من تذكر أنها كانت قاصرة الخيال لا يهمها إلا شؤون بيتها والمحافظة على ما نعتبره اليوم صورة الزوجة الكاملة.

وفي السنوات الأربع التالية عاش دوساد حياة رخوة. فقد قضى في إيطاليا وقتاً طويلاً مع مجموعة من العشيقات. وكان يعود بين حين إلى آخر إلى قصره، لاكوست، في بروفنس. وهناك كان يحاول أن ينسى حقيقة كونه مطارداً. ولقد عاش لفترة كسيد للقصر. وكان يكتب المسرحيات وينتجها، إلا أنه ظل ينسخ ملاحظاته عن الحفلات الصاخبة الماجنة التي كان يبدو أنه لن يتعب منها أبداً. وأخيراً بعد عدد من المناوشات الصغيرة مع السلطات اعتقل في شباط 1777 على يد خصمه العنيد المفتش مارياس. وتحقق ذلك، إلى حد كبير، بمساعدة مدام دومونتريه التي كانت كراهيتها لصهرها بلا حدود. لقد ندمت أشد الندم على تزويجه برينيه، ولكن بعد إغوائه للويز صممت المدام على أن لا يقف شيء في طريق انتقامها. ولم تعد أمام دوساد الشاب إلا فترات قصيرة من الحرية - حتى الآن لم يتجاوز السابعة والعشرين - جلسة تحقيق، فهربٌ، فاعتقال جديد، وأخيراً في آب 1778 يحتجز في قصر فنسان ليقضي أول فترات سجنه الطويلة.

وفي البدء وضع في حجرة صغيرة رطبة ليس فيها من الأثاث إلا

السرير. ولم يسمح بزيارته. وكان طعامه يصله عبر كوة صغيرة. ولم يسمح له حتى بإدخال الكتب أو أدوات الكتابة. بالنسبة إلى دوساد، ذي الحيوية الجسدية والعقلية الجبارة، كان هذا نوعاً من التعذيب. لم يكن أمامه ما يفعله إلا التمشي والتفكير والتأجج بالكراهية للمجتمع الذي نبذه واضطهده وطارده حتى حبسه كالوحش. وفي هذه المرحلة بدأ خياله ينطلق في أعنف جموحاته. وهنا في هذا السجن الرطب القاسي بدأت شطحاته العقلية المصحوبة بذكريات انتصاراته السالفة تعطي ثمارها. لقد كانت أفكاره في حالة من الهياج ضمنت لهذا الرجل المعذب خلوداً لم يكن يسعى إليه.

مع الأيام أُعطي دوساد ورقاً وأقلاماً. وكان قد تعلم أن يعزل نفسه عن الواقع من خلال خياله. وكانت متعته الكبرى هي في تصور وسائل ارتكاب أشنع الجرائم وممارسة أعجب فنون الفسق وإنزال أفظع أشكال الدمار الشامل. أما عائلته، وحماته، فبعد أن اطمأنت إلى أنه آمن في سجنه فقد ارتدت إليه لتلبي له كل ما يطلبه من طعام وشراب. وراح يأكل ويسمن مستعيضاً عن الجنس بالشراهة في الأكل. وواظبت رينيه على مراسلته وبدأت تتبع تعليمات زوجها حول الكتب التي يجب أن تؤمنها له. وإلى أن اكتشف أمره ومُنع، كان قد أرسل عدداً كبيراً من الرسائل السرية المكتوبة بين خطوط الرسائل البريئة الواضحة. وكان يستخدم أبسط أنواع الحبر السري في الدنيا – عصير الليمون.

وأخيراً في 1781، وبعدما يقرب من ثلاث سنوات في السجن، سُمح للماركيزة بزيارة زوجها. وبإخلاص راحت تجلب له الكتب. أما على مستوى الحديث فقد كانت الزيارات مفجعة. كانت تهذر دون توقف عن الشؤون المنزلية والأولاد والمسائل المالية الصغيرة؛ وكان هذا كله يبعث على الملل عند دوساد ما يوصله إلى الانهيار. كانت الأفكار، نهائياً خارج

اهتمامات رينيه. فمن جهة أولى كانت تخبر الماركيز التعيس أن كل شيء في البيت على ما يرام ثم، وفي اللحظة التالية، تشير عرضاً إلى أن مخطوطة لا تقدر بثمن، أو مجموعة من الرسائل قد ضاعت، وتحولت خيبته إلى غضب وحاول إيذاء زوجته جسدياً. ونتيجة لهذه الانفجارات أوقفت زياراتها له فوراً.

في 1784 نقل دوساد إلى الباستيل. وبعد عام كان قد كتب كتابه العجيب "120 رحلة إلى سدوم أو مدرسة الفجور". ولو أن هذا الكتاب نشر وقت كتابته (لم ير النور حتى عام 1904) لكان قد سبق "كرافت إبنغ"[1] بما يزيد عن القرن. وعلى الرغم من أن "120 رحلة إلى سدوم أو مدرسة الفجور" قد كتبت بأسلوب قصصي، إلا أنها كانت في حقيقتها مجموعة دقيقة وتفصيلية من الانحرافات الجنسية؛ مجموعها ستمئة وجه من وجوه الانحراف.

يدور الكتاب حول مجموعة من الفاسقين الأغنياء الذين يلتقون في قصر سري معزول حيث يقررون ممارسة كل رذيلة عرفها الإنسان. ويجلبون معهم عدداً كبيراً من الشباب والشابات ليمارسوا عليهم شذوذهم وفسقهم. ولكي يتأكدوا من أنه لم يفتهم شيء، يشكلون مدرسة تترأسها أربعة عاهرات كبيرات في السن، كل منهن متخصصة في مئة وخمسين نوعاً من الانحراف.

وكانت المشرفة على شؤون التعذيب حيزبوناً في السادسة والخمسين من عمرها اسمها مدام ديغرانج، وهي هيكل هزيل وبشع لامرأة فقدت عيناً وست أسنان وأحد الثديين وثلاثة أصابع. وقد اختيرت لقدرتها على ابتكار "الحد الأقصى من الرعب والمقت". وإضافة إلى حيازتها لكل أداة عقاب

---

(1) كرافت ابنغ (1840 - 1902) عالم وبحاثة مختص في علم نفس الأمراض الجنسية وعلم نفس الأمراض العصبية.

عرفها الإنسان في "قاعة المحاضرات" الخاصة بها، فقد كان في القصر دهليز رهيب عثر فيه على "أفظع ما يمكن تصوره من أشرس الفنون وأقسى أنواع الوحشية التي كانت هي نفسها رهيبة بمقدار ما تستطيع بالتنفيذ وإثارة الرعب".

وفي الوقت الذي كتب فيه دوساد "120 رحلة إلى سدوم أو مدرسة الفجور"، كان قد كرس نفسه ككاتب وسيكون من المستحيل الخوض الآن في تحليل تفصيلي لبقية أعماله ومؤلفاته اللاحقة؛ إذ ليس لدينا هنا مجال كاف لذلك. إلا أنه من الممكن سرد الخطوط العريضة لحياته. فمن سنوات عمره الأربع والسبعين قضى إحدى وعشرين سنة في عزلة قسرية. كما أنه ساهم بفعالية في الثورة الفرنسية. فعلى الرغم من أصوله الأرستقراطية إلا أنه كان يكره النظام القديم والظلم المرتبط به. وقبل الهجوم على الباستيل كان دوساد يلقي بالمنشورات والشعارات من أبراج السجن داعياً الجماهير إلى العنف. ثم بدأ يطلق شعاراته اللاهبة مستخدماً المدخنة كميكرفون. وكان قد تنبأ بالثورة تنبؤاً صحيحاً في روايته "الين وفالكور" التي نشرت عام 1788، ففيها تقول إحدى الشخصيات:

"... إن ثورة كبيرة تختمر في هذه البلاد! جرائم ملوككم، وفظائعهم الشنيعة، وأعمال فسقهم وعدم كفاءتهم قد أنهكت فرنسا. لقد نالت ما يكفيها من الاستبداد، وإنها على وشك أن تحطم قيودها".

إلا أنه على الرغم من تهليله لإسقاط "النظام القديم" وترحيبه بذلك فقد كان متشككاً فيما سيأتي. ولقد قال: "سيكون الله أول ضحايا الثورة، وستكون الفضيلة ضحيتها الثانية". ولم تكن أبشع شخصياته إلا صوراً مكبرة لأولئك الذين أوصلوا فرنسا إلى حالتها المحزنة. وفي أشنع مباذلهم وأحط سلوكياتهم كان دوساد يقدم الأعداء الحقيقيين لفرنسا ويهاجمهم، بمن فيهم من وطنيين وعامة. ولم ينجُ أحد من هجماته الأدبية حتى مواطنو

الجمهورية الجديدة الذين طالبوا بإطلاق سراحه على أساس أنه ضحية للظلم عام 1790، ووصف التجاوزات التي كان خلفاء الملكية يمارسونها بأنها "مسرح للرعب حيث... يقدم أكلة لحوم البشر عروضاً لمسرحية من النمط الإنكليزي". وكان يشير بـ "النمط الإنكليزي" إلى مسرحيات شكسبير التراجيدية، مثل ماكبث وهاملت، بموضوعاتها المألوفة التي تدور حول الدم والجريمة.

عاد دوساد في الخمسين من عمره رجلاً حراً بصحة متداعية وبدانة شديدة إلا أنه استمر في الكتابة. كانت ثروته قد تبددت وصارت أسرته غريبة عنه تماماً. وحتى رينيه، تحت التأثير الساحق لأمها المتسلطة طلبت منه الانفصال أخيراً. وانغمس المواطن دوساد في حياة الجمهورية الجديدة، فأصبح مراقباً في مستشفى ثم مسؤولاً صغيراً في باريس. وليتذكر كل من يصر على اعتباره وحشاً أنه حين كان حموه البغيضون قد أصبحوا عرضة لأن يفقدوا رؤوسهم فقد عمل على إنقاذهم من المقصلة. وكاد الأمر أن يكلفه رأسه هو. لهذا السبب ولتصرفات "معتدلة" أخرى اعتقل مجدداً وسجن سنة أخرى. وخلال تلك الفترة كلها ظل خطر الموت محدقاً به.

وحين أطلق سراحه عام 1793 أجبر على بيع قصره، لاكوست، الذي ظل متماسكاً حتى ذلك الحين. وعاد إلى الكتابة. إلا أنه شن هجومه الأدبي الأخير عام 1801 حين كتب "زولوي ومساعداه" وكان نقداً ساخراً وعنيفاً لجوزفين ونابليون. ولم يتردد بونابرت؛ فسجن الماركيز العجوز مرة أخرى. ومرة أخرى تدخل أسرة الماركيز إلى المشهد. فقد كانت تحس أن المحاكمة سوف تكشف عن فضائح كبيرة. وأقنعت السلطات المعنية بأن الحل الأمثل هو إيداع الماركيز المنفلت في مصح عقلي في شارنتون.

ومن الغريب أن دوساد صار أقرب ما يمكن من السعادة وهو محتجز في شانتون. ولقد أسس أيضاً لما يعتبره الأطباء النفسانيون الصيغة الأولى

للعلاج الجماعي؛ فنظم عروضاً مسرحية مستخدماً نزلاء المصح كممثلين. وصارت لتلك العروض شعبيتها، حتى أن نخبة من مثقفي باريس كانت تواظب على حضورها قبل أن تمنع بتحريض من طبيب ضيق الأفق.

في عام 1808 صار دوساد شبه أعمى نتيجة لعدد من المنغصات كان بينها النقرس ومرض الكبد والربو. وراح يسير نحو نهايته برباطة جأش. وأخيراً مات مصاباً بذات الرئة في كانون الثاني 1814. ومن المفارقات أنه كان قد أوصى بأن يدفن في قبر دارس في غابة من ممتلكاته قرب ابرنون. وأضاف: "ويجب أن تزرع الأرض فوق قبري بالبلوط لكي يختفي كل أثر له مع الأيام، تماماً مثلما آمل أن تمحى ذكراي من عقول الناس" وكما كان الأمر في حياته ففي مماته أيضاً لم يهتم أحد برغباته، ودفن بدلاً مما أوصى به تحت صليب بسيط في مقبرة سان موريس في باريس.

ومن الواضح نسبياً، لماذا ينظر اليوم باحترام إلى هذا الرجل الألمعي المتطرف في ثورته حتى بالنسبة إلى ثوريي عصره. لقد كان يخاطب القرن العشرين أكثر مما كان يخاطب القرن الثامن عشر. وبين سطور غضباته البركانية اللامتناهية نجد النبوءة الواسعة لعالم الاجتماع المعاصر. لقد قال: "ليس من الممكن نكران أنه سيكون من الضروري والمفيد إلى أبعد الحدود تحديد النسل في دولة جمهورية... احذروا من تزايد السكان؛ حيث كل إنسان ملك، واعلموا أن الثورات هي دائماً نتيجة لتزايد عدد السكان".

ولم يكتف بالدعوى إلى تحديد النسل، بل إنه كان يفضل أيضاً إلغاء العقوبة القصوى (الإعدام)، فهل من الممكن أن تكون هذه فلسفة مجنون منحرف؟ ولقد وقف إلى جانب العلماء المتنورين الباحثين في الجريمة من أمثال سيزار بيكاريا. كان يقول إن عقوبة الموت لم تؤدِّ أبداً إلى الحد من الجريمة. وأشار إلى أن "هناك جريمة تقترف كل يوم تحت المقصلة".

واستخدم المنطق القياسي البارع الذي كان متميزاً فيه ليقول بظُرف إن إعدام رجل لأنه قتل رجلاً آخر يعني أنه قد صار لدينا قتيلان بدلاً من قتيل واحد. ويقول الماركيز إن هذا هو المنطق الحسابي للأوغاد والمعتوهين. ولا شك في أن أحد الأسباب الرئيسة لمعاملته السيئة على أيدي مجتمعه هو أنه كان يسخر من العالم لما فيه من نفاق وحمق ويستخدم أكثر الأمثلة فضحاً وإخزاء مما يستطيع أن يلفق ويبتكر.

ومن مجموعة ملاحظات تفصيلية تبيّن أن دوساد كان يعد العدة لكتابة رواية ضخمة حول الحياة المأساوية لفتاة اسمها إميلي دوفولنانج. كانت إميلي ابنة سفاح القربى. كان أبوها سيرابون قد اغتصب أخته فحملت منه. وقد كتب دوساد في الملاحظات التي ترسم الخط القصصي: "إن إميلي هي ابنة سيرابون. لقد ساهمت في تعذيب أمها وشربت من دمها. وأخيراً قتلتها بالأسلوب الصيني في التعذيب، أي بسلخ الجلود السبعة للجسد. لقد أكلت قلبها وهكذا يتضح أن الأم لم تهرب لتموت في قلعة سرابون".

سواء أكان الماركيز، من خلال عالم خيالاته اللامحدود، يعاقب والديه وحماته أم أنه للسبب ذاته كان يعاقب المجتمع كله؟

أشهر روايات دوساد هي "جوستين أو بلية الفضيلة" و"جولييت أو نعمة الرذيلة" إن العنوانين وحدهما يشيران إلى جزء أساسي من فلسفة دوساد التدميرية. لقد كانت الروايتان، بشكل ما، متكاملتين طباقياً. وبعد إعادة كتابتهما وتوسيعهما أصبحتا عشرة مجلدات. وليست النسخ الإنكليزية الرخيصة التي تملأ الأسواق اليوم أكثر من هياكل ممسوخة عن العملين الأصليين.

كانت جوستين وجولييت أختين تمثلان "الخير والشر". وقد رباهما لفترة دير باريسي. ولكن بعد إفلاس أبيهما دخلتا إلى الدنيا للاعتماد على نفسيهما. وتتعرض جوستين، الأخت الطيبة، لمشكلة فاجعة بعد أخرى

فتجبر على البغاء والسحاق والوحشية ثم الجريمة. وفي إحدى المراحل تلتقي بشيطان نباتي يغوي الفتيات ويأخذهن إلى قلعته حيث يغتصبهن ويجري بنفسه لكل منهن عملية قيصرية. ثم وبعد أن يبلغ كل طفل الشهر الثامن عشر يقوم بإغراقه. وبعد ذلك تقع بين أيدي رهبان فاسقين يمارسون أبشع أنواع الرذائل. وإضافة إلى ممارستهم الجنسية يعذبون الضحايا من النساء ويخنقونهن ثم يطبخونهن ويأكلونهن.

وفي كل وضع تواجهه جوستين يكون الفسق أشنع من سابقه. وهي تقاوم دائماً ولا تكون النتيجة إلا المزيد من الإذلال والمزيد من الآلام، وتمدد على المخلعة وتكسر عظامها على العجلة وتجبر على ممارسة أحط الأفعال الجنسية. والذين تقابلهم هم مهووسو الإحراق والقتلة ومحبو الجثث وأكلة لحوم البشر ومن هم أسوأ من ذلك. ولمقاومتها الدائمة من أجل الحفاظ على مظهر الفضيلة فإنها في النهاية تموت ضحية بائسة لصاعقة مفاجئة.

وتسير جولييت، أخت جوستين، في طريق مشابه ولكن بطريقة مختلفة. فبعد مغادرتها الدير تدخل مبغى باختيارها. وبعد أن تجني خبرات كبيرة في أحط أنواع الانحرافات الجنسية تلتقي نوارسيل الفاسق الثري. وبعد مشاهدة عدة فصول من مباذله، التي يعذب فيها العديد من الضحايا بمن فيهم زوجته، تعرف جولييت أنه الشخص ذاته الذي قتل والدها. وحين يعترف لها بأنه قد قتل والديها تقول له: «أيها الوحش إنك تجعلني أرتعد... ولكنني، على الرغم من ذلك، أحبك».

ويسألها: «تحبينني، أنا قاتل أسرتك؟!».

وتجيبه جولييت: «ولمَ لا؟! إنني أحكم على كل أمر من خلال الإحساس الذي يثيره. إن مراقبة ضحاياك وهي تتألم لم يثرني، ولكن سماعي لك وأنت تعترف بأنك قاتل يثير أعظم المشاعر في نفسي».

ومراقبة جولييت المتحمسة لحياة الفسق لم تمنعها من أن تكون أحياناً ضحية نوع من أنواع الانحطاط الجنسي. ولكنها في معظم الأحيان تظل المعتدي الفعال أو الشاهد المراقب للوحشية. في إحدى المباذل تُلقى أربع فتيات عاريات في الزيت المغلي. وفي الثانية تعذب زوجة نوارسيل حتى الموت. يدهن جسدها العاري بالكحول ثم يتم إدخال الشموع المشتعلة في فتحات جسدها كافة. وبعد ذلك تعطى سماً. وفي حادث آخر تستخدم فتاة صغيرة كحاملة شموع فيما يتم إحراق أخريات وشيهن وهن على قيد الحياة.

السجل الحافل بالفظائع والذي يتكشف أمام قارئ "جولييت" يصيب الرأس بالدوار. ويلخص إيوان بلوش مؤلف كتاب "الماركيز دوساد: الرجل وعصره"، حادثاً نموذجياً بعد عملية قتل شنيعة لأسرة بكاملها.

"دهنت جولييت غرفة بالسواد ثم وضعت رؤوس الجثث في كوى الجدران لكي تقدم فيما بعد للملكة (والمقصود ماري أنطوانيت). وأكثر من ذلك؛ تعلق أردافهم على الجدار. بعد ذلك تجلب عدة أدوات تعذيب. وتوضع الفتاة فولفيا، على العجلة. الآخرون فقئت أعينهم أو كسرت عظامهم. ووضع شاب في آلة كبيرة تشبه مطحنة القهوة وسحق".

ومع أن هذا الوصف يبدو خيالياً، إلا أنه يظل لطيفاً بالمقارنة مع مقاطع أكثر حدة من الرواية. إن أحد المقاطع يستحق أن يذكر بتفصيل أكبر. وهو عن التقاء جولييت بمنسكي، وهو آكل لحوم البشر. روسي عملاق يمكن اعتباره واحداً من أبشع جزاري الرواية.

فيما كانت جولييت راحلة عبر الابنين في إيطاليا برفقة مقامر اسمه سبريغاني وقرينة سحاقية يدعوها الروسي لزيارة قصره المعزول والقائم في جزيرة وسط بحيرة عميقة هادئة، يصف نفسه بأنه "متحلل بالفطرة متمرد فاسق ضار دموي"، ويبدأ منسكي بتقديم الدليل لضيوفه. فيما كان

يتحدث كانت جولييت وزميلاها يسمعون الصرخات الحادة لضحايا منسكي الذين يتلوون في سراديب عميقة تحت الأرض. وبالتطلع حولهم استطاعوا أن يروا أن الكراسي في المنزل كافة مصنوعة من عظام البشر.

وعند سرد قصته يوضح منسكي أنه قد طاف العالم ليتعلم أشنع الجرائم والرذائل في كل مكان ذهب إليه. والنتيجة كما يقول: "لقد حكم عليّ بالحرق في إسبانيا وكسرت عظامي على العجلة في فرنسا وعلقت من عنقي في إنكلترا وضربت بالهراوات حتى أشرفت على الموت في إيطاليا".

وبسخرية دوساد المتميزة يوضح منسكي أن ثروته الطائلة كانت تحميه من العقوبة في كل مكان، ويقول لضيوفه إنه يفضّل أفريقيا على كل ما عداها من الأمكنة لأنه وجد الإنسان هناك "ضارباً بالفطرة وقاسياً بالغريزة وعنيفاً بالتربية" ويتابع منسكي أنه في أفريقيا جرب تذوق لحم البشر ليضيف بأن الأثاث في بيته المصنوع من بقايا البشر ليس إلا بقايا وجباته السابقة.

ويحتفظ بأعداد كبيرة من الضحايا الأقوياء سجناء لكي يشبعوا شهواته كلها. وفي أحد الفصول يحكي عن احتجازه "مئتي طفل أعمارهم بين الخامسة والسادسة عشرة ما بين سريري وحانوت لحامي". وفي مكان آخر لديه جناحان للحريم. مئتا أنثى ما بين الخامسة والعشرين، ومئتان غيرهن من الثلاثين وما فوق. المجموعة الأولى، مثل الصبيان، يستخدمها لأغراض جنسية حتى يستهلكها وبعد ذلك تذبح لإعدادها للمائدة.

وفي النهاية حين تقدم العشاء لجولييت وسبريغاني يصابان بالذهول. الثريات ومائدة الطعام والكراسي والخوان، كلها فتيات على قيد الحياة. وكانت المشويات، التي تقدم في صحون فضية، تحرق "الموائد" بشدة.

ولكن أسوأ ما في الأمر، كما يوضح منسكي، هو أنه قد تموت إحداهن وعندها يتم استبدالها.

وبعد الأكل بنهم من حساء ممتع جداً تسأل جولييت مضيفها عن ماهيتها، ويرعبها بقوله إنه حساء خادمة غرفتها السابقة. وبعد ذلك، وللترفيه عن ضيوفه فقط، يأخذهم منسكي إلى مكان خاص بالوحوش الجائعة ويطعمها بعدد من النساء المولولات من حريمه.

إلا أن الإنجاز العظيم لمنسكي هو تصميم مقعد يمكنه من شنق وتعذيب ست عشرة ضحية في آن واحد. وهذا التصميم لا يكتفي بذلك، بل إنه يوقع في كل ضحية جرحاً مختلفاً. فهو يجلد ويخز ويحرق ويمزق ويقطع ويجز ويجرح. ويشرح لهم مزهواً بأنه إذا أدار الضوابط بقوة كافية فإنه يستطيع أن يقتل الجميع فوراً ودفعة واحدة.

بعد ذلك كله تدرك جولييت وسيريغاني ماذا سيكون مصيرهما إذا أطالا المكوث هنا. فيخدران منكسي ويسرقان من كنوزه ما يستطيعان حمله ثم يهربان. والسبب الوحيد الذي يمنعهما من وضع سم كاف لقتله إيمانهما بأن "غولاً كهذا يجب ألا يقتل".

وبما كسباه من إغارتهما على خزائن منكسي يفتح سيريغاني وجولييت مبغى في فلورنسا يحتوي على كازينو للقمار ومختلى للتسميم. ثم تأتي رحلات أخرى تشتمل على فسوق أفظع كالقتل الجماعي وحفلات العربدة والسحر الأسود. في إحدى المراحل يدعو ملك نابولي جولييت إلى مسرح جينيولايك العظيم المتخصص بالرعب الذي يعتبره الترفيه الخاص عن أصدقائه. ويقدم هذا المسرح عروضاً مستمرة للإعدام بالنار والضرب والشنق وبتر الأعضاء وقطع الرؤوس والخوزقة والتكسير على العجلة. وفي أحد العروض يقتل 1176 شخصاً دفعة واحدة. والأسلوب الفريد من نوعه في القتل في هذا المسرح عبارة عن آلة تحتوي على

صفيحتين حديديتين. تعلق امرأة عارية على كل منهما ثم تسحقان معاً بضربة واحدة كضربة صنج جبار وبقوة كما تمعسُ بقّتان.

وقبل أن تصل الرواية إلى نهايتها تمر مشاهد عديدة أخرى من الفسق والقتل والتعذيب. تقوم جولييت وعاشقة لها بإلقاء امرأة ثالثة في فوهة بركان جبل فيزوف وتهتاجان جنسياً بما فعلتاه فتتعريان وتغرقان في عاصفة جنسية ووراءهما البركان في هيجانه المفاجئ.

وفي نهاية حكايتها الطويلة المرهقة تندفع جولييت في "كلام مغمور مسهب منه:

"الماضي يرهقني، والحاضر يشحنني ولست أخاف من المستقبل أبداً. أملي الوحيد هو أن أواصل فيما تبقى من حياتي تخطي فسق شبابي".

وبالفعل تستمر جولييت في الاستمتاع بالحدود القصوى للفساد، وتصبح في أثناء ذلك ثرية ثراء فاحشاً وتطالب بعنوان لقصتها قبل موتها بسلام بعد سنوات. وتصر "على من يكتب قصتي أن يضع لها عنواناً: جولييت نعمة الرذيلة".

بعد اثنين وعشرين عاماً من موت دوساد المأساوي وغير المعلن ولد إنسان قدر له أن يرتبط به إلى الأبد. كان اسمه ليوبولدفون ساشر - مازوش وكان ابن مفتش الشرطة في لمبورغ في النمسا. ينحدر ليوبولد من أسرة نبلاء إسبانيين من جهة والده، ومن أرستقراطية بولندية من الجهة الأخرى. قضى الأعوام الاثني عشر الأولى في بيئة سلافية؛ الأمر الذي أثر بعمق في حياته في المستقبل وفي توجهه كروائي.

كانت أوروبا تعيش حالة من الفوضى في السنوات المؤثرة في تكوين ساشر مازوش، وخاصة في غاليسيا، منطقة مولده. في عام 1846 حدثت انتفاضة فاشلة قادها الملاكون البولونيون ضد حكومة النمسا، وكان

من الممكن أن تكون أكثر نجاحاً لو لم تكن ذات خاصية محددة. ففي مؤامرة غريبة من نوعها كان على زوجات البولونيين المستعدين للتمرد أن يخنقن الضباط النمساويين كافة الذين سيراقصنهم في قاعة الاحتفالات العسكرية. ونجا المُخطط لموتهم بالصدفة لأن واحداً من عائلة هابسبرغ المحاكمة مات فألغيت الحفلة. ومع ذلك بدأت الانتفاضة.

واندفع الفلاحون فوراً، وهم الذين يغتنمون الفرصة بسرعة للقيام بأعمال السطو والاغتصاب والتعذيب والقتل. وانهمك مفتش الشرطة في محاولة المحافظة على النظام في لمبرغ، وصار يعود إلى البيت ومعه قصص دموية مرعبة يقف لها شعر الرأس. وذهل ليوبولد الصغير. وأكثر من ذلك كان الطفل الاجتماعي المرح يستمع بانتباه لكل من يحكي له قصصاً أكثر رعباً عن القسوة والذعر والموت.

وحدث في سن العاشرة حادث ظهر فيما بعد في إحدى رواياته مع بعض التعديلات التفصيلية، وفي كل حادث هناك القليل من الشك في أن يكون معظمه صحيحاً.

كان لليوبولد خالة في الثلاثين اسمها الكونتيسة زنوبيا. كانت جميلة وشهوانية ذات سمة أرستقراطية وشكل شبه ذكوري. وكان من عادتها أن ترتدي فرواً مترفاً غالياً وأن تحمل معها سوط كلب. وكان الولد متيماً بها يتبعها بانصياع مطلق. بين حين وآخر كانت تسمح له بمساعدتها في ارتداء ملابسها. وذات يوم فيما كان يساعدها في ارتداء خف مؤطر بالفرو انحنى دون تفكير وقبل قدمها. ورفسته في وجهه بقوة وهي تضحك. ولدهشته اكتشف أن الضربة غير المتوقعة قد منحته متعة كبيرة. وبعد هذا الحادث بوقت قصير وفيما كان يلعب لعبة الاستغماية اختبأ في مقصورة ملابس زنوبيا. واستولى عليه مزيج من الخوف والفرح حين دخلت الغرفة مع عشيق لها وارتمت على السرير فوراً. ودون سابق إنذار يندفع زوجها إلى

الغرفة. ولم يجد الفرصة لمهاجمة من يخونه حتى لو كان ينوي ذلك. دون أدنى تردد أمسكت الكونتيسة بالسوط وراحت تجلد الرجلين لتطردهما من الغرفة. وأطلق ليوبولد صوتاً دون وعي منه وهو المستثار إلى أبعد الحدود. وسرعان ما فتحت زنوبيا باب مخبئه وألقت به على أرض المخدع وراحت تضربه بقسوة شديدة وهي تضغط بركبتها عليه. وللمرة الثانية اكتشف أنه يتذوق متعة غريبة. وبعد أن طُرد صار يعود متسللاً في الوقت الملائم ليرى زوج خالته. الكونت، يرجع إلى غرفة زوجته طيعاً ليتلقى المزيد من الضرب على يديها.

حين صار عمره اثني عشر عاماً ذهب ليوبولد إلى براغ التي كان والده قد نقله إليها. وكانت أوروبا الشرقية ما تزال في حالة من الفوضى، وكانت المدينة نفسها ممزقة بالثورة وبقتال الشوارع. ومرة أخرى يفتتن الولد الحساس بأنثى متسلطة. وهذه المرة كانت ابنة عمه ميروسلافا التي تصغره بعدة سنوات، وكان قد تعود مرافقتها إلى متاريس الشوارع حيث كان يخيم الخطر الدائم من الرصاص الطائش. كانت تلبس سترة من الفرو على كتفيها وتنتعل حذاء جلدياً وتحمل في حزامها مسدساً وتصرخ دائماً ملقية الأوامر للشاب المتيم الذي كان يحب ذلك بكل تفاصيله.

كانت النتيجة المباشرة للانطباع القوي الذي خلفته هاتان المرأتان في ساشر - مازوش أن تحول إلى نموذج من الذكر الخاضع جنسياً. والأكثر أهمية أنه منهما قد استمد شخصيات بطلاته المتسلطات الشرسات اللواتي كن يعذبن الرجال المنكودين في العديد من رواياته، وأكثر من ذلك، كما أشار فلوك أليس، إن جميع النساء المبتكرات في قصص ساشر - مازوش تقريباً قد صُمِّمن بناء على هذين "النموذجين العاطفيين" المفضلين لديه ومعهن السياط والأحذية الثقيلة والفرو. وكما تبين كان هذا منطبقاً على حياته الشخصية.

وحين بلغ ساشر مازوش النضج صار مثقفاً بارزاً وتخرج من جامعة غراز وعمره تسعة عشر عاماً بشهادة دكتوراه في القانون. كان مولعاً بالمسرح (مثل دوساد). ولكنه، على خلاف الماركيز، لم يكن فاسقاً جنسياً، حيث كان لطيف الطبع، محدثاً بارعاً، ودوداً ومحباً لكل من يقابله. قبل أن يتخرج من الجامعة كان قد بدأ يكتب ويقيم صلته بمسارح الهواة. وكما هو متوقع؛ وقع من بعيد في حب ممثلة تشيكية اسمها كولار كانت متخصصة في أداء أدوار النساء المتسلطات. وكان يصفهن بأنهن "سلطانات وقيصرات... متلفعات بالفرو العظيم الموشى بالذهب". ولخص كولار بأنها امرأة تستطيع أن تحول كل من يحبها إلى عبد مذعن، إلا أنها تستطيع أيضاً أن تقتل كل من تكرهه. وأكثر من ذلك كان يشبهها بسميرأميس الأسطورية الملكة الآشورية التي كانت، كما في التراث، أول من قامت بخصي عشاقها المنبوذين.

لقد كان مولعاً بصورة هذه المرأة المتسلطة الأرستقراطية الملفعة بالفرو والحاملة للسوط، حتى أنه كان يرسم صور نساء من هذا النوع على أوراقه الشخصية. وكانت أول قصة حب حدثت له عندما كان في الخامسة والعشرين من عمره. كان اسم المرأة آنا فون كوتوفيتز، وكانت تصغره بعشر سنوات ومتزوجة زواجاً غير سعيد من طبيب ذي سمعة سيئة. كان لقاؤهما الأول في حفلة انجذبت فيها آنا بسرعة إلى الأرستقراطي الشاب الساحر الذي كان قد بدأ يشتهر ككاتب. ركزت اهتمامها عليه مصممة على أن تتقبله كما يستحق. وحين اكتشفت شذوذه الجنسي استثمرت المسألة. وسرعان ما اكتشف زوجها أنه مخدوع فصمم على أن يحول القرنين المركبين له مؤخراً إلى قرنين ذهبيين من خلال الابتزاز. إلا أنه لم يحسب حساب أمر واحد؛ قد يكون ساشر - مازوش راغباً في التحقير والمهانة والألم من أية امرأة إلا أنه لم يكن يخاف أي رجل

(لقد نال وسام الشجاعة في حرب الستة أسابيع عام 1866). وسرعان ما تحدى الدكتور فون كوتوفيتز ودعاه إلى المبارزة. ولكن الطبيب، كغيره من المبتزين، كان جباناً، فخضع متقبلاً الإهانة فوراً. وهذا ما سوى الأمور وصارت آنا العشيقة الدائمة لليوبولد. كانت تعرف كيف تتقن الجلد، إلا أنها كانت مبذرة جداً. كما أنها كانت أبعد ما تكون عن مجاراة ساشر مازوش في ذكائه. وبدأ يملها. ولاحظ بمكر طبيعتها الشهوانية العميقة وتوقها الدائم إلى الشؤون الجنسية كافة في الحياة، فبدأ يخادعها ويدفعها إلى خيانته. وكان طعم مصيدته رجلاً يدعي أنه كونت روسي. وسار كل شيء كما خطط له باستثناء أمر واحد؛ فقد تبيّن أن "الكونت" نصّاب روسي، والأسوأ من ذلك أنه نقل لآنا مرض السفلس. واستغل ليوبولد اتصالاته السياسية فاستطاع تهجير الكونت المزيف ونقل آنا إلى المستشفى. ولحسن حظه استطاع أن ينجو من العدوى وأن يتخلص من عشيقته بضربة واحدة.

خلال ذلك كانت شهرته كروائي قد بدأت بالانتشار في أوروبا كلها. هلل له النقاد واعتبروه أفضل ناثر واعد مؤثر في النثر الألماني منذ غوته. وعلى الرغم من أن كتاباته لم تكن تحتوي على وحشية دوساد إلا أنها كانت موشاة بقصص مذهلة تشتمل على التعذيب والقسوة في موضوع واحد: الأنثى المتسلطة. وكانت معظم القصص تعتمد على تقاليد السلاف الغريبة التي كان مفتوناً بحكاياتها الشعبية. هناك الكثير من المعالجة للجماعة العرقية والدينية المتعددة التي تعيش في موطنه غاليسيا. ويحكي في إحدى القصص عن مذهب غريب اسمه "آخذو الأرواح" يقترف معتنقوه جرائم طقوسية من أجل "إنقاذ أرواح" ضحاياهم. تأتي البطلة، وهي امرأة من الطائفة جميلة وغامضة، إلى جماعة وتغري شاباً بالذهاب إلى منطقة نائية من البلاد، وهناك يمسك به أبناء طائفتها ويسجنونه ويعذبونه حتى

يموت موتاً بطيئاً مصحوباً بمواعظ وأناشيد تثير القشعريرة كانت تؤدى من أجل خلاصه.

وعندما كان ليوبولد يعمل محرراً في مجلة أدبية وقع في هوى بارونة اسمها فون ريزنشتاين، وكان كما يحدث مع ساشر مازوش دائماً حدث الانجذاب من تحليقات الخيال الناجمة عن بعض القرائن. كانت البارونة كاتبة تنشر باسم مستعار لرجل. وقد اتصلت بالروائي بادئ الأمر على أمل أن يساعدها في نشر بعض قصصها. وجعلته النبرة العامة في رسائلها يعتقد أنها النوع الذي يفضله من النساء: أرستقراطية ذكية ومن النوع المتسلط. ولم يعد يستطيع انتظار الالتقاء بها. وبدا أنها هي الأخرى تواقة إلى مواجهة شخصية معه. ولكن، كما تبين فيما بعد، لأسباب مختلفة تماماً. ولخيبة ليوبولد الكبيرة تبين له أن البارونة سحاقية اقترحت عليه أن ينطلقا معاً لاصطياد النساء. وفقد الرغبة والاهتمام فوراً.

والمرأة الثانية التي استولت على قلب ساشر مازوش امرأة مغامرة اسمها فاني بستوبوغدونوف. وكانت ملائمة لكل تطلعاته باستثناء ما يتعلق بالدماء الأرستقراطية. لكن هذا لم يكن ذا أهمية بالغة لأنها كانت بارعة في لعب هذا الدور لإرضائه. وقبل أن تتحول إلى عشيقة دائمة له كان لا بد من وضع مجموعة من القواعد المقبولة من الطرفين والموافقة عليها في عقد شكلي غريب. مبدئياً وافق ساشر مازوش على أن يصبح لفاني "عبداً وأن ينصاع خلال ستة أشهر ودون أي تحفظ لكل رغباتها وأوامرها" وسمح لها بست ساعات يومياً من أجل العمل. ووافقت فاني على ألا تلمس رسائله الشخصية وما يتعلق بأعماله الأدبية. إلا أنه كان لها الحق في "معاقبة عبدها" بأية طريقة تراها ملائمة. ووعدت بأن تلبس الفرو قدر الإمكان وخاصة حين تكون في حالة "مزاج شرس". وكدلالة أخرى على التحقير كان عليها ألا تناديه باسمه الحقيقي بل باسم "غريغور" وكان

هذا هو الاسم الشائع للخدم في تلك الأيام. وكان هناك حيز في الاتفاقية يضمن الطبيعة الخاصة لعلاقتهما الشاذة. لم يكن من المسموح لفاني على الإطلاق أن تفعل ما يجعل عشيقها يبدو أمام الناس جباناً أو مجرماً. فخارج حياته الجنسية لم يكن يتساهل مع أتفه الأمور.

واستمرت العلاقة قائمة طوال فترة الاتفاق، ستة أشهر. خلال ذلك سافرا كثيراً إلى الخارج وخاصة إلى إيطاليا. وطالما أنهما على سفر كان ساشر مازوش يلبس كتابع ويحمل حقائب سيدته ويركب القطار في الدرجة الثالثة. وبما أن جزءاً من حاجته للتعذيب كان ذهنياً، إضافة إلى التعذيب والتحقير الجسديين، فقد كان يسعى إلى الأوضاع التي يمكن لعشيقته فيها أن تخونه مع آخرين. وكان لحادث من هذا النوع في إيطاليا دلائل جدية ومضحكة معاً. ناور حتى ألقى بفاني بين ذراعي ممثل إيطالي أناني أنيق ذي موهبة محدودة من الدرجة الثانية. ودب الرعب في قلب الخائن المسكين حين "ضبط متلبساً" من قبل ساشر مازوش. وكإيطالي لديه تقدير كبير للشرف توقّع أن يُقتل على الفور على يدي العاشق الثائر، ولكنه وقع في بلبلة كاملة حين تلقى، بدلاً من الموت، قبلة على يده وشكراً جزيلاً.

في هذه المرحلة كانت أشهر رواية لساشر مازوش هي "فينوس في بلتس" أو "فينوس بالفرو" وكانت البطلة، واندافون دونابيف، نموذجاً لمثله الأعلى الأنثوي. ولذلك من السهل أن نتصور نشوته حين تلقى رسالة من معجبة موقعة باسم واندا تدعي صاحبتها فيها أنها المرأة التي يحلم بها وقد تجسّدت الآن حية. وحصلت مراسلات حارة إلى أن تبيّن أن المسألة كلها مزاح غليظ تقوم به أمُّ أحد أصدقائه. وسرعان ما استبدلت واندا كاتبة الرسائل بواندا ثانية. كانت إحدى صديقات المرسلة الأولى. ودخلت في علاقة جادة مع الكاتب الشهير وكان اسمها الحقيقي أورورا

روملين. ولفترة طويلة من الزمن قامت بمكيدة طويلة الأمد كانت خلالها تقابل عاشقها مقابلات سريعة وسرية ومكتومة؛ فقد أصرت على أن تلبس قناعاً. وهذا بحد ذاته أثار ساشر مازوش الذي أحبها بجنون وصار يلاحقها بحماس لا حدود له.

ومن الواضح أنها كانت تبادله الحب بإخلاص على الرغم من غرائبه الجنسية، التي كانت تعرفها معرفة تامة. ففي عام 1872 كتب لها في إحدى رسائله ما يلي:

"ليست لدي الرغبة في أن يسيء معاملتي من يحبني كثيراً، بل أن يفعل ذلك من يحبني حباً قليلاً، وإنني أرى الغيرة مؤلمة جداً إلا أنني أحس بالنشوة حين تستطيع امرأة إثارة غيرتي وحين تخدعني وتسيء معاملتي. أن أحب امرأة يعني أن أخافها. معظم النساء يفضّلن الرجال الذين يتفوقون عليهن. أما أنا فأرغب في المرأة المتفوقة عليّ... المرأة الشرسة، التي هي فكرتي عن المرأة، هي الأداة التي أخيف بها نفسي".

وفي النهاية كشفت "واندا" عن وجهها. كانت في أواخر العشرينات من عمرها. ومن حيث حسن المظهر كانت فوق الوسط. وأخيراً تزوجا دون موافقة عائلة ساشر مازوش. كانت واندا - أوروورا من أصل سويسري ولا تمت بصلة إلى الأرستقراطية. إلا أنها كانت ذكية وقابلة للتكيف. وعلى الرغم من أنها لم تكن أنثى متسلطة فعلاً إلا أنها مثلت دورها بأقصى ما تستطيع من جهد ومارست الضرب والإذلال المطلوبين.

وخلال الفترات المختلفة من الأزمات المادية كانت مجبرة على إظهار صفات تسلطية حقيقية. وكانت كثيراً ما تندفع إلى ممارسة الضرب بغضب فعلي. وبالتدريج بدأت تيأس من محاولتها الدائمة لتحسين علاقتهما. وكثيراً ما كانت تصدم من أعماقها حين يصف لها زوجها بالتفصيل أساليب التعذيب الرهيبة في القرون الوسطى ويطلب إليها أن تجربها فيه.

وذات مرة قال لها ممازحاً إنه يأسف لاستحالة أن تقوم بقطع رأسه لأن هذا أمر يفسد عليه عمله.

وبدأت نوعية كتابات ساشر مازوش تسوء، على الرغم من أنها لم تتأثر كماً، لأنه بدأ ينتج بكثرة للتكسب. ظل نتاجه يلاقي شعبية واسعة لدى الطبقات الدنيا ولكن دون قيمة أدبية. وكان التعذيب والرعب والنساء المتسلطات هي الملامح الأساسية في تلك الروايات التي كانت تحمل أسماء مثل: "قابض الأرواح" و"العرس الدموي في كييف".

وأخيراً بدأ الزواج بالانهيار عندما بدأ الفارس (شيفالييه) - وهو اللقب الذي ورثه بعد موت أبيه - يصر على أن تمارس زوجته الزنا. ولم تكن هي من النوع التعددي بطبيعتها، لذلك فإن الفكرة نفسها قد فجرتها، وفي النهاية استسلمت بعد عدة محاولات غير موفقة. وكان "المغوي" طالب حقوق يهودياً مجرياً انجرّ إلى الورطة العائلية كما تنجر ضحية العنكبوت. رتبت حفلة عشاء شكلية صغيرة وهادئة للثلاثة. وقدم المضيف الطعام بنفسه. وبعدها غادر ووقف يتلصص من ثقب المفتاح. وبانزعاج كبير مارست السيدة ساشر مازوش خيانتها على كرسي في حجرة الجلوس فيما كان زوجها يرقب مبتهجاً من باب المطبخ.

وأخيراً انهار الزواج انهياراً كاملاً. فبعد إجبار زوجته على أن تصبح عشيقة صحفي اسمه روزنتا، أُغرم ساشر مازوش بسكرتيرة ألمانية عانس اسمها هلدا ميستر. وعلى الرغم من أنها توظفت في البداية كمترجمة إلا أنه صار واضحاً أن هناك واجبات أخرى تنتظر منها. وعزيت عمليات الجلد التي كانت تقوم بها على رب عملها في غياب زوجته لأسباب صحية وليس لأسباب جنسية. وأخيراً بدأت تمارس الجنس معه بعد أن أكد لها أن زوجته موافقة تماماً. ولم يتوقع أيّ منهما رد الفعل العنيف الذي حدث عندما اكتشفت أورورا ما يجري من وراء ظهرها. أمسكت بسوطها.

وبدلاً من أن تنهال على زوجها أغارت على هلدا المذهولة. وكاد الأمر أن ينتهي إلى قسم البوليس. ولكن حين وعد ساشر مازوش السكرتيرة المتضررة بالزواج وافقت على إبقاء الموضوع سرياً.

والتزم كلامه. فبعد الانفصال رسمياً عن زوجته باشر الرعاية المنزلية مع هلدا. وفي عام 1883 استقرا في قرية ألمانية صغيرة (لند هايم) حيث، وبعد عدد من العقبات القانونية، تزوجا رسمياً، وعاشا في حالة متواضعة قرب برج متهدم غريب الشكل اشتهر بأنه مسكون بأرواح الساحرات المعذبة التي عُذِّبت في القرون الوسطى حتى الموت. ووافق هذا ساشر مازوش. ملأ المنزل برسوم الأمازونيات الملفعات بالفرو والحاملات السياط. اللواتي ابتكرهن خياله، وزين غرفة الطعام بالسلاسل والقيود والسياط المزودة بالمسامير وأدوات التعذيب القديمة. وعلى الرغم من جو الشك الذي أحاطه به القرويون، إلا أنه أصبح أخيراً، كما قال هافلوك أليس، "شيئاً كتولستوي" بالنسبة إليهم. جذب إليه بعض الخيوط السياسية، وعمل على الحصول على شبكة مياه جديدة. شجع التعليم والعروض المسرحية والحياة الثقافية بشكل عام. وأكثر من ذلك، استطاع منع العداء القائم بين اليهود والمسيحيين من أن يتفجر في حوادث عنف. ومع الزمن أنجبت له هلدا ولدين (كان قد رزق بثلاثة من أورورا وبرابع من عشيقة سابقة) وعاش بشكل عام حياة هادئة منتجة.

وللأسف بدأت صحته تتدهور عام 1884. وفي عام 1885 خنق بوحشية إحدى قططه المدللة. وحتى ذلك الحين لم يكن قد أظهر بادرة من بوادر السادية. ولكنه بغتة اكتشف متعة ميتافزيقية غريبة في سفك دم مخلوق يحبه. وبدأت هلدا تخاف على نفسها وعلى أولادها. وفحصه طبيب نفساني أكَّد مخاوف هلدا. الرجل الذي كان ذات يوم "ودوداً وبسيطاً وعطوفاً" أصبح الآن مهووساً خطراً. في أية لحظة قد تتملكه نوبة النزوع

إلى القتل. وجاء هذا الرأي صدمة عميقة للمرأة الصبورة التي تزوجته في سنوات انحداره. وبسبب شهرته الأدبية العالمية تقرر إعلان موته للعالم في 9 آذار 1895، أما الحقيقة أنه كان قد أودع سراً مستشفى للأمراض العقلية في مانهايم حيث عاش معتزلاً حتى وفاته في 1905.

إن مأساة ليوبولد فون ساشر مازوش واضحة ولكن المفارقة أكبر بكثير. إن كل كاتب يأمل في أن يتم تذكره بعد رحليه. ولولا ذلك لما كتب. وكذلك فإن كل كاتب يأمل أن يُذكر بأجمل إنجازاته. وإن المرء ليتساءل ما الذي كان لساشر مازوش ذاته أن يقوله حول المصير النهائي لاسمه الذي قرره قبل الأوان الدكتور ريتشارد فون كرافت ايبنغ؟ فحين كان ساشر مازوش ما زال حياً قرأ كرافت ايبنغ كتاب "فينوس في بلتس"، وإضافة إلى ذلك فإن المعرفة المتبادلة جعلت كتاب "الاضطرابات العقلية الجنسية" يعرف تفاصيل دقيقة عن نزعات (الفارس) الجنسية. وكانت النتيجة أن صاغ الدكتور اصطلاح "مازوشية" كنقيض للسادية.

واستطاع الانهيار المؤسف والاحتجاز الكامل لساشر مازوش أن يكملا الحلقة المفرغة وأن يثبتا الرابطة التي لا تنفصم، والقائمة في القيد الذي يربط أدب المتعة بالألم.

التعذيب الذاتي والطوعي

مهما بدت فكرة التعذيب بغيضة على ضوء التفكير العقلاني فإن في أغلبية الناس جانباً غامضاً فيما يتعلق بهذا الأمر. إن الناس يميلون إلى أن يكونوا انتقائيين في هذه المسألة. فأعتى معارضي عقوبة الإعدام، ودعاة إصلاح قانون العقوبات، يكنون غالباً أعنف الأفكار الانتقامية تجاه بعض المجرمين أمثال من يقومون بالاغتصاب أو المغررين بالأطفال. ويغرق المواطنون المسالمون الخاضعون للقانون بشكل عادي في تصورات خاصة حول تعذيب عصابة من راكبي الموتوسيكل ذوي السترات الجلدية السوداء وتقطيعهم وتشويههم للخراب الذي أحدثوه. والحقيقة أن الشاعر غوته، الذي هو بحق من ألطف الرجال وأنبل العقول، أشار ذات مرة: "ليست هناك جريمة أشعر أنني عاجز عنها".

وباختصار يستطيع حتى أبعد الناس احتمالاً، في حالات محددة، أن يفهموا الضغط الانفعالي الذي يقود إلى ممارسة التعذيب، وما لا يفهمه الكثيرون هو الدافع الغريب للممارسة التعذيب الذاتي.

وبما أن العامل الأكثر شيوعاً في التعذيب الطوعي هو عامل جنسي فستتم مناقشته في الفصل التالي. ويؤكد المنظرون، طبعاً، أن كل تعذيب من هذا النوع مرتبط أساساً بالجنس، إلا أن صحة هذا الادعاء ما تزال

موضوع جدل سيكولوجي دقيق. وما سنقدمه هنا هو، إلى حد بعيد، نوع من الاستطراد دون تقديم إجابة شاملة.

هناك، أساساً، ثلاثة أنواع رئيسة من التعذيب الذاتي أو الطوعي: الديني، الطقوسي، التجميلي والاقتصادي. والأول هو الأكثر تعقيداً وانتشاراً، وهو قديم وشائع قدم الإنسان وشيوعه. والثاني أكثر انتشاراً مما نتصوره عادة. أما الثالث فآخذ بالاختفاء لحسن الحظ.

كان الدافع الاقتصادي للتعذيب دائماً ملفعاً بالمآسي، لأنه كان يؤدي دائماً إلى تشوه دائم، وربما أكثر هذه التشويهات انتشاراً هو الخصي، وإلى أن منعه البابا بليو الثالث عشر كان هناك أولاد يتم خصيهم في إيطاليا لكي يتدربوا كمنشدين "سوبرانو" ولكي يحافظوا على أصواتهم الحادة. والذين كانت تُجرى لهم هذه العملية يتحدرون عادة من أسر فقيرة يتم التعويض عليها بالمال لقاء خسارة الولد المنكود. وكان للمنطق الكامن وراء ذلك جانبان؛ الأسرة تتلقى إعانة مالية في المستقبل من ذلك الذي سيكون منشداً بعد أن يثبت في هذا الاتجاه، وحتى لو استعاد المضحي ذكوريته فإنه لن ينضج أبداً إلى الحد الذي يجني فيه أكثر منافع الرجولة شمولاً، وخصيٌّ مرفه أفضل من فحل ميت.

وهناك حالة مشابهة إلا أنها أكثر قتامة خارج العالم الغربي. فهناك للخصيان تقدير كبير كحرس للحريم. ويقال إنها ما زالت موجودة إلى اليوم. لكن مقتني الحريم المعاصرين لم يعودوا مهتمين بإفشاء الأسرار كما كان أسلافهم. خارج أوروبا حين يقدر لولد أن يصبح خصياً فإنه نادراً ما يرى أسرته بعد ذلك، وأكثر من ذلك أن نسبة نجاته من العملية لا تصل إلى 25%. وفي إيطاليا كان الإخصاء يتم على أيدي جراحين يبذلون قصارى جهودهم للحفاظ على حياة المرضى. أما في أفريقيا وآسيا والشرق الأوسط فهي مسألة مختلفة. كان من السهل الحصول على

العبيد. فإذا ما ماتوا تحت السكين يمكن تنخيس غيرهم. وإضافة إلى ذلك فإن من ينجون من العملية سيجلبون أسعاراً أعلى... وهناك حالات موثقة في الصين عن فلاحين شباب أنهكهم الفقر يقومون بإخصاء أنفسهم لكي يباعوا كخصيان لصالح أسرهم.

أما التعذيب الذاتي لأغراض تجميلية فقد كان موجوداً في العديد من المجتمعات وليس، كما قد يتصور المرء، مقتصراً على المجتمعات البدائية. فكل من أجرى عملية وشم يقع ضمن هذه المجموعة. إلا أن معظم الموشومين لن يعترفوا بأن العملية مؤلمة. وتشير الدراسات إلى أنهم على الأغلب أفراد غير واثقين من فحولتهم. وطالما أن الوشم يعتبر، خطأً، رمزاً لـ "الذكر الفحل"، فإنه كثيراً ما يكون مطلوباً بإلحاح من قبل أولئك الذين يودون إقناع العالم، وإقناع أنفسهم، أنهم مكتملو الرجولة فعلاً. ومن الطبيعي أن يكون الوشم على الذراع أقل إيلاماً عند نقشه من ذلك الذي ينقش على مناطق أكثر حساسية. وإنه لمن الصعب، وغير المريح، تصور الألم الناجم عن نقش وشم ذبابة على القضيب. غير أن وشماً كهذا ليس عديم الانتشار بين من يسمون أنفسهم متحضرين.

نقش الوشم، بين البدائيين، أحد أقل وسائل التجميل الذاتي إيلاماً. ولا شك في أن التدريب على صنع ندوب تجميلية، من أكثر العادات إزعاجاً. فعلى أولئك الذين يخضعون لهذا النوع من التشويه الجلدي أن يسمحوا بأن يتم تجريحهم في أي جزء يريدون تزيينه من أجسادهم. وفي الأماكن التي لم تعرف بها الرعاية الصحية بعد فإن أمراضاً سارية مميتة تنتشر. ولكن جيلاً بعد جيل من الشعوب البدائية تخضع، حتى اليوم، وبفرح لهذه الممارسات القديمة والمؤلمة.

كثيرون من الأفارقة ومن هنود أمريكا الجنوبيين ومن الآسيويين

يشوهون الآذان أو الشفة أو الأنف بالثقب أو بالشرم أو بالشد للتطويل أو بإدخال أجسام غريبة فيها.

وذات مرة قام مواطنو ألوتيان وكوريل بثقب الخدود لإدخال شعرات الفقمة الطويلة فيها. ويقوم الغارانيز في جنوب أمريكا بعملية مشابهة مستخدمين الريش الملون بدلاً من الشعر. وتعود التتر القدماء على حرق لحم الأطفال لمنع الشعر من النمو في بعض مناطق الوجه. وفي أماكن أخرى من آسيا كان يتم تشويه الجمجمة للتلاؤم مع الأنماط الشائعة من الجمال. ويمارس هنود هايد أو تشينوك عمليات تشويه الجمجمة حتى اليوم مثلما تفعل ذلك بعض القبائل في أمريكا الجنوبية وماليزيا وجزر سولومون ونيوهبرزذ.

ومن أكثر التشويهات التجميلية إيلاماً وشيوعاً تلك التي تجري للأسنان. تقول الموسوعة البريطانية: "هناك في أفريقيا كل نوع من أنواع التشويهات المتصلة بالأسنان تقريباً". ويشتمل هذا على الكسر والترصيع والبرد وإزالة التاج والقلع المباشر. وتبرد الأسنان حتى تصبح حادة ومؤنفة عند شعوب عديدة. ويعتبرها بعضهم، في آسيا، أسناناً جذابة. بينما آخرون، مثل دياكس، القبيلة التي تأكل لحوم البشر، كانوا يفعلون ذلك لكي يبدوا مخيفين. ويكتفي بعض الأستراليين الأصلاء بخلع الأسنان بضربها بالحجارة أو بإزميل حجري. وكان "مواس" فيتنام متعودين على كسر قاطعتين من القواطع العليا بحجر صواني، إلا أن ذلك كان يمارس كطقس من طقوس البلوغ وكتعويذة للحماية من المرض أكثر مما كان وسيلة تجميلية.

إن قائمة هذه الممارسات لا تنتهي. وها هي بعض الأمثلة الشائعة: إدخال أجسام غريبة في العيون (العدسات اللاصقة)، سمط الشعر بآكلات كيماوية أو بالملاقط، تغطية الجسد بمهدئات للحركة الدموية، الثياب

الضاغطة على المعدة والتي يمكن لها، كما يقول الأطباء، أن تتسبب في تشوهات جسدية شنيعة، بتعريضها الجلد كله لحروق فوق بنفسجية قاسية متناوبة، ثم ما يشبه الاحتراق والاختناق في حجرات البخار (الشبيهة بتلك التي كان الرومانيون القدماء يستخدمونها كإحدى وسائل الإعدام). أليست هذه الطقوس الحديثة الشائعة "المتحضرة" نوعاً من التعذيب المعاصر للنفس؟

وللتعذيب الطوعي ذي الطبيعة الدينية أو الطقوسية أهمية أكبر وإشراق أعمق للشمولية الإنسانية. وهو سلسلة تجريبية طويلة تبدأ من الصيام البسيط لفترات محددة إلى عمليات الانتحار العنيفة التي كانت شائعة لدى أرامل الهندوس، وبعدهن لدى البوذيين الفيتناميين.

من الصعب اختيار نقطة بدء عند معالجة موضوع واسع ليس له بدء ولا انتهاء. وربما كان أكثر أشكال التعذيب الطقوسية انتشاراً والمفروضة على ضحايا راغبة فيها هي طقس القبول أو طقس البلوغ. وعاداته متعددة تعدد شعوب الأرض. وتشتمل على تشويهات من الأنواع كافة لأجزاء الجسم كافة. ومهما بدا الأمر غريباً لغير المتدينين فإن طرقاً عديدة متماثلة تتبع لدى قبائل على الطرفين المتقابلين والمتناقضين من العالم. وهي قبائل تجهل كل منها وجود الأخرى جهلاً تاماً. وطقوس القبول أو البلوغ مشابهة، أساساً، لاحتفالات تثبيت العماد المسيحية أو احتفالات (بارميتزفا) اليهودية. إنها الإجراءات التي تتيح للشبان أن يصبحوا أعضاء كاملي العضوية في القبيلة أو الطائفة أو الجماعة مع حقوق وامتيازات البلوغ كافة.

وتمارس شعوب عديدة طقوس ما قبل البلوغ التي يعتبر ختان الأطفال، ذكوراً وإناثاً، أكثرها انتشاراً، والآلام الجسدية المصاحبة لذلك رهيبة فعلاً خاصة حين تطبق على أطفال كبار. وختان الذكور بسيط نسبياً ولا يشتمل

إلا على قطع القلفة أو الجلدة الأمامية. أما على الإناث فتتنوع العملية. قد تشمل أحياناً على إزالة جزء من البظر، وفي حالات أخرى استئصال جزء من الشفرين الكبيرين.

ولقد افترض أن إزالة أي جزء من الأجزاء الخارجية من الأعضاء التناسلية الأنثوية هو تأكيد على الاختلافات الجسدية بين الذكر والأنثى. ويقال لنا إن ختان الأنثى يصبح نوعاً من الخصي الرمزي الذي يتم "من أجل وضع الأنثى في مكانها المحدد لها" فقط.

ويمارس تشويه مشابه آخر على أجزاء أخرى من أجساد صبيان غالاس في أفريقيا. إن لديهم خوفاً كبيراً من تخنث الرجال، الأمر الذي يعتقدون أنه يقلل من كفاءتهم كصيادين. ولضمان الاختلاف الجسدي يقطعون أثداء الصبيان منذ الصغر. وتقطع قبائل صيد أفريقية أخرى خصية واحدة منذ أن يبلغ الصبي الثامنة أو التاسعة اعتقاداً منهم أن هذا يجعله سريعاً ورشيقاً.

ومن أرهب طقوس القبول ما يجري لدى مواطني أستراليا الأصليين، تبدو هذه الشعوب، كغيرها من مظاهر الحياة الأسترالية، وكأنها قد ظلت على حالها منذ ما قبل التاريخ. وحتى اليوم تعتبر أكثر القبائل بدائية على وجه الأرض على الرغم من محاولات الحكومة الأسترالية "لتمدينهم". وأسوأ أنواع هذه الطقوس التعذيبية نوع من الانتحار العرقي إضافة إلى كونه يسبب آلاماً لا تصدق. من حيث الشكل يمدد شاب على الأرض ويثبت فيما يجري سلخ إحليله بسكين صوانية. فإذا نجا من هذه العملية لا يعود قادراً على تحبيل امرأة في حياته. وتجري عملية مشابهة لدى قبيلة أخرى من الأستراليين الأصليين كوسيلة لتحديد النسل. هؤلاء أناس متخلفون إلى درجة أنهم مهددون دوماً بالمجاعات. ومشكلة التفاقم السكاني بالنسبة إليهم هي مشكلة خطرة أكثر مما هي كذلك في أي مكان آخر، ولهذا، فبعد أن يصبح ابن القبيلة البالغ أباً لولدين، يتعرض لهذا التشويه

الإحليلي التعذيبي. وفي هذه الحالة يكون مكان الجرح قصيراً جداً ولا يبعد أكثر من إنش واحد عن الصفن. وحين يحدث اتصال جنسي، بعد الشفاء من العملية، لا يسمح للسائل المنوي أن يسير في مجراه الطبيعي بل ينسكب خارجاً بدلاً من ذلك.

وتمارس قبيلة أسترالية أخرى، هي قبيلة أرونتا، طقوس قبولها شبانها بإجبارهم على التمدد عراة وسط نار مدخنة وعلى أجسادهم أغصان خضراء. ومهما بلغ تأذيهم من الدخان والنار لا يسمح لهم بالنهوض ما لم يُمنحوا إذناً ممن هم أكبر سناً. ويثقب أبناء أورابونا في أواسط أستراليا، وهي قبيلة تقدس الأفاعي، أذرعهم بعظام مدببة معتقدين بأن هذا سيجعل الثعابين تولد.

وأحد أقسى أنواع التعذيب الذاتي في أستراليا غير مرتبط بطقوس القبول، بل بالحداد. فعند فقدان قريب يقوم أبناء وارامونغا في الشمال بتجريح أنفسهم جروحاً عميقة استعراضية في الأفخاذ بسكاكين حجرية ثم يربطون جانبي الجرح ربطاً محكماً لجعله فاغراً بشكل شنيع. وفي أفريقيا توجد قبائل تمارس التشويهات المرتبطة بالحداد من نوع قطع الأصابع.

من الصعب تصور كمية الآلام التي يفرضها البشر على أنفسهم باسم الإيمان والمعتقد. هناك مذهب في الهند تمارس فيه طقوس اسمها "تشوروك بوجا" التي يمكن ترجمتها بشكل تقريبي "أرجحة الخطاف"، حيث يسمح المؤمنون لخطافات معلقة بحبل أن تنغرز في أجسادهم عند الظهر تحت لوح الكتف تماماً. ويظلون معلقين على هذه الحالة. ويتم رفعهم بواسطة بكرات فيما يقوم أبناء طائفتهم بأرجحتهم.

وتقدم الأبحاث الأنثربولوجية في أوائل القرن وصفاً لطقوس الإيذاء الذاتي التي يمارسها الحجاج الفرس في أثناء أحد الاحتفالات الدينية المهمة، حيث تقوم مواكب من المؤمنين المقيدين بالسلاسل، وقد

علقوا عليهم حدوات وأسمالاً وأغطية، بإطلاق صرخات مسعورة وهم يجرحون ويجلدون أنفسهم إلى أن ينهاروا عياء. ويصف الأنثروبولوجي الفرنسي رينيه برونل في دراسته عن العيسوية، وهو مذهب إسلامي في شمال أفريقيا، إحدى رقصاتهم على الشكل التالي:

"يغرزون الرماح المدببة في أذرعهم وأكفهم ووجناتهم ويجرحون حلوقهم أو يبقرون بطونهم بسهام مؤنفة".

ويبرز بين أنواع التعذيب الطقسي الغريب الشنيع ذلك الختان الرهيب الذي كان يحدث عند قبيلة تسكن قرب جيزان في الجزيرة العربية. فهنا لا يختتن الرجال إلا بعد مرور يوم على الزفاف. وتتم العملية أمام الملأ. وأكثر المشاهدين اهتماماً هي العروس. وبدلاً من الاكتفاء بقطع القلفة يتم سلخ جلد القضيب كله، ويمنع العريس المنكود، طبقاً للعادة، أن يطلق تنهيدة أو أن يئن أو حتى أن يحرك عضلة واحدة في وجهه، وإذا ما أفلتت منه أدنى إشارة للانزعاج يعاب في عيون أبناء القبيلة وتهجره عروسه، وإذا استطاع أن يسيطر على نفسه وأن يعيش بعدها (نسبة الموت في هذه العملية عالية) فقد نستطيع التصور بأنه سيعيش سعيداً إلى الأبد.

وعلينا، هنا، أن نتوقف للإشارة إلى هذه الممارسات الدموية والمبالغة لم تكن مقصورة على المتوحشين والأقليات المعزولة التي تجاوزها تيار التقدم. فالزهاد المسيحيون الأوائل الذين كانوا ينظرون إلى الجنس بامتعاض كانوا كثيراً ما يخصون أنفسهم. وكانت جهودهم هذه تلاقي الاستحسان. والأحفاد الروحيون لهؤلاء الأتقياء الأوائل ما زالوا يحملون التراث ذاته. فقد ورد في "قاموس المصطلحات الطبية" وصف لحالة كاهن باريسي شاب خصى نفسه بمقص، ونجا بصعوبة من النزف حتى الموت. كما جن أحد بحارة الأسطول في الولايات المتحدة وهو على سفينة عام 1871، وخلال نوبة من سعاره الديني قام بالعمل ذاته.

وقد لا نجد قصة أغرب من قصة سكوبتسي (المأخوذة من الكلمة الروسية التي تعني الخصي) وسكوبتسي مذهب روسي متعصب كانت تعاليمه حول الطهارة تقتضي الامتناع الكامل عن الجنس. ولم تكتشفهم السلطات الروسية إلا في القرن الثامن عشر، ولاعتقاد أتباع مذهب سكوبتسي أن آدم وحواء قد خلقا في الأصل دون غريزة جنسية، فإنهم يعتبرون الأعضاء التناسلية وأثداء النساء معوقات زائدة لا مهمة لها إلا جر الإنسانية، سهلة الانقياد، إلى الخطيئة. ولذا فإن التابع يمارس الخصي الذاتي وانتزاع الثدي (للأنثى) لكي يعيد الجسد إلى حالة البراءة القديمة وهي حالته الإلهية الأصلية. ويحكى أنهم في سياق بعض اجتماعاتهم الدينية يوصلون أنفسهم إلى حالة من الهستيريا المسعورة يقوم كل منها خلالها بتجريح الآخر بشفرات الحلاقة والسكاكين والسيوف والقضبان الحديدية المحماة إلى أن يصبحوا في حالة لا يستطيعون معها الاستمرار.

وكانوا يتمتعون عبر السنين بفترات متقطعة من الحرية النسبية ثم يتعرضون للقمع العنيف. ومع القرن العشرين بدأوا يسمحون لأتباعهم بإنجاب طفل أو طفلين قبل التعرض للخصي لكي يقوضوا الأنظمة من داخلها. وعلى الرغم من هذا السلوك الذي يبدو تدميرياً فقد استطاع اتباع سكوبتسي أن ينتعشوا سرياً، لا بل استطاعوا أن ينتشروا إلى أجزاء أخرى في أمريكا وأوروبا.

لكن أغرب جانب في قصتهم سيظل في حاجة إلى أن يثبته التاريخ. يقول طبيب أمريكي ناجح، يدعي أن لديه القصة الحقيقية، أن سكوبتسي يُعتبر أحد أقوى التجمعات المسيحية على الرغم من كونه سرياً. وبناء على كلامه فقد أيد هؤلاء الحركة الشيوعية أكثر مما حاربوها عندما بدأت تكتسب قوتها في روسيا، ونتيجة لذلك فقد تسربوا إلى فروع الحزب والحكومة السوفييتية كافة، بما في ذلك المكتب السياسي. ويؤكد الدكتور

أن رئيس الوزراء السابق، جورجي مالنكوف، عضو في هذه الطائفة، وأنه قد خصي عندما انضم إليها وهو شاب. وجاءت قصة أخرى في هذا المنحى في (ديلي نيوز) في نيويورك عدد 20 آب 1953 في زاوية للكاتب الراحل لي مورتيمر. ولقد ذكر (سكوبتسي) بالاسم وقال إن الخصيان السوفييت، أتباع هذا المذهب، كانوا لسنوات (يحتكرون وظائف الدولة في الأورال وآسيا الوسطى).

والأكثر غرابة، إلا أنه يأتي مؤيداً لهذه الفرضية، ما جاء في تأكيدات ت.ل. كمنغر، المراسل السابق في الاتحاد السوفييتي. فحسب رواية كمنغر يقف مالنكوف وراء عمليات التطهير الحزبية الدموية في الثلاثينيات، والتي تعرض فيها مليون ونصف المليون من أعضاء الحزب للتعذيب والقتل والنفي. ولكن مالنكوف هو، بتعبير كمنغز (المحقق السري لستالين) فقد تجاوز سيده أخيراً في أنه (داهية بطريقة لا يمكن أن يكونها إلا خصي). وأخيراً يتوج كمنغز قصته المذهلة بقوله:

(كان الهدف الجريء لمنالنكوف أن يستولي السكوبتسي على السلطة بعد دفن ستالين بهدوء إثر تسميمه سراً. ونجحت الخطة؛ وحين بدأ مالنكوف رئاسته أعطي لأبناء طائفته السكوبتسي أهم وظائف الكرملين).

إذا كان هذا كله صحيحاً فستظل عدة أسئلة دون جواب، ما الذي حدث فأدى إلى سقوط الخصيان الشيوعيين؟ فمن المؤكد أن خروتشوف وخلفاءه لم يكونوا خصياناً. ولكن بدلاً من الاستطراد إلى السياسة دعنا نقلب صفحات التاريخ من جديد لكي نلقي نظرة عاجلة على الحدث الشمولي الذي يؤسس لأحد أغرب مظاهر تفشي التعذيب الذاتي، وهو ظهور وغياب المتسوطين (الذين يضربون أنفسهم بالسياط) الدينيين.

لم يكن مفهوم التسوط الديني جديداً حين وصل إلى تلك المستويات

الشائعة في القرن الرابع عشر. تقول الموسوعة البريطانية إن (التسوط الطوعي كنوع من الورع الخالص موجود في الديانات كلها تقريباً). ويورد هيرودوتس أن المصريين كانوا يمارسونه على شرف الربة إيزيس. ويحكي لنا بلوتارك أن الإسبارطيين كانوا يجلدون أطفالهم أمام مذبح ارتميس أوريتا. ثم يصف ما يصفه كتاب آخرون من عمليات التسوط التي كان يمارسها كهنة سيبيل. وتشير لوحات بومباي الجدارية إلى تسوط الرومانيين على شرف ديونيسيوس.

وكان الزهاد المسيحيون الأوائل يمارسون التسوط بحماس بالغ. ولم تكن تلك مسألة منقولة عن الوثنية، بل هي مجرد وسيلة للتمرد على نزوات الجسد الطبيعية. والعذابات التي كان هؤلاء المتحمسون الأوائل يوقعونها على أنفسهم لم تكن معنية فقط بالجانب الجنسي من طبيعة الإنسان بل بحواسه كلها عموماً. لقد أقنعوا أنفسهم أنه من أجل تحقيق الصفاء الكامل للروح عليهم أن يجتنبوا المتع الحسية كافة، وأن يعاقبوا الجسد بقسوة على متطلباته المادية المحددة.

وهكذا نقرأ عن نساك من أمثال باكوميوس الذي كان يرفض أن ينام أكثر من ساعة واحدة كل ليلة، ولم يكن يأكل إلا كسرات صغيرة من الخبز والقليل من الماء والرماد. ونجد قصصاً لا تحصى عن زهاد بأثواب من الشعر وأحزمة من الحديد يقضون حياتهم كلها بحثاً عن الخلاص ويخضعون أنفسهم لكل عذاب يخطر في البال. فالقديس يوفراسيا لم يستحم في حياته كلها ولم يغير ملابسه. وآخرون من أمثال القديس فرانسيس لم يأكلوا في حياتهم ما يشبعهم، وكثيراً ما كانوا يخضعون أجسادهم لعمليات إذلال قاسية. ولقد كان القديس دومنيك أحد أبطال معاقبة الذات، وهو مؤسس النهج المعروف باسمه، ولقد قيل إنه ذات مرة، وخلال ستة أيام، جلد نفسه ثلاثة آلاف جلدة.

وفي القرن الحادي عشر، قبل دومنيك بمئة عام، بدأ التسوط يكتسب شعبيته في الأوساط الكنسية كأسلوب فعّال للتكفير، وكان الفرانسيسكانيون يفضلونه بشكل خاص. وقبل أن يمر وقت طويل كانت جماعات أخوة التسوط قد بدأت تنتشر في أوروبا كلها. وعند منتصف القرن الثالث عشر انتشرت حركة التسوط في شمال إيطاليا بأسره وفي أنحاء ألمانيا وبوهيميا كافة. وادعى قادة هذه الحركات أنهم قد تلقَّوا تعليمات سماوية. وكانوا يصرون على أن البشر يجب أن يعاقبوا على شرورهم. وادعوا أنه ما لم يتم إجراء ما فإن كارثة في صيغة انتقام سماوي تحوم في الأفق. وسرعات ما بدأت المواكب الطويلة تعبر القرى والمدن بجلالها وتملأ طرقات الريف الترابية. وكان المشاركون في هذه المواكب، بقيادة رهبان جوالين، يجتذبون إليهم أتباعاً جدداً يندفعون للالتحاق بهم من الطبقات والفئات كافة. وكانوا يسيرون في أرتال ثنائية طويلة ويحملون الرايات والصلبان وهم يغنون ويجلدون وينزفون ويصلون.

في 1346 و1347 حلت الكارثة التي كان المنذرون يتوعدون بها، في صقلية وإيطاليا مثل إعصار من الدم: حل الطاعون الأسود. وراح، مثل الوسخ الوبائي، يزحف على وجه أوروبا دون أن يخلف وراءه إلا النتن والجنون والموت. وهيمن الذعر واليأس على قلوب الناس كلهم وهم يتساقطون بالمئات ليتعفنوا في الشوارع العفنة والقرى النائية. وتضخمت الجرذان فيما كان الرجال الوسيمون والنساء الجميلات يرتجفون ويتساقطون جثثاً مغطاة بالبثور وراشحة بالقيح.

قرى بأكملها أفرغت من سكانها. وهربت أعداد غفيرة لتواجه المرض والموت في هروبها. وبدأ المجتمع ينهار وانعدم النظام والقانون وصار الذعر هو النمط السائد في الحياة. وراح جامعو الجثث الأجلاف وحفارو القبور يجرون الأحياء من أسرة المرضى وهم يحتجون احتجاجات

واهنة فيما يتم إلقاؤهم في عربات محملة بالأجساد المتفسخة. وولد الخوف سعاراً في نفوس الرجال والنساء والأطفال فارتدوا إلى حالة من الوحشية وراح كل منهم يهاجم الآخر دون تمييز. ووسط حوادث السلب والاغتصاب والقتل لجأ بعضهم حتى إلى أكل لحم البشر. ووسط جو من الفوضى لم يسبق له مثيل نهض المتسوطون كالعنقاء من الرماد.

في عام 1348 الذي ظهرت فيه المواكب بدا أنها تمتد حتى الأفق. كانوا يتلفعون بمعاطفهم السوداء وعلى صدورهم وظهورهم صلبان وعلى رؤوسهم قلنسوات سوداء وقبعات شهباء متدلية. وكانت أقدامهم الحافية تترك وراءها آثاراً دامية. وكان كل منهم يمسك بيده سوطاً جلدياً ذا ثلاثة أطراف. في الليل كانوا يضيئون طرقهم المعتمة بمشاعل أو بشموع لولبية كبيرة. أما الرايات التي كانوا يحملونها فكانت قطعاً قماشية مترفة الزركشة وقطعاً من المخمل مزينة بالصلبان والصور التكفيرية.

قبل أن يدخلوا أية قرية أو مدينة كان ترتيل الأناشيد يسبقهم إليها مع رنين الأجراس وتجمعات صغيرة من أناس خائفين وقانطين. وفي أغلب الأحيان حين كان عامة الناس يرون المتسوطين كانوا يبكون وينوحون بأصوات عالية وبنبرة جماعية من العاطفة الحبيسة التي وجدت منفرجاً.

وفيما كان التائبون المشاة يعبرون المدينة، كان السكان الناحبون والعصابيون يتبعونهم حتى يصلوا إلى الكنيسة. وبجلال كان المتسوطون يطوقون باحة الكنيسة وهم ينشدون ويسوطون أنفسهم بين الأكتاف حتى يسيل الدم إلى كواحلهم. ثم يدخلون الكنيسة نفسها ويغلقون أبوابها ثم يتعرون حتى يظلوا في المآزر التي تستر عوراتهم. ويتابعون أناشيدهم لينتهوا منها بقولهم:

المسيح انتعش بالقروح
ولذا فنحن نسقط على الصليب

وبعدها ينبطحون على الأرض بأذرع مفتوحة تعطيهم أشكال الصلبان مغيرين وضعياتهم قليلاً حسب حالة معينة لكي يدللوا على أخطائهم الشخصية السابقة. وكان الكاذبون في قسمهم يتمددون على جنوبهم وهم يمدون ثلاثة أصابع فوق رؤوسهم. أما الزناة فيتمددون على بطونهم والقتلة على ظهورهم. ويظلون في أوضاعهم حتى يرددوا خمسة أدعية. وحين ينتهون يأتي رجلان مختاران مسبقاً، يسميان السيدين، ليبدأ المرحلة الثانية من التكفير. ويمر السيدان بين الجماعة وهما يجلدان ويصلبان. ثم ينهض المتسوطون الساجدون ويتبعون سيديهما وهم يدوسون أول أخوين ليبدأوا بجلد الثالث. ويكرران عمل السيدين وصلاتهما. وأخيراً يقف المتسوطون على أقدامهم ثم يعودون للتمدد على شكل الصليب وهم يجلدون أنفسهم. ويكون نشيدهم النهائي:

اجلد الآن جلداً مؤلماً
لتعبد الله
تخلَّ عن كل كبرياء الآن، من أجل الله
وهو سيرينا رحمته.

وفي النهاية ينهضون ويشكلون رتلاً ثنائياً ويبدؤون بجلد أنفسهم وهم يسيرون مبتعدين في الظلام.

وكانت السياط التي يستخدمونها قاسية بشكل لا يوصف. ومن أجل الأوصاف المعاصرة نقدم صورة عصا طولها تسعة إنشات ولها ثلاثة فروع جلدية يبلغ كل منها ثلاثة أضعاف القبضة. ولكل فرع ثلاث عقد كبيرة وفي كل عقدة مسامير حديدية لها شكل الإبر تبرز من العقدة (بمقدار طول حبة القمح). وكانت العقوبات العنيفة التي تطبق بهذه الأدوات الرهيبة ذات نتائج مروعة. فأجساد المتسوطين كانت دائماً متورمة ومزرقة ومغطاة بالجراح الفاغرة والدماء تسيل منها سوداء متخثرة. يقول أحد الرواة، وهو

هينريش هيروفورد: «كثيراً ما كانت النتوءات المسمارية تنغرز في لحومهم بعمق بحيث أنها لا يمكن أن تنتزع إلا بمفتاح ثان».

وحينما لا تتوفر كنيسة كانوا يؤدون طقوسهم الدموية من التعذيب الذاتي في العراء. وفي هذه الحالات ينطرحون على الأرض دون الاهتمام بما فيها. على الأشواك والحجارة المدببة وأكوام الأوساخ. لم يكن لأي شيء أهمية، بل كلما ازداد العناء الذي يتحملونه ازداد رضاهم.

وتتفق المصادر التاريخية كلها على أن جزءاً مهماً من الاحتفال يحتوي على ما يسمى موعظة التسوط، ويزعمون أنها رسالة كتبها يسوع المسيح نفسه على لوح رخامي، ويقال إنه قذف بها من السماء على مذبح القديس بطرس في القدس. والحقيقة أنها قد كتبت في القرن الثالث عشر ومن المؤكد أنه ليس بأسلوب المسيح لاحتوائه على هجاءات مثل: "فكرت في إزالتكم عن وجه الأرض أيها التعساء المنكودون... يا جنس الأفاعي يا من ولدتم الجيل الكافر، ارتعدوا خوفاً".

وتمضي الرسالة إلى التهديد بأنه إن لم يصلح البشر أعمالهم فإن الأرض سترى أهوالاً فوق التصور. ستظهر وحوش مفترسة وأغوال مخيفة تقوم بالتهام البشر. وستسود الشمس ويخيم معها ليل حالك رهيب. ثم تحذر بأنه (سيكون هناك عويل، وسأخنق أرواح بالدخان وأرسل عليكم شعوباً مرعبة وأدمر أرزاقكم). وتبدو هذه الرسالة بشكل ما وكأنها نبوءة من نبوءات القرن العشرين.

وكانت الموعظة تقدم بدائل حقيقية عن ذلك إذا ما بدل البشر سلوكهم. وقد اجتذبت الحركة أتباعاً كثيرين حتى وصل تعدادهم إلى عشرات الآلاف. ويفيد أحد المصادر الفرنسية أنه في عام 1349 كان من الممكن رؤية ثمانين ألف متسوط في مسيرة هاينولت وبرابانت. ومن أهم فضائل حركة التسوط هذه، كما يقول بعض المراقبين، أنها قضت على

(الرغبات الجسدية) الشريرة المتعارضة مع ما يسمى الحب النقي. ويقيم كاتب إسباني تشابهاً غريباً بين البشر والكستناء. يقول إن الكستناء إذا ما ألقيت على الجمر لتشوى فإنها تنفجر وتقفز مبتعدة عن النار. ويقول إن الطريقة الوحيدة (لجعلها أكثر مطواعية) هي في أن نعضها أو نخزها أو نجرحها، والجسم البشري مثل حبة الكستناء، لديه ميل للقفز والابتعاد عن (نار الحب السماوي) ما لم يعض أو يجرح أو يفتح.

كان المتسوطون، بشكل عام، يلقون الترحاب الحار حيثما ذهبوا. وكانوا مؤديين يدفعون لقاء ما يأخذونه ويرفضون المساعدة من أي كان. وفي أماكن عديدة كانوا يحثون الناس على إحراق اليهود. ومن الطبيعي أن تؤدي اقتراحات كهذه إلى زيادة شعبيتهم، فلقد كانت تلقى التقدير الكبير. وكثيراً ما كانت تنفذ دون مضيعة للوقت. وكانت أعمال كهذه تؤدي غرضاً مزدوجاً وخاصة في ألمانيا حيث كان اليهود يشكلون طبقة غير محبوبة من الرأسماليين. غير أن المتسوطين تطرفوا كثيراً حين بدأوا يبدون تعليقات غير مستحبة ضد نظام الكنيسة. فلقد نادوا بانتخاب بابا فقير وطالبوا نيافة كليمنت السادس بأن يجلد نفسه. فكان رده الأولي أن أصدر بياناً بابوياً ضدهم في 20 تشرين الأول 1349 قال فيه: "إن المتسوطين تحت ستار التقوى قد سفكوا دماء اليهود التي تحافظ عليها الرحمة المسيحية وتحميها، كما سفكوا في أحيان كثيرة دماء مسيحيين".

ويمضي البابا إلى اتهامهم بالاستيلاء على أملاك الكنيسة وبالتطاول على نفوذها. وأمرت الكهنوت والعامة بمقاطعة هذه الطائفة وبعدم التعامل معها بعد الآن. ولكن المتسوطين كانوا يتمتعون بشعبية واسعة جعلت كثيراً من الأساقفة يخشون وقوع تمردات عليهم إذا ما أعلنوا هذا الأمر أو غيره مما شابهه. ولهذا فقد أوكلوا الأمر إلى السلطات الدنيوية.

إن كليمنت لم يحرم جلد النفس ذاته، بل حدده بممارسات خاصة

في البيت وتحت إشراف الكنيسة. ولكن في أثناء "السنة المقدسة" 1350، أُمِرَ المتعاطفون مع المتسوطين بتقديم كفارة علنية في روما بإخضاعهم أنفسهم للضرب على أيدي كهنة اعترافهم. وقد أدى هذا الإجراء الحازم من قبل البابا إلى إنهاء هذا النوع من الهوس الديني الشعبي.

صحيح أنه في سنوات الطاعون الأخيرة في 1384 و1399 برزت حركات تسوط أخرى، إلا أنها لم تستطع أن تجمع أتباعاً كما فعلت سابقتها. غير أنه كان لحركة "بيانشي" أو "البيض" جاذبية شديدة طوال فترة بقائها. وقد جاءت تسميتها من ارتداء عناصرها للأرواب البيضاء. وجاءت شعبيتها من المعجزات المزعومة التي حققوها كإقامة الموتى وتحويل الماء إلى دم. وهناك إنجاز بارع واحد قام به "البيض" بحيث يبدو إعجازياً فعلاً. ويجب تذكر أنهم كانوا حركة إيطالية بالأصل. وكانت إيطاليا في ذلك الحين تضم دوقيات عديدة ومدناً - دولاً وتقسيمات سياسية كانت غارقة في حروب مريرة فيما بينها. وكانت مشاعر العداء حادة إلى درجة أنها كانت تتجاوز المشاعر الدينية، ذلك لأن الباباوات في ذلك الحين كانوا منخرطين في هذه الصراعات. إلا أنه كلما ظهرت "البيانشي" كانت الأعمال العدائية تتوقف، وكان البشر المتعادون ينفجرون بالبكاء ويتعانقون. وتتوقف الحرب المكشوفة وكل من يكون هناك تسيطر عليه مشاعر عميقة من الندم والمحبة.

ولو سمح لهم بالاستمرار في عملهم لتمكن أتباع "بيانشي" من تغيير وجه التاريخ. ولكنهم أيضاً غرقوا في مصارعة بابا متسلط، فقد ادعى أحد زعمائهم أنه يوحنا المعمدان متجسداً. وذهب إلى روما فقابل البابا وأمره بالتخلي عن عرشه. ولم يكن البابا بونيفاس التاسع، شأنه شأن سابقيه، ليصغي إلى ترهات كهذه. فأمر بإحراق الرجل مربوطاً إلى خازوق بتهمة الهرطقة.

وأثار الزعماء المتلاحقون أيضاً نقمة السلطة البابوية. وأخيراً وقعت عليهم تهم محاكم التفتيش. فاتهموا بجرائم عديدة محددة مثل قولهم إنه ما من إنسان يستطيع أن يصبح مسيحياً حقيقياً ما لم يجلد نفسه ويتعمد بدمه.

والأكثر زندقة كان ادعاء البيض بأن الموت بجلد ممزق وعليه ندوب من آثار السياط أفضل من تكريسه بالزيت على يدي كاهن معترف به ومخول. وفي النهاية وبعد ممارسة أعمال قمع عنيفة ضدهم داخل الكنيسة وخارجها ماتت الحركة نهائياً. غير أن طوائف تسوطية صغيرة أخرى كانت تظهر في فترات متقطعة عبر القرون وحتى القرن التاسع عشر.

وعلى الرغم من أننا قد لا نرى مرة أخرى حركات تسوط واسعة كهذه فإن طوائف صغيرة مشابهة ستظل تجلد نفسها باسم الإيمان طالما ظل هناك أشخاص خائفون مذعورون سذج. فنحن نعرف بأنه قد يوجد حتى الآن مذهب سري من المتسوطين الذين يعذب كل منهم الآخر وبأدوات غريبة حديثة مأخوذة من صفحات قصص الخيال العلمي أو من الخيال ذاته. ولكن مهما كان الأمر، فطالما أن الناس قادرون على الإحساس بالذنب فإنهم سيظلون يحسون بالحاجة إلى معاقبة أنفسهم.

المضمون الجنسي للتعذيب

ليس فقط أن العلاقة الوثيقة بين الجنس والتعذيب قد تم التعرف إليها بل إنها في أيامنا هذه قد فهمت بوضوح. إلا أن العلمانيين كثيراً ما يختلط الأمر عليهم عند استخدام مصطلحي "السادية" و "المازوشية". وكما توضح المادة المذكورة عن دوساد وساشر مازوش، فإن هاتين الكلمتين مرتبطتان بدقة بالجوانب الجنسية للألم وليس فقط بالقسوة كفكرة مجردة. وأفضل مصطلح فني يمكن استخدامه لشرح مبدأ التمتع بالألم هو "ألغولاغنيا" Algolagnia وهي كلمة مشتقة من كلمتين يونانيتين هما "ألغوس" وتعني الألم "لاغنيا" وتغني الإثارة الجنسية. وبشكل أوضح أن "ألغولاغنيا" - الشبق التألمي - تعني الرغبة في إدخال الألم كعنصر أساسي في العمل الجنسي. ولذا فإنها يمكن أن تعني المعذب والضحية. وقد قسمها المحلل النفساني الألماني شرينك نوتزينك إلى ألغولاغنيا سلبية وألغولاغنيا إيجابية لكي يتم تحديد كل جانب على حدة.

وسيان قبلنا الاعتراف بالأمر أم لم نقبل فإن في كل منا درجة معينة من ألغولاغنيا. ولو لم يكن هذا صحيحاً لما امتلأت وسائل الترفيه والتسلية بهذه الكمية من مشاهد التعذيب. ولو لم يعتبر الناس الأمر مساهمة في العنف بالنيابة لما احتوت الروايات والأفلام والمسرحيات والأعمال التلفزيونية على هذا العنف.

ولكن الحقيقة هي أننا جنس دموي يطالب بسفك دمه مثلما كان أسلافه الرومان يفعلون. وما يود أن ينكره المعجبون (بوسائط الإعلام والتسلية كافة) هو حقيقة أن الإثارة التي يحسون بها وهم يتقمصون أبطالهم المفضلين (أو الأشرار) هي إثارة جنسية في الأساس. وحين تكشف لهم هذه الحقيقة الجوهرية يخافون. تقلقهم تلك الاضطرابات الغريبة في دواخلهم والتي هي متعبة وممتعة في وقت واحد. والحقيقة أنه لا مبرر لمخاوفهم. فأي طبيب نفساني سيخبرهم بأن ما تبدو مشاعر منحرفة لا تعتبر منحرفة ما لم تكن مسيطرة. وبهذا، وفي نطاق موضوعنا، فإن الأشخاص الذين يجب أن يقوموا بالتعذيب أو يتلقوه لكي يحققوا الاكتفاء الجنسي هم وحدهم الذين يعانون من انحراف في غريزتهم الجنسية.

بعد التسلح بهذا الفهم نستطيع أن نتفهم الأهمية الحقيقية لكثير من التصرفات السالفة المتعلقة بالتعذيب. لسنا في حاجة إلى أن نتعب أنفسنا بالبحث عن الدوافع عند دراسة تصرفات محققي محاكم التفتيش والباحثين عن الساحرات وغيرهم من ممارسي التعذيب الذين يبدو عليهم الاستمتاع بآلام ضحاياهم. وعلى الوجه الآخر للقطعة النقدية نرى تفسيراً أعمق لممارسة المتسوطين الذين أتينا على ذكرهم في الفصل السابق. فلقد افتُرض أن النشوة التي كان كثيرون منهم يشعرون بها بعد الجلد القاسي لم تكن إلا رعشة الذروة الجنسية التي لم يتبينوها.

ومن المؤكد أن هناك دليلاً واضحاً لإثبات أن الجماهير التي تتفرج على مشاهد سفك الدماء كثيراً ما يثور فيها تشهّي الدم الذي يؤدي في النهاية إلى عربدات جنسية عفوية. وكان هذا حدثاً شائعاً في الحلبة الرومانية، غير أنه ليس مقصوراً على الماضي. لقد حدث رد الفعل المشابه في القرن الثامن عشر في فرنسا في أثناء ما يصفه بعض المؤرخين بأنه أرهب حوادث الإعدام العلنية المسجلة.

حاول روبرت فرانسوا داميين محاولة فاشلة لاغتيال الملك لويس الخامس عشر. ومع ذلك فقد كان الحكم عليه مشابهاً للحكم الذي صدر بحق فرانسوارا فاليك قاتل هنري الرابع عشر. في 28 آذار 1757 بدأ تعذيب المحكوم سراً بوضعه على المخلعة. وبعد أن انتزع لحمه عن صدره وذراعيه وساقيه وكاحليه بكماشات محماة على النار سكب مكانه الزيت المغلي والرصاص الذائب ومزيج حارق من الزفت المغلي والشمع والكبريت وبعد الظهر صار جاهزاً للعرض على الناس بعد أن أقيمت له "تمارين التحمية".

في الساعة الثالثة من بعد ظهر ذلك اليوم جُلب داميين المنكود إلى "بلاس دوغريف". كانت الشوارع مكتظة بالناس وتوقف كل نشاط في باريس. وكانت الجماهير في البداية هادئة. وقد روى أحد الشهود العيان بأن الناس كانوا ينظرون إلى الضحية "دون كراهية أو شفقة" وتابع القول: "أينما وجه المرء نظره لا يرى إلا الحشود... الحشود في كل مكان. من بلاس دوغريف حتى المحكمة نفسها لم تكن إلا حشداً مكتظاً يضم كلاً من الطبقات المعروفة وخاصة الغوغاء".

في الرابعة والنصف بدأ التعذيب. ومرة أخرى مُزِّق لحم الضحية بالكماشات المحاماة وخضع للتعذيب ذاته الذي واجهه فيما سبق؛ هذه المرة لإمتاع المشاهدين. وكان يصرخ ويزعق طالباً الرحمة. ويقول الدوق دوريشلو في مذكراته إن رائحة اللحم المشوي كانت شديدة حتى "ملأت جو المحكمة كله". وأثير الجمهور بالعرض الوحشي الذي يجري أمامهم إلى درجة أنه في الوقت الذي كان فيه بعضهم يتساءلون إلى متى سيصمد هذا التعيس البائس كان آخرون قد انتشوا إلى درجة أنهم بدؤوا فعلاً يتضاجعون على الأرصفة.

وجاء أسوأ فصل في هذه المحاكمة حين ربطت خيول قوية إلى يدي

الرجل وساقيه ثم أطلقت في أربعة اتجاهات مختلفة. ووسط صرخاته المسعورة وهمهمات الخيول وصهيلها كان الجمهور يحدق بذهول جاحظ. ثم أضيف حصانان آخران للتمكن من خلع الساق اليسرى بعد ساعة ونصف الساعة. في هذه اللحظة انفجر تهليل الحشود. وانفصلت الساق الأخرى والذراعان من مفاصلها قبل أن يلفظ داميين أنفاسه.

ولقد ورد وصف تفصيلي دقيق لما كان يجري بين الناس بقلم جاك كازانوفا، الذي كان يتفرج على المشهد الشنيع من مركبته. كان قد جاء إلى بلاس دوغريف بصحبة رجل آخر وثلاث سيدات. وبما أن الإعدام ذاته كان أكثر دموية من أن يتحمله ذوقه فقد صرف كازانوفا اهتمامه كله لمرافقيه الذين كانوا مأخوذين بما يجري إلى درجة أنهم نسوا وجوده تماماً.

إلا أنه كان منتبهاً جداً لهم. ركز رفيق كازانوفا نفسه في وضع ملائم ورفع ثوب إحدى السيدات متظاهراً بأنه يريد أن يتحاشى الدوس عليه. ثم وبتماديه إلى ما هو أكثر من الحرص العادي تابع الرجل تصرفاته وكأنه في خلوة غرفة النوم. ولأن كازانوفا كان يدرك تماماً ما يقوم به صديقه فقد حول عينيه عنه، ويقول إنه "خلال ساعتين كاملتين، بعدها، كنت أسمع حفيفاً متواصلاً، ولاستمتاعي بالدعابة ظللت محتفظاً بهدوئي طوال الوقت".

ويستفاد من الإثارة الجنسية التي يعرف بأنها تسيطر على مشاهدي الألعاب الدموية وعمليات الإعدام وأشكال التعذيب الأخرى لتقديم تأكيد للتفسير الجزئي للاستمرارية الشاملة لهذه العادات. إذ ما يزال كثيرون من الناس اليوم جاهلين جهلاً تاماً للعلاقة الوثيقة والقوية بين الجنس والألم. ومن جهة أخرى هناك الآن، كما الأمر دائماً، من أدركوا ماهية هذا الارتباط الحسي. وكثيراً ما يستغلون تبوأهم لمراكز في السلطة من أجل تحقيق رغباتهم الجنسية على حساب ضحايا لا رغبة لديها. وإن صفحات التاريخ تقطر دماً حين تأتي على وصف الأحداث الحقيقية للشواذ المتوحشين

الذين يتجاوزون حتى ما وصل إليه خيال دوساد الغريب. إلا أننا لسنا معنيين هنا بالشواذ المتوحشين بل بالناس الذين يبدون عاديين والذين قيدتهم أذواقهم الجنسية الغريبة إلى جحيم دنيوي من العذاب والألم.

وأكثر هؤلاء شيوعاً هم المتسوطون الجنسيون. وهؤلاء، على عكس أقرانهم الدينيين، يعترفون علناً بالجنسية الضمنية لاعتمادهم على الألم. وهناك نماذج مختلفة عديدة من التسوط الجنسي. وهم، بشكل أو بآخر، يتلاءمون مع التعريفات التصنيفية التي ذكرت سابقاً. بعضهم يحب أن يقوم بالجلد والبعض الآخر يحب أن يتعرض له. هناك أولئك الذين يجدون في التسوط بديلاً عن الاتصال الجنسي. وهناك من يعتبرونه مجرد محرض وتمهيد للعمل الجنسي. وكثيرون من هذه المجموعة الثانية لا يستطيعون عملياً أن يستثاروا جنسياً ما لم يتم إدخال عنصر الألم إلى الموضوع. وليست أقلية شاذة محصورة في جماعة صغيرة في أي بلد. إنها ظاهرة شائعة. وهناك اعتقاد مقبول بشكل عام بين فلاحي عدد من بلدان أوروبا الشرقية بأن الزوج الذي لا يضرب زوجته لا يحبها.

وربما كان أول ذكر لما نسميه الآن ألغولاغنيا هو ما جاء في كتابات طبيب يوناني قديم اسمه سورونوس والذي كان يقوم بعمله في أثناء حكم الإمبراطورين الرومانيين هادريان وتراجان. وقال:

"ليسوا قلة من الناس أولئك، الذين حين يتعكر مزاجهم بسبب الحب غير السعيد، وعندما لا يجدون ما يفعلونه غير ذلك، يأمرون بأن يتعرضوا للجلد".

إلا أن الوصف التفصيلي لحالة فعلية لم يأت بقلم ممارس للطب بل بقلم الباحث الإنساني الإيطالي في القرن الخامس عشر وهو الكونت بيكوديلا ميراندولا. فقد كتب:

"أعرف رجلاً فاسقاً فسقاً غريباً لم يسمع به من قبل: فهو لا يضطرم

ويتهيأ للجماع ما لم يجلد. وهو يشتهي الضربات العنيفة إلى درجة أنه يوبخ الأنثى التي تجلده إذا كانت رقيقة معه، ولا يشبع رغبته تماماً ما لم يتدفق الدم ويمزق السوط ردفي الرجل الشرير تمزيقاً عنيفاً. ويرجو هذا المنكود بحرارة أن تؤدي له هذه المهمة كل امرأة يتقرب منها، فيقدم لها سوطاً يكون قد جعله قاسياً لهذه المهمة بنقعه في الخل منذ اليوم السابق. ثم يتوسل إلى البغي أن تضربه: وكلما جلدته بقسوة أكبر ازدادت إثارته شدة وراح يتقلب بين المتعة والألم".

ويصل أوتو برنلفز، الطبيب الألماني في القرن السادس عشر، في وصف حالة مشابهة إلى درجة ذكر اسم المريض. فقد كتب: "حتى في هذه الأيام في ميونيخ في بافاريا لا يستطيع ولفغانغ شتيرمستر من فرانكفورت، وهو المواطن ذو الشأن، أن يلتقي بزوجته ما لم يتلق ضرباً شديداً في البداية. وردفاه ثخينان جداً إلى درجة أنه بعد الكثير من الضربات يصعب أن ينزف الدم".

غير أن الإنكليز، ومن خلال اعترافاتهم بشكل أساسي، أقاموا عبر القرون صلتهم العظيمة بالتسوط في أشكاله وأنواعه كافة. ولقد ذكر المسألة بفظاظة الببليوغرافي البريطاني في القرن الماضي هنري سبنسر آشبي بقوله: "النزعة التي ينشد الإنكليز تحقيقها أكثر من غيرها هي دون شك نزعة التسوط، فاستخدام العصا في البلدان الرومانية الكاثوليكية كافة من قبل الرهبان كأداة لخدمة توقهم إلى الفجور، وهي مسألة لا يمكن إنكارها. وعلى الرغم من أن الموضوع قد عالجه طبيب هولندي بجدية وعلمانية إلا أن هذه الرذيلة قد ضربت جذورها بعمق في إنكلترا أكثر من أي بلد آخر. وأعتقد أنه هنا فقط يمكن العثور على رجال يستمدون المتعة من تلقي الضرب بالعصا أكثر من ممارسته. إلا أن هذه الحقيقة لا يلغيها إخفاؤها. وإنه لمن السهل تسمية رجال في أعلى مواقع السلطة والأدب

والجيش وغيرها ممن، في يومنا هذا، يغرقون في هذا السلوك الغريب ويمكن تسمية الأماكن التي يترددون إليها".

ويتابع آشبي إلى أن يقول إن هناك كميات من الكتب الإنكليزية المكرسة للتسوط وحده. ويضيف: "ما من كتاب إنكليزي في الدعارة يخلو من أوصاف للتسوط ومن صفحات عديدة مستقلة تصور مشاهد الجلد. لقد تسبب الأمر في انفصال الرجل عن زوجته. وألطف مدارس الإناث قد أصبحت خاضعة لنزوات مدمنيه، وفيما مضى كان التحدث عنه يتم على المسرح دون أدنى تحفظ".

وبعد أن يستغرق آشبي في الموضوع يصل إلى حيث يحكي عن النجاح الهائل الذي حققه أصحاب مبغى مشهور في أيامه، كان متخصصاً بالتسوط، وكانت امرأة اسمها السيدة كوليت، التي يصفها بأنها "سائطة بارعة" تستطيع أن تفاخر زبائنها البارزين أن من بين زوارها المتميزين كان الملك جورج الرابع.

وفي السيرة التفصيلية لأشهر "مربية" في إنكلترا، تيريسا بيركلي، تقدم لنا بشهية قائمة أدوات التعذيب التي كانت تستخدمها. وتشتمل على مقابض عصي خضراء وبعضها مزود بسيور سياط، وكمية مختلفة الأحجام من "الهرة ذات الأذيال التسعة" وبعضها بأطراف مدببة، وخيزرانات مرنة، وسيور جلدية ومضارب ذات مسامير بارزة بطول إنش ومحسات جلدية، وأدوات كفرشاة من نباتات شائكة، وقراص أخضر... وهكذا حتى تصاب بالغثيان. وكانت السيدة بيركلي تلائم الأذواق كافة لأنها كانت تشغل عندها عدداً من الفتيات اللواتي كن يخضعن للجلد كلما طالب أحد الزبائن بهذا الامتياز.

ومن الطبيعي أنه لم يكن متسوطو إنكلترا الفكتورية كلهم مازوشيين أو حتى ملائمين لذلك. كانت هناك نساء كثيرات متفرغات لأعمال كهذه

وكن نشيطات في هذا المجال مثلما كان آباؤهن وأخوتهن وأزواجهن، بعضهن مثل السيدة بيركلي، كن ينجحن في إشباع شهواتهن الجنسية وفي تحقيق الأرباح في الوقت ذاته. وأخريات كن مرتبطات بنوادي تسوط خاصة وسرية. وتفرغت مجموعة أخرى، من الذكور والإناث، لمهنة التعليم. وبهذا كانوا يستطيعون أن يمارسوا الجلد حتى الاكتفاء وبأسلوب متميز ومعتبر فعلاً. وليس هناك من شك في أن أعداداً كبيرة من المتسوطين الإنكليز قد نموا أذواقهم لتشهي العصا منذ أن كانوا في المدرسة.

ومعظم روايات التسوط التي ذكرها البيليوغرافي آشبي تنقصها القيمة الأدبية بشكل مخيف إذا ما قرئت اليوم. إلا أنها تقدم سبراً قيّماً لتفكير وممارسات المساهمين في تلك الرذيلة نفسها.

كتب كثيرة كانت تعالج، بشكل خاص، الممارسات التأديبية، وكلها سير ذاتية. وكقاعدة عامة كان كتّاب هذه الكتب الجنسية المتخصصة يحافظون على سرية أسمائهم، على الرغم من أن أفراداً مشهورين بينهم (وأفضل مثال على ذلك الشاعر سوينبرن). كانوا أحياناً ينشرون كتابات تسوطية بأسمائهم الحقيقية. ومن الكتب النموذجية، مغفلة التوقيع، الرواية المسماة (رواية التأديب، أو أسرار المدرسة وغرفة النوم).

ظهرت في البدء كمسلسل في دوبلن عام 1870 وقد كتبت من وجهة نظر تلميذة مدرسة. والمضامين المهمة للكتاب واضحة جداً بحيث أن مقطعاً موجزاً منه يغني عن أي تعليق.

تقول الراوية بعد أن جلدتها مارتينيه مديرة المدرسة: "ذهب عني الخوف والخجل، كان الأمر كأنني أسلّم نفسي لعناق رجل أحبه ولدي الاستعداد للاستجابة لأعنف رغباته. ولكن لم يكن في ذهني أي رجل. كانت مارتينيه هي محط هيامي، ومن خلال العصا أحسست أنني قد شاركتها مشاعرها. لقد كانت الصلة، كما يقول ممارسو التنويم المغناطيسي، قوية

إلى درجة أنني كنت أستطيع التكهن بما تفكر فيه. فلو أنها رغبت في أن أعرض جسدي كله لضرباتها لكافحت وجاهدت من أجل إطاعتها. وعندها حدثت أيضاً رعشة في جزء محدد، عرفت بالتجاذب المغناطيسي أنها قد حدثت لنا معاً. وكانت كل ضربة جديدة تزيد هذه الرعشة. إن الألم الوارد قد فتح المجال لفيضانات جديدة من السعادة وإلى أن لم يعد من الممكن أن أقول عن نفسي ما إذا كانت النشوة نابعة من الألم أكثر أم من المتعة. وحين تغيرت العصي تابعت قفزي وصراخي، لأنها كانت تحب ذلك، ولكنني -صدّقوا أو لا تصدقوا - رأيت عريي في عينيها وغرقت في المتعة الفاجرة التي زودها بها جلدها لي".

وعلى الرغم من الروايات التي تبدو أنها تحكي سيرة حياة، إلا أن أدق الأمثلة عن الجنس في التعذيب موجودة في قصص الحالات العلاجية. وهناك كميات كثيرة متوفرة من هذا الأدب الطبي بحيث أننا لا نحتاج إلا إلى ذكر أمثلة قليلة هنا. ولا شك في أن من أكثر الكتب التي تحتوي على هذا الموضوع انتشاراً كتاب "جنسية الاضطرابات السلوكية Psychopathia sexualis" للدكتور ريتشارد فون كرافت ابنغ. وكثير من الحالات التي يحكي عنها رهيبة بسبب التصرفات الجسدية التي يقوم بها المرضى. وفي قصص أخرى لا يكمن الرعب في الواقع بل في الذهن فقط. وهكذا نجد حالة بعد أخرى تطرح كل منها فرداً عاجزاً عن ممارسة الجنس ما لم يتصور مشاهد مخيفة من التعذيب والتشويه والعنف. ومن الحالات النموذجية المشابهة الحالة رقم 25 عند كرافت ابنغ:

بدأ المريض المذكور هنا يحس "برغبة شهوانية خاصة لدى رؤية الدم يجري من أصابعه" حين كان ما يزال في العاشرة من عمره. وبدأ منذ ذلك الحين يجرح أصابعه طلباً للمتعة التي تقدمها له. وحين صارت المتعة التي يحسها لدى رؤية الدم جنسية خالصة. وبدأ يمارس العادة السرية وهو

يتصور نساء نازفات. وفي هذه المرحلة كان قد فقد الرغبة في رؤية دمه هو وصار يفضل ألا يرى إلا دم النساء اللواتي يراهن جذابات. وحين صار في سن النضج لم يكن قد مارس أي فعل سادي مكشوف بل غرق بدلاً من ذلك في خيالات عن العنف كان فيها يقتل ويُعذّب ويغتصب. وفي كل ما يتعلق بحياة هذا الشاب الجنسية كان عاجزاً تماماً حين لا تكون هناك صور حية من الدماء والتعذيب.

ليس فقط هذا الشاب وحده بل أن كل من حوله كان محظوظاً لأنه لم ينفذ شيئاً من خيالاته. وتدل الاحتمالات كلها على أن هذا الرجل، الذي كانت انحرافاته الشاذة تزعجه، لم يكن يعاني من حالة نادرة. ولتوضيح بدء هذا الفصل نقول لو أن حالات كهذه كانت غير شائعة فعلاً لتغير إذاً الإيقاع العام لأدبنا ووسائل الترفيه عنا. ولكن بما أنه من السهل المحافظة على سرية الحياة التصورية لكل إنسان فإنها تستطيع أن تأخذ أي شكل يريده لها كل فرد. وليس لدينا الآن إلا فكرة أفضل بقليل عن الحقيقة لأنه صار من المقبول، اجتماعياً، الاستمتاع بمشاهد العنف أكثر مما كان في الماضي.

وقد طرح هافلوك إليس، الرائد الآخر في ميدان علم الأمراض الجنسية، حالة مشابهة للحالة التي طرحها كرافت إبنغ. وكانت المريضة امرأة وصف إليس حالتها بأنها ألغولاغنيا ممزوجة بإفراط في الحساسية الجنسية. وكانت (ر.د) في الخامسة والعشرين، متزوجة وذات مركز اجتماعي متميز وقد اتضحت حساسيتها الجنسية المفرطة منذ الصغر. ونتيجة لذلك تحولت إلى ممارسة للعادة السرية بالإكراه. وقد استمرت في ممارسة هذه العادة حتى بعد الزواج. حين كانت طفلة كانت تحب التفرج على مشاجرات الكلاب التي كانت تثير لديها ردود فعل جنسية قوية. وإذا حدث أي سفك للدماء بين الكلاب كان التأثير أكبر. وكثيراً ما كانت تصل إلى الرعشة الجنسية (أورغازم) وكانت ر.د، مثلها مثل مريض

كرافت إبنغ، مولعة بالخدوش والجروح الصغيرة فيها وفي الآخرين، وفي بعض الحوادث حين كانت تجرح نفسها وكانت تحب أن تمتص الدم الذي وصفته بأن لذيذ الطعم. وهذه التجربة أيضاً كانت تنعكس عليها محرضاً جنسياً قوياً ينتهي في بعض الحالات إلى رعشة الذروة الجنسية.

وكانت الحياة المتصورة لهذه المرأة مفعمة بالعنف أيضاً. فقد كانت تحب أن تتصور نفسها عرضة لهجوم رجل يرغب في اغتصابها. وفي أثناء العراك الخيالي كانت تجرح مهاجميها جروحاً بالغة. ويقول الدكتور إليس "إن الأفكار المجردة كانت تثيرها أيضاً" وقد وصفت "كتاب الشهداء" لجون فوكس بأنه فاتن واعترفت بأنه كلما يكون التعذيب رهيباً أكثر تزداد إثارتها الجنسية، وأضافت أنها كثيراً ما كانت تلجأ إلى العادة السرية وهي تقرأ الكتاب، ولكنها سارعت إلى القول بأنها لم تحاول أبداً أن تجرب أياً من هذه المشاهد عملياً. ومن المفيد أن نشير إلى أن السبب الذي منعها عن ذلك لم يكن لأنها لم تكن لتستمع بدورها كممارسة للتعذيب بل لأنها كانت خائفة من النتائج فقط. واعترفت بأنها كانت تعض زوجها في أثناء الجماع وبشدة تكفي لإنزال الدم الذي كانت تحب أن تمتصه. وشرحت بشكل محدد بأنها كانت تحب أن تجعله يجفل حين تغرز أسنانها في حلمه.

وهاتان الحالتان معتدلتان نسبياً وتحكيان عن شخصين لم يكونا ليتحولا أبداً إلى شخصين خطرين حتى لو أنهما لم يبحثا عن العلاج النفسي. ولكن هناك حالات سادومازوشية شديدة لا تحصى لأشخاص يشبعون رغباتهم الجنسية بطرق غريبة شاذة لا تختلف إلا قيد شعرة عن الجرائم. ومعظم هؤلاء مثيرو شغب أقوياء ولكنهم في الوقت ذاته واعون عامة للمتاعب التي قد يقعون فيها. ولذا فإنهم حذرون ومتكتمون، يفتشون دائماً عن آخرين يشاركونهم أذواقهم.

بين حين وآخر يزلّون. ولقد أفاد أحد الأطباء ذات مرة عن حالة امرأة سادية شديدة الغرابة عرف بها نتيجة معالجته للجروح التي سببتها لضحية ذكر. كانت امرأة ذكية جذابة تنجذب إلى ذلك النوع من الرجال الذي يعتبرون عادة "فوق المتوسط" وأكثر من ذلك حددت نشاطها بأولئك المتزوجين أو الذين هم عازبون بارزون اجتماعياً تهمهم سمعتهم. وكلما تدعو رجلاً إلى شقتها يكون للدعوة شكل المكيدة، فهو لم يكن يستطيع مرافقتها إلى الشقة بل عليه أن يأتي ويدخل متسللاً. وكانت دائماً تترك الباب مفتوحاً من الخارج في حالات كهذه. وما لم يكن يعرفه الضحية المنكود هو أن لديها قفلاً خاطفاً يمنعه من الهرب مجرد أن صار في الداخل.

واللازمة الثانية من لوازمها هي أن على الرجل أن يتعرى تماماً ويتجه إلى سريرها الذي تتظاهر فيه بالنوم. وفي الحقيقة تكون متيقظة ومنتظرة الفرصة للهجوم دون سابق إنذار. وكانت القبلة الأولى مجرد إشارة لها لأن تقفز من السرير وتمسك سوطاً من نوع "الهرة ذات الأذيال التسعة" لتنهال به على الرجل العاري بمنتهى القسوة. ولم يكن أي منهم يعترف بالحقيقة. وكانوا دائماً يقولون إن مهاجمين مجهولين قد ضربوهم. وكم من الضحايا الذين زعموا أنهم هوجموا كانوا في الحقيقة قد تعرضوا لهذه الهجمات المذلة.

وذات مرة حكى أستاذ علم الانحراف النفسي في إحدى الجامعات المهمة لمجموعة من طلابه عن حالة غريبة لرجل سادي تزوج مازوشية. ولقد انزعجا قليلاً حين اكتشفا أنهما يصلان إلى أقصى حالات الاكتفاء الجنسي بعد أن يكون الزوج قد ضرب زوجته بالسوط. وكانت هناك حالات يكفي فيها الجلد وحده لإشباع رغبات كل منهما. وذهبا إلى المعالجة النفسية. وتبين خلال معالجتهما أنهما يجهلان جهلاً تاماً أي شيء عن السادومازوشية، وأنهما كانا يرزحان تحت عبء الإحساس

بالذنب من طبيعة علاقتهما. وقد سأل أحدهما: "ما الذي سيقوله الصغار؟". وأجاب الطبيب النفسي بأن سألهما عما إذا كانا يكتفيان معاً في هذا النمط من الاتصال الجنسي. وأجابا بالإيجاب. فذكر بأنه طالما ليس من المعتاد أن ينهمك المتزوجون في تصرفات جنسية أمام أطفالهم فليس هناك ما يبرر أن يشعر الأطفال بشيء. واعترفا بأنهما لم يسبق لهما أن نظرا إلى المسألة من هذه الزاوية ومن المفترض أنهما قد تلاءما مع وضعهما بعد ذلك.

والنقطة المهمة في هذا المثال الأخير هي علماء النفس والأطباء النفسيين يعتبرون أي تصرف جنسي يحقق الاكتفاء المشترك للمتزوجين هو تصرف مقبول حتى لو اشتمل على الإيلام. ولكن في مجال ألغولاغنيا لا يكون الأشخاص محظوظين دائماً بمجاراة كل منهم الآخر بالسهولة التي كانت تتم بها عند هذا الثنائي. فالتركيبات معقدة جداً. بعضهم يفضل أنواعاً معينة من التعذيب وبعضهم يحبون التفرج ولا يهتمون إلا برؤية الآخرين يتعذبون. والمثال الأفضل للتعذيب الرمزي هو الجلد بشيء يشبه السوط لكنه لا يسبب أي ألم.

روت د.س. وهي بغي هاتف[1] من واشنطن عن زبون يتردد عليها ويصر على ممارسة طقس خاص كتمهيد للاتصال الجنسي، أولاً يجب أن يتعرى الاثنان تماماً وبعدها ينزل على يديه ورجليه ويبدأ القفز وهو يصيح كالديك فيما تقوم المرأة بجلده بريشات طويلة يجلبها معه عادة لهذا الغرض.

وتلعب الرمزية دوراً مهماً في العلاقة بين السادومازوشيين الشاذين جنسياً وخاصة بين اللواطيين، فكثير منهم، كما هو الحال بالنسبة إلى

(1) بغي يتم الاتفاق معها واستدعاؤها بالهاتف.

الشاذين الآخرين، يبحثون دائماً عن علاقات شخصية قصيرة الأمد. وهم لا يستطيعون أن يجدوا فرصة من خلال القدرة على التميز. والسادي لا يستمتع بالضرورة إذا تلقى الضرب. وإذا ما تقرب من غير الشخص الملائم قد تكون النتيجة مروعة على الأقل بالنسبة إلى السادي. ولتجنب متاعب كهذه اختارت هذه المجموعة الخاصة من الشاذين شيفرة بسيطة تساعد على التميز المتبادل. الساديون (الذين يميلون إلى تفضيل الملابس السوداء) يلبسون قفازات سوداء مشدودة؛ وهي مثيرة للانتباه بشكل خاص في الطقس الحار حيث لا يلبس الرجال قفازات. ودون لفت انتباه غير مطلوب تكون شارة مميزة لأولئك المعنيين بالأمر. ويضع المازوشيون ضمادة خاصة على قفا إحدى الكفين. الرمز واضح سهل الرؤية ويمكن تمييزه وفهمه بسرعة.

وبما أن مظاهر ألغولاغنيا غريبة ومتنوعة، وهي مسألة معروفة تماماً بين المعنيين المعاصرين، فإن هناك استفادة كبيرة من الصحف والمجلات. يعلنون عن أنفسهم في إعلانات شخصية يستخدمون فيها شيفرات وإغراءات متنوعة مفهومة على نطاق واسع بين "العارفين". ووصف ما يحدث حين يجتمعون سيكون محبطاً في هذا المجال. علينا هنا أن نعرف تماماً ما يقومون به. إلا أنه من المجدي البحث في بعض الأساليب التي يستخدمونها لكي يلتقي كل منهم بالآخر. إحدى الوسائل هي في نشر إعلان على الغلاف الأخير لبعض المجلات النسوية المغمورة. أحد هذه الإعلانات الحديثة عبارة عن علبة صغيرة ملفتة للنظر. ويقول الإعلان: "تدريب[1]-عقوبة أم متعة؟ أرسل دولاراً واحداً للحصول على تقرير

(1) هي كلمة discipline التي تعني النظام كما تعني التأديب والعقاب وتعني أيضاً السوط والمعلن هنا يوحي أنه يعلن عن دورة تدريبية. ولكن من الممكن قراءة الإعلان بطريقة أخرى كما سيتبين فيما بعد.

خاص مع خمسة نماذج تفصيلية إضافة إلى معلومات مجانية في نشرات حول الموضوع".

وفي قاع العلبة عنوان في وسط نيويورك.

ومن الكلمات يمكن الملاحظة بسهولة أن الساديين والمازوشيين مخدومون هنا. ومن المفترض أنه ما أن يجيب طرف معني حتى يرسل إليه، أو إليها، المعلومات الملائمة مع قائمة عناوين بريدية للرجوع إليها في المستقبل. وللمراسلين الجادين تأتي فهارس مليئة بقوائم "البضائع الجلدية" وبنود أخرى ذات أهمية خاصة بالنسبة إليهم و"البضائع الجلدية" تعبير ملطف عن أدوات التعذيب مثل السياط والسيور الجلدية ووسائل التقييد ونماذج خاصة من الأحذية والقفازات الواقية وغيرها. وغالباً، بعد التأكد من المسألة، يقدم المعلنون عروضاً كلامية حذرة تمكن الزبائن من أن يتصل كل منهم بالآخر.

إلا أن الوسيلة الأكثر مباشرة هي الزاوية الاجتماعية في الصحافة. ومن الطبيعي ألا توجد طلبات للراغبين في التعذيب أو أقرانهم في نيويورك تايمز. وحتى النشرات المبتذلة التي تقدم خدماتها لإعلانات مبوبة كهذه تتطلب درجة معينة من الحذر. ولذا تستخدم شيفرات محددة واضحة، ولكنها مقبولة. فتحت عنوان "مطلوب عمة" نجد ما يلي: "جنتلمان بالغ مثقف في حاجة إلى الترتيب يرغب في الالتقاء بسيدة مدبرة ترغب في مساعدته". وكذلك تحت عنوان: "دعوة سيدات بدينات" نرى: "جنتلمان، 35 سنة، طيب يرغب في الاتصال بامرأة جذابة. أنا ذو طبيعة معتدلة - وتعني خنوع أيضاً - أحتاج إلى الإرشاد. يرجى إرسال صورة".

هذان الإعلانان مكشوفان تماماً بالنسبة إلى متطلبات الكاتب. وبعض الإعلانات تبدو أكثر براعة إلا أنها تحمل المعنى ذاته. والشائع المألوف بينها هو:

إنكلترا تنادي

جنتلمان، 35، جاء إلى إنكلترا، يحب أن يراسل سيدات إنكليزيات مرحات. وكذلك المهتمات بمظاهر اللبس غير المألوف. يرجى إرسال صورة.

وبترجمة هذا الكلام يتبين أن هذا الرجل قد مارس التسوط. "السيدات الإنكليزيات المرحات" لا تعني إلا السيدات اللواتي يستطعن استخدام السوط أو العصا ببراعة. والاهتمام "بمظاهر اللبس غير المألوفة" تشير إلى أنه يفضل أن ترتدي السيدات بطريقة ملائمة. وفي معظم الحالات هذا يعني حذاء جلدياً عالياً يصل إلى أقصى حدود الغرابة والتنافر.

وعلى الرغم من أن غالبية هذه الإعلانات ينشرها أشخاص "في حاجة إلى الترتيب" أو يقدمون أنفسهم على أنهم "معتدلون" أو "مطواعون" فإن هناك من يعبر عن عواطف متناقضة مثل كاتب هذا الكلام:

"ثنائي واسع الأفق، 25 – 22، من النموذج المتسلط، يطلبان الاتصال بسيدة عازبة مطواعة، يجب أن تكون مهتمة بالتصرفات الغريبة والملابس المتنافر وبالاسترقاق. يرجى من كل ثنائي له الاهتمامات نفسها الإجابة".

الساديون الذين يعلنون بهذه الطريقة لا يحاولون إخفاء اهتماماتهم. فكلمة استرقاق هي تقريباً تعبير ملطف لأن الشخصية الضحية، عملياً، يُقيد أو يُربط بشدة، وعادة شبه عار، مفتوح الذراعين والساقين ومعصوب العينين. ومن الطبيعي أن التقييد طوعي جداً وأنه ليس أكثر من تمهيد للعقوبة التي ستوقع فيما بعد. ومحتويات هذا النوع من الإعلانات هي المقلقة لأنها نتائجها يمكن أن تؤدي بسهولة إلى القتل.

وأقل غرابة من هؤلاء، المعلن الذي يقول:

"شاب قوي، 33 سنة، ذو مزاج رجولي متطرف. أبحث عن امرأة

جميلة جداً. أؤمن بالتهذيب والتأديب على الرغم من أني أستطيع أن أكون حنوناً جداً، السن والدين والجنسية لا أهمية لها. اكتبي بحرية وبثقة تامة".

ومن أكثر الاعلانات الشخصية الارتزاقية المطبوعة فظاظة، ذلك الإعلان الذي جاء في ختام الأسطر العامة في طلب عادي لسادي، يحدد السطر الأخير:

"الذين يستطيعون الاستجابة للاستثمار في أعمال مريحة هم وحدهم الذين يجب أن يقدموا طلباتهم".

وعلى الرغم من الأمل بنجاح هذه المراسلة الشاذة المتوحشة، فإن هناك عدداً من الأفراد المنحرفين جنسياً الذين يحسون بأنهم مجبرون على التجوال في الشوارع بحثاً عن شركاء راغبين. وهم كثيراً ما يبادرون الغرباء. وهذا أمر شائع بالنسبة إلى المازوشيين. وليس فقط أنهم يريدون أن تساء معاملتهم، بل هم يريدون أن يهانوا. ولذا فإنهم حين يبادرون شرطياً سرياً ويعتقلهم فوراً يكونون قد نجحوا جزئياً في تحقيق أهدافهم. إلا أنه بين حين وآخر، حتى الساديون والمازوشيون، يواجهون ما هو غير متوقع.

وقد حكى مصور من نيويورك كان قد وصل حديثاً إلى المدينة ولم تكن له خبرة شخصية بتجارب من هذا النوع هذه الحكاية: فيما كان ينتظر الباص الذي يمر بـ"سنترال بارك ويست" جلس على مقعد. وتطلع إليه رجل عابر يتمشى ثم توقف وجلس هو الآخر. وبدأ يفتح حديثاً عرضياً. وبغتة ودون تمهيد لما كان سيقوله انحنى عليه وهمس: "ما رأيك لو تأتي إلى شقتي وتضربني؟!".

- "ماذا قلت؟!" سأل المصور بذهول.

وكرر الرجل ما كان قد قاله، فاغتنم المصور، الذي فهم الموقف بسرعة، فرصته، وقال:

- "آه. لا بد أنك مازوشي. لقد سمعت عن هذا الشيء. عليك أن تحكي لي عنه. أريد فعلاً أن أعرف ما تقومون به".

وجاء دور المازوشي ليندهش. كان من الواضح أنه ليس على استعداد لإفشاء أية أسرار. وقبل أن يقفز مبتعداً ألقى نظرة شبه مرتبكة على المصور وكأنه كان يتطلع إلى مجنون ثم انطلق مسرعاً دون أن يقول أية كلمة.

إن أولئك الذين يبحثون عن فرصة أن يعذّبوا أو أن يتعذبوا باختيارهم لأغراض جنسية أكثر عدداً مما يمكن أن يتصور غير المطلعين. وطالما أنهم يتدبرون أن يلتقوا بالوسائل الملائمة للطرفين والسرية المواتية فإنه ليس لدى العامة ما يخشونه منهم. غير أن هناك مجموعة أخرى هي التي يجب أن تُخشى تصرفاتها. إنهم مضطربون عقلياً. ونتيجة لفقدانهم الضمير والقدرة على التمييز، فإنهم يفترسون الآخرين. إنهم المستوحدون الذين يجوبون الشوارع المعتمة في المدن والأزقة الريفية، لينقضوا من مخابئهم في الظلال بغية الاغتصاب أو التشويه أو القتل. وهم المغتصبون والقتلة خنقاً الذين لا يمكن تمييزهم عادة، وهم قتلة الزوجات والمهووسون الذين يشنون موجات جريمة الرجل الواحد. وتعج سجلات الجريمة بحكايات مجرمين من هؤلاء، وحين ننتهي من الفصل التالي سنعرف لماذا تكبر الملفات كل يوم.

التعذيب والجريمة

على الرغم من أن التعذيب ليس وارداً في الجرائم كلها، إلا أن كل تعذيب يشكل جريمة. والجنايات التي تحتوي على التعذيب شائعة إلى درجة أنها نادراً ما صارت تحظى بالاهتمام الأول (النشر في الصفحة الأولى) في الصحافة. وهناك، طبعاً، صحف صغيرة متخصصة بالقصص المثيرة التي من هذا النوع. وهي تتوجه أيضاً إلى القراء الذين يتعاملون بالإعلانات المبوبة المتخصصة المذكورة سابقاً، ويمكن العثور على صحف كهذه في كل محل بيع صحف كبيرة في أمريكا تقريباً. ويمكن تمييزها بسهولة من الصور البارزة الغريبة أو من العناوين من نوع: "مرّ بها فطبخته بالنشادر".

إلى حد ما هناك نوعية مظللة في صحافة كهذه، صحيح أن معظم القصص حقيقية إلا أنها لا تُنتقى من أجل قيمتها الإخبارية، بل من أجل الإثارة. وآلاف الجرائم الشائعة الأخرى التي تشتمل على تعذيب الأطفال أو تعذيب الحيوانات أو الأعمال الوحشية الأخرى، أما أن تضيع في الزحام أو أن تدفن الصفحات الخلفية. إن لهذه القصص أهميتها الخاصة بالنسبة إلى أصحاب صحف الإثارة. أما للعاملين في التلفزيون (الذين لا يتفرجون على برامج الفيديو المسماة ترفيهية) فإنها قاسية.

ما بينهما تقع بقية وسائل الإعلام التي إما أن يلقي مقررو الشأن فيها

بمواد الجرائم التعذيبية إلى الصفحات الثانوية الخاصة وإما أن يهملوها تماماً.

إن معظم الأشرار المنسيين الذين كرسوا حياتهم للرذيلة قد أُهملوا الإهمال الذي يستحقونه. والذي ما زالوا يجدون من يذكرهم سيظلون يحملون سمعتهم السيئة إلى الأبد. لقد اقترفت "الكونتيسة مصاصة الدماء" الهنغارية، إيرز باثوري، جرائمها الشهوانية في القرن السابع عشر. إلا أن الفلاحين في المنطقة التي عاشت فيها ما يزالون يخافونها إلى الآن. وجيل دوراي، النبيل الفرنسي صاحب الجرائم الجنسية، أُعدم عام 1440، إلا أنه اسمه الأسطوري "كقاتل نساء" - ذي اللحية الزرقاء - ما زال يثير الرعب في بعض مناطق فرنسا.

وسمعة بعض المجرمين السيئة تميل إلى التضخيم والمبالغة مع مرور السنوات. إلا أن هناك آخرين مما كانوا أشراراً في أيامهم إلى درجة لا يحتاجون معها إلى أي قدر من الزخرفة لكي يكونوا أسوأ مما كانوا عليه. وهناك سمعة مشتركة لدى معظم هؤلاء الأنذال: كانوا جميعاً من ممارسي التعذيب بأسوأ أنواعه.

وأحد أكثر الأسماء دموية في "تقويم نوغيت" (وهو سجل المجرمين البريطاني الشهير) لم يكن اسم قاطع طريق أو قرصان، بل قابلة اسمها اليزابيت برانريغ.

ولدت عام 1720 وترعرعت في لندن في ظروف متواضعة. وحين كبرت عملت خادمة، واشتغلت عند عدد من العائلات قبل أن تلتقي بجيمس براونريغ السمكري المبتدئ. تزوجا وانتقلا إلى غرينويتش ومكثا هناك سبع سنوات قبل أن يعودا إلى لندن ويستقرا في "فلوردي لي كورت" في فليت ستريت.

خلال سنوات تحسنت أحوال جيمس تحسناً كبيراً وولدت اليزابيت

ستة عشر طفلاً عاش منهم ثلاثة. واتسعت شهرة السيدة براونريغ كقابلة محترفة؛ فعينت قابلة قانونية للفقيرات في إصلاحية في أبرشية القديس دونستان. وبين عملها الرسمي والخاص وجدت أنه من الصعب عليها أن تدبر شؤون منزلها دون معاونة. وفي عام 1765 خطر لها أن أفضل ما تقوم به هو جلب متمرنة تعمل معها كمساعدة عامة وكخادمة. ولن يؤدي هذا إلى تخفيف عبء العمل عنها فقط بل إنه سيكون مريحاً أيضاً. وحسب العادة كانت أية امرأة تشغل معها متمرنة في الإصلاحية تتقاضى خمسة جنيهات من المؤسسة. ومقابل ذلك على المرأة أن تقدم للمتمرنة الطعام والمأوى.

كانت أول متمرنة عند إليزابيت برانريغ فتاة في الرابعة عشرة من العمر اسمها ميري ميتشل. ثم جاءت ميري ثانية كنيتها جونز لتدخل بيت براونريغ بعدها بوقت قصير. في البدء عوملت الفتاتان بلفظ نسبي. ولكن وبتعبير "تقويم نيوغيت":

"سرعان ما تغير ذلك إلى أشد أساليب الهمجية وحشية". فبدل تقديم اللباس الملائم قدمت الأسمال للفتاتين. وكان طعامهما فتاتاً وكسرات خبز يابسة. وحرم عليهما استخدام الأسرّة وأجبرتا على النوم على البسط دون ملاءات أو بطانيات. وحين كانت الأسرة تخرج في العطلات إلى الريف كانت تقفل على الفتاتين في مخبأ الفحم وتتركان دون طعام وفي أغلب الأحيان دون ماء. والأسوأ من ذلك كانتا تجلدان بقسوة كل يوم.

ولم تكن السيدة براونريغ تعاقب الفتاتين بالأساليب العادية. ونستشهد مرة أخرى بـ"تقويم نيوغيت": "مدّدت ميري جنز بين كرسيين في المطبخ وراحت تجلدها بقسوة شديدة جعلتها تتوقف أكثر من مرة بسبب التعب وحده".

ولم يكن الضرب وحده يكفي هذه المرأة. فحين عرفت أن ميري

جونز تخاف من الماء خوفاً مرضياً صارت السيدة برانريغ تتسلى بدفع رأس الفتاة بالقوة داخل سطل من الماء القذر إلى أن تفقد الوعي.

وذات صباح استيقظت ميري جونز باكراً واكتشفت أن مفتاح الباب الخارجي قد نُسي في القفل. فاستغلت الفرصة وخرجت إلى الشارع وهربت ملتجئة إلى مستشفى اللقطاء حيث فحصها طبيب جراح "وجد جراحها من النوع المقلق". كانت إحدى عينيها قد فقدت البصر كلياً تقريباً. وكان جسدها كله كتلة من الكدمات والخدوش وكتفاها تحملان ندوباً عميقة سببها إطار سطل الماء.

وهدد المسؤولون في المستشفى باتخاذ إجراءات قانونية ضد أسرة براونزيغ. إلا أن الزوجين وافقا على فسخ عقد الفتاة فألغيت القضية كلها.

واستمرت ميري ميتشيل، الكادحة المتبقية، في تلقي الضرب الشديد. وذات يوم حذت حذو زميلتها السابقة وهربت إلى الشارع. ولكن سوء حظها جعل الابن الأصغر يراها فأجبرت على العودة إلى المنزل حيث "تضاعفت آلامها كثيراً" نتيجة محاولتها الهرب لنيل حريتها.

وعلى الرغم من أن الأمر يبدو مما يصعب تصديقه، إلا أن السيدة برانريغ نجحت في تأمين متمرنة أخرى، وهذه المرة من مراقبات منطقة "وايت فرايرز". كان اسم الفتاة الجديدة ميري كليفورد. وخلال فترة قصيرة بدأت "تتعرض لمعاملات قاسية شبيهة بتلك التي تعرضت لها المسكينتان السابقتان وربما أكثر قسوة". ولم تكن ميري كليفورد المنكودة، المتخلفة عقلياً، تستجيب للأوامر بسرعة أو بالكفاءة التي ترضي سيدتها الشريرة. ولذا فإنها كثيراً ما كانت تُعرى وتُقيَّد وتضرب بالمكانس أو بالسياط أو بالخيزران حتى تفقد القدرة على النطق. وتزداد الأمور سوءاً بكون ميري كليفور معتلة الصحة. وذات يوم كانت صحتها أضعف من أن تسمح لها بالعمل ولكن السيدة براونريغ رفضت السماح لها بالبقاء في الفراش، بل

إنها بدلاً من ذلك ربطتها إلى كومة من القش في مخزن الفحم حيث كانت درجة الحرارة عند حد التجمد. ولم تُعط أية بطانية وأجبرت على أن تعيش على الخبز والماء. لقد كان استمرارها في العيش في هذه المحنة هو بحد ذاته معجزة صغيرة.

بعد عودتها، وفي مناسبات متعددة، كان الجوع والعطش يدفعان بها إلى اقتحام الخزائن وتحطيم الرفوف عن الجدران بحثاً عن الطعام والشراب.

ومع مرور الأيام راحت الفتاتان ميري ميتشيل وميري كليفورد تتعرضان للمزيد من الضرب القاسي، وكانتا تتركان عاريتين تماماً أياماً متواصلة. وفي الليل تقيدان من عنقيهما في حالة أقرب ما تكون إلى الخنق. ويقول: "تقويم نيوغيت": "أحياناً حين يقر قرار السيدة براونريغ على ممارسة عمل وحشي غير شائع، كانت تربط أيديهما بحبل وتشدهما عالياً إلى أنبوب الماء في المطبخ. وحين تداعى الأنبوب طلبت إلى زوجها أن يثبت لها خطافاً في الدعامة كان الحبل يشد إليه. وبعد أن تصبح أيديهما مشدودة وممطوطة كانت تجلدهما بالسوط إلى أن تتعب وإلى أن يتدفق الدم من كل ضربة".

ولم تكن إليزابيت براونريغ وحدها التي تسيء معاملة المتمرنتين البائستين. فلقد كان زوجها وابنها الأكبر كثيراً ما يرغبان في المشاركة. وحينما كانت تتعب يستلمان منهما ويتابعان "المعاملة الوحشية".

وذات يوم وجدت ميري كليفورد فرصة للكلام. فوصفت سوء المعاملة التي تلقاها لامرأة فرنسية كانت في البيت تنتظر الوضع. وحين اكتشفت السيدة براونريغ ذلك ثارت ثائرتها وأمسكت بمقص وجرحت لسان ميري في مكانين ثم بدأت تجلد الفتاة البائسة بقسوة تفوق حتى القسوة التي كانت تسوطها بها في المناسبات السابقة. وذات يوم كانت

وحيدة فعريت وضُربت بالطرف الغليظ (عند القبضة) من السوط خمس مرات متوالية. وساءت حالتها إلى درجة أن جروحها أصيبت بالغنغرينا.

وفي هذا الوقت وصلت زوجة أبي ميري إلى لندن وبدأت تحرياتها عنها. وحاولت أسرة براونريغ إخافتها بتهديدها باتخاذ إجراءات قانونية ضدها إذا ما عادت إلى "الإزعاج". وفي الوقت ذاته بدأ الجيران يتشككون بالتأوهات والصرخات التي كانت تنطلق دائماً من بيت براونريغ. إن صرخات الألم كانت متوقعة من النساء في حالات العمل "المقصود حالات الولادة" ولكن الزعقات التي كان صداها يتردد ليلاً نهاراً في فلوردولي كورت كانت تدل على وجود ما هو أكثر غرابة.

وعند هذه المرحلة قررت السيدة ديكون، زوجة الخباز، التي كانت الجارة الأقرب أن تعرف ما يجري بالتحديد، فأمرت اثنتين من خادماتها بالمراقبة الدائمة من المنور المطل على دار براونريغ.

وسرعان ما حدثت الثغرة حين جلب جيمس براونريغ خنزيراً ووضعه في الدار. وصار من الضرورة إزالة المنور لأسباب واضحة. وقبل مرور وقت طويل ذُعرت إحدى خادمتي السيدة ديكون حين رأت هيكلاً دامياً متسلخاً ذا معالم غير واضحة يخرج من المنزل. وكان هذا ميري كليفورد - أو ما تبقى منها. وحاولت جماعة ديكون أن تلفت انتباهها بإلقاء الحجارة قربها. فتطلعت إلى الأعلى، غير أنها كانت الآن عاجزة تماماً عن النطق. ونتيجة الاشمئزاز الشديد من المنظر قامت أسرة ديكون بإبلاغ السلطات المختصة. فصدرت مذكرة وجاء البوليس لتفتيش المنزل. وحين أحست السيدة براونريغ وابنها الأكبر بقرب وقوعهما في المأزق هربا. وحاول جيمس براونريغ، عند مواجهته لرجال القانون، أن يتملص من المسألة. وعندما أمر بإحضار ميري كليفورد جلب ميري ميتشيل. أما الفتاة الأخرى فقد كانت محتجزة في خزانة.

وأخذت ميري ميتشيل فوراً إلى الإصلاحية لعرضها على الأطباء. وكانت الفتاة ترتعد خوفاً فلم تقبل أن تقول شيئاً في البداية. وحين انتزعت ملابسها عنها تبين أن بعض أجزاء الملابس ملتصقة بجروحها، مما جعلها تصرخ متوجعة ولم ترضَ أن تتحدث بصراحة إلا بعد أن أقنعت بأنها لن تعاد إلى منزل براونريغ. وبناء على ما قالته وعلى شهادة خادم السيدة ديكون، التي أصرت على أن هذه ليست الفتاة التي رأتها في الدار، قام مسؤول من الأبرشية بزيارة بزيارة أخرى لجيمس براونريغ.

ومرة أخرى حاول السمكري الصفيق أن يطرد زواره القادمين إليه بلا دعوة، ولكنه، حين هُدد بالاعتقال الفوري، جلب لهم الفتاة، وكانت ميري كليفورد في حالة متدهورة جعلت أطباء مستشفى سينت باثولومو عاجزين عن إنقاذها. وبعد عدة أيام، في 9 آب 1765 ماتت. وفتح تحقيق فوري ووجهت تهمة القتل المتعمد لجيمس واليزابيت براونريغ وابنهما جون.

ظل براونريغ قيد الاعتقال فيما ظلت زوجته وابنه طليقين. وفي 15 آب تم التعرف عليهما وإبلاغ البوليس فاعتقلا. وكانت أنباء أسرة براونريغ وجرائمها السادية قد أصبحت موضوع الحديث الأساسي في لندن كلها. وحين اقتديت السيدة براونريغ إلى نيوغيت بانتظار محاكمتها كانت الجماهير في حالة من الهياج خشي معها أن تُعدم دون محاكمة.

ودامت المحاكمة نفسها إحدى عشرة ساعة وقد حدثت في 13 أيلول عام 1767. وكانت ميري ميتشيل الشاهد الأساسي للادعاء فوصفت بتفصيل دقيق كل ما عانته. وبرئ جون وجيمس براونريغ من تهمة القتل ولكن حكم عليهما بالسجن ستة أشهر في نيوغيت لتهم أخف. غير أن إليزابيت ثبتت إدانتها وحكم عليها بالإعدام شنقاً في تيبرن هل في اليوم التالي.

كان الحشد في ذلك الصباح أكبر من أي حشد آخر سبق له أن جاء لمشاهدة عملية شنق. وقد كتب قسيس السجن في وصف هذه الحادثة:

"في طريقي إلى تيبرن أصمَّت أذني اللعنات الهادرة الصادرة عن الناس. وقال لي أحدهم إنه يأمل أنني سأصلي لا لتزال اللعنة عليها وليس من أجل خلاصها. وهتف آخرون بأنهم يأملون أن تذهب إلى الجحيم وأنهم على ثقة بأن الشيطان سيبحث عنها".

ولم يكن هناك شك حول من سيهتم بجسدها. فبعد الإعدام أنزلت وأخذت إلى قاعة التشريح حيث شرحت ثم عرض هيكلها العظمي على الجميع.

وبعدما يقرب من عامين مرا على إعدام إليزابيت براونريغ، وُلد عفريت في مملكة نابولي. وكان اسمه غايتانو ماموني. وسيرته فريدة من نوعها في سجلات الجرائم. ولم يُعرف إلا القليل عن طفولة غيتانو؛ لكن عرف عنه بأنه تزوج وهو ما يزال شاباً صغيراً. ولم تلائمه حالة الزواج لأنه قتل زوجته وطفله. وقد قتل الطفل لأن صراخه كان يزعجه في النوم، وقتل زوجته لأن شكاواها لم تعجبه.

يقال عنه إنه كان رجلاً ضخماً ذا قوة وحيوية أسطوريتين. وطبقاً لما تقوله بعض الروايات كان يستطيع أن يرفع حصاناً دون عناء ويستطيع ليَّ قضبان الحديد على ركبة واحدة. إن مدى صدق هذه القصص موضوع جدل، ولكن ما من شك في أنه كان مصاص دماء متوحش.

بعد التخلص من زوجته وابنه تزعم غايتانو عصبة من اللصوص كانت تسطو بشكل أساسي على المسافرين. وإذا كان المسطو عليهم محظوظين توفرت لديهم أشياء ثمينة ترضي اللصوص ونجوا. أما إذا ما أحس غايتانو لأي سبب كان أنه قد خدع فإن أسراه يعذبون حتى يتكلموا أو يموتوا. وكان له امتياز كبير على السفاحين الآخرين من زمرته – وهو الحماية الملكية. فبإعلانه عن ولائه الشديد للملك فرديناند الرابع، سيئ الصيت،

راح يخدم التاج كجاسوس. وأمّن له عمله هذا حصانة تامه تجاه القانون. ولهذا راح يجوب الجبال والقرى ليقتل ويغتصب وينهب كما يشاء.

وأمر واحد فاق كل شيء آخر، هو الذي جعل اسم غايتانو مرادفاً للذعر، وهو عادته في شرب دماء البشر. فقد كان يعتقد أن هذا هو سبب تمتعه بقوته الفائقة.

كان يسمّي الدم "الخمرة القرمزية"، ويدّعي أنه يفضله على خمور إيطاليا وفرنسا وإسبانيا كافة. وبما أنه كان يستمتع بالتفرج على عذابات أولئك الذين يموتون ميتات مؤلمة، فإنه كثيراً ما كان يقطع شريان الضحية العاجزة ثم يمتص الدم فيما البائس المسكين ما يزال على قيد الحياة. وعرف عنه أيضاً بأنه يقطع رأس الرجل ويفتح جمجمته ثم يغرف الدماغ ليستخدم ذلك الوعاء الشنيع طاس خمر دموي لشرب الأنخاب.

وتوصل غايتانو في النهاية إلى الاعتقاد بحصانته من البلى. ولأنه كان يتمتع بصحة مفعمة غير مألوفة في القرن الثامن عشر فإنه لم يكن لديه ما يخشاه من القانون لأنه كان فوق طائلته. ولأنه كان إنساناً خالياً من أي ضمير أو أخلاق فإن فظائعه لم تكن تقلقه في نومه. في عام 1799 كوفئ برتبة كابتن في الجيش النابولي مما أدى إلى تعزيز مكانته التي لم يكن يرقى إليها الشك أصلاً. ومن خلال مجريات العديد من المعارك أضافت وحشيته له شهرة وجعلت الأعداء يتجنبونه بأي ثمن. ولقد كانت هناك أسباب تدعو إلى ذلك. فذات مرة بعد أن قبض على عدد كبير من الأسرى، حشرهم في حظيرة ودق أيديهم بالمسامير على الجدران، ثم أمر بملء المكان بمواد قابلة للاحتراق. وما أن أغلقت الأبواب حتى أُحرقت الحظيرة ليترمد المساكين فيها.

وعلى عكس أشرار القصص الرومانسية الذين ينهارون دائماً أمام قوى الخير المنتقمة، عاش غايتانو حياة هانئة مديدة ومات في الشيخوخة.

وربما كان أشهر مجرم جنسي في التاريخ كله هو "جاك الممزق" في لندن. ولن يعرف ما إذا كان قد عاش ليستمتع بحياة طويلة لأن المغتصب لم يُقبض عليه أبداً. إن هناك سمة خيالية تحيط بسيرة هذا الجزار غير المعقول. فمن جهة أولى كان يضرب ضرباته بشكل أساسي في منطقة "وايتشابل" المعروفة بشوارعها المعتمة العتيقة التي تتعرج وتضيق لتدخل في الأحياء الفقيرة المنتنة المليئة بالجرذان ثم تخرج منها. هذا المكان كان موئل المتسول واللص والمومس - سعاة الليل كلهم الذين كانوا يتلمسون طرقهم الليلة فوق حصى الشوارع الملفعة بالضباب والظلام والغارقة في الإهمال.

حدثت الجريمة الأولى في عيد الفصح يوم الاثنين من عام 1888. وكانت الضحية مومساً اسمها إيما سميث. وقد وجدت وجسدها مشوَّه تشويهاً رهيباً، بل بارعاً. وفي آب التالي عثر على ضحية أخرى. قالت "لندن تايمز" بشكل موجز: "قال الدكتور ت. ر. كيلين إن الضحية قد ماتت قبل ما يقرب من ثلاث ساعات. الرئة اليسرى مطعونة في مكانين. وطعن القلب، الذي كان مغطى بالدهن، في مكان واحد. ولد كان الكبد سليماً إلا أنه طعن في خمسة أماكن وطعن الطحال في مكانين والمعدة - التي كانت سليمة تماماً - طعنت في ستة أمكنة".

وبعد حادثي قتل آخرين، كانا من النمط المحدد ذاته ولم يقدما أي دليل، تلقت سكوتلانديارد المذكرة التالية: "هذه هي الرابعة. سأقتل ست عشرة غيرها ثم أسلم نفسي".

وقد حملت توقيع "جاك الممزّق". وليس في وسع أحد أن يتأكد مما إذا كان القاتل قد قام فعلاً بإرسال هذه الرسالة الموجزة، إلا أنها قدمت للناس اسما رديئاً يطلقونه على القاتل. ومع استمرار حوادث القتل هيمنت على وايتشابل موجة من الذعر. ووصلت رسائل أخرى من الممزق إلى

الصحافة وإلى سكوتلانديارد كان يكتبها بالدم ويسخر من الجهود المبذولة للقبض عليه. ووصل إلى حد إبلاغ السلطات بأن "النساء المحتشمات في أمان تام".

ومن الصعب تحديد ما إذا كان يشوه ضحاياه قبل القتل أم بعده. ولم يكن لهذا أهمية لأن وحشية عملياته كانت بالغة الإثارة. ومن الواضح أن الممزق كان يعتبر نفسه مقتصاً أو جلاداً وربما كان يستمتع بمتابعة الذعر الذي ينشره.

في 2 تشرين الأول عام 1888 نشرت التايمز آخر رسالتين من الممزق. كانت الأولى مرسلة إلى وكالة الأنباء المركزية والأخرى بطاقة بريدية موجهة إلى سكوتلانديارد. وكانت الأولى تحتوي على وعد بأنه بعد عملية الذبح التالية ستقتطع أذنا الضحية وترسلان إلى البوليس. أما البطاقة البريدية فكانت موجزة تماماً. جاء فيها: "لم أكن أدلك أيها الرئيس العجوز العزيز حين أعطيتك المعلومات. ستسمع عن عمل سوسي جاكي غداً، وهذه المرة سيكون حادثاً مزدوجاً. لقد صرخت رقم واحد قليلاً فلم أستطع إكمال عملي تماماً. ولم يكن لدي الوقت للحصول على أذنين للبوليس".

وبعد أسبوعين بقليل اتضح أن "سوسي جاكي" قد نفذ أكثر مما وعد به. إذ تلقى السيد جورج لوسك رئيس لجنة الأمن الأهلية في وايتشابل طرداً يحتوي على أجزاء من كلية إنسان. وأوحت الرسالة المرفقة بأنها مرسلة من "الممزق". وأوصل لوسك القطعة الدامية إلى السلطات المختصة التي فحصتها واكتشفت أنها فعلاً بقايا كلية بشرية منقوعة بالجن.

وتصاعد السخط الشعبي. وعقدت اجتماعات جماهيرية، وتلقى البوليس أكواماً من الرسائل التي تعرض مقترحات للتعامل مع قاتل وايتشابل. ولكن لم تكن هناك أية مفاتيح لحل اللغز. ثم وفي الساعات

الأولى من صباح 10 تشرين الثاني 1888 ضرب جاك الممزق ضربته الثانية في بيت متواضع يحتوي على شقق للإيجار في 26 دورسيت ستريت. وكالعادة نشرت التايمز القصة بالتفاصيل قائلة:

"كانت المرأة المسكينة مستلقية على ظهرها في الفراش عارية تماماً. وكان عنقها مذبوحاً من الأذن للأذن وحتى العمود الفقري. انتزعت الاذنان والأنف بشكل كامل كما أن الثديين انتزعا من جذورهما ووضعا على طاولة بجوار السرير. وفتح البطن والمعدة، بينما شُطب الوجه إلى درجة لم يعد من الممكن معها تمييز ملامح المخلوقة البائسة. وكذلك فإن الكبد قد انتزعت ووضعت على الفخذ الأيمن. وانتزع القسم السفلي من الجسد مع الرحم ولم يعثر عليه. ليس من الممكن تخيل مشهد أكثر فظاعة أو تقزيزاً".

تمت بعض الاعتقالات بعد الحادث مباشرة. لكن كان من المستحيل إيجاد صلة بين المعتقلين وعمليات القتل. وفي 13 تشرين الأول استقال سير شارل وارين وزير الداخلية ومفوض بوليس العاصمة.

ولم يُحل لغز الجرائم بعدها أبداً ولم يسلم جاك الممزق نفسه ولم يقبض عليه. خمن البعض أنه طالب طب أو طبيب ينتقم لنفسه من المومسات لأنه أصيب بمرض تناسلي. وافترض آخرون أنه متعصب ديني أو نحات مجنون أو فنان معتوه. وقدمت نظرية جديدة تفترض أن الجرائم من فعل امرأة مجنونة قوية؛ "قابلة أصيبت بالجنون". وهذا الافتراض الأخير بعيد عن الاحتمال لأن الممزق شوهد فعلياً مرة واحدة ووصف بأنه رجل قصير ممتلئ مكفهر في الثلاثينات من العمر طوله خمسة أقدام وسبعة إنشات يرتدي معطفاً أسود وقبعة سوداء متهدلة. وكان السيد باركر، الرجل الذي قدم الأوصاف، بائع فاكهة وقد باع عنقوداً من العنب لشخص يحمل تلك الأوصاف. وقد تعرف على العنب الذي وجد إلى جانب جثة

ضحية للمزق. وبناء على إلحاح البوليس أغلق كشكه وراح يتجول في الشوارع بحثاً عن القاتل. وبعد أسبوع من الفشل المحطّم للأعصاب استطاع بارك أخيراً أن يعثر على طريدته عند هبوط ظلام اليوم الثامن. وحين التفت بسرعة لطلب العون أعطى جاك الممزق ما يكفيه من الوقت لأن يتسلل في الضباب ويختفي نهائياً.

ولا شك في أن القسم الأكبر من سحر الممزق ينبع من الغموض المحيط به؛ فهو يجسد الرعب المجهول الواقف على الخط الدقيق الفاصل بين الجاذبية والنفور.

ولو أنه ألقي القبض عليه لتلقى مئات رسائل طلب الزواج من النساء اللواتي لديهن نزعة تدمير الذات واللواتي يَتقن لأن يتعرضن لهجومه. وليس هذا بالأمر الغريب، فهو يحدث تقريباً في كل مرة يتم فيها التعرف على مجرم أثيم.

تختفي هالة السحر في معظم الأحيان حالما يتم القبض على مجرم من نوع الممزق. ولا يحتاج المرء إلا لإلقاء نظرة على السير التي يقدمها كرافت إبنغ ليرى أن هؤلاء القتلة الساديين هم عادة رجال مشوشون مصابون باضطرابات عقلية. وأعمال التعذيب والتمثيل بالجثث ليست إلا مظاهر مرضية. وتشتمل كل حالة من هذه الحالات على شخص تتشابه جرائمه مع جرائم جاك الممزق. وفي كثير من الحالات هي أكثر فظاعة؛ لأنهم بالإضافة إلى ارتكاب أعمال التشويه الشنيعة، كانوا يهاجمون ضحاياهم جنسياً أيضاً. وهذا أمر لم يكن جاك الممزق يقوم به. فإذا كان دافعه هو تحقيق المتعة الجنسية فإن القتل وبتر الأعضاء كانا كافيين لتحقيق رغباته الشاذة.

وممزق آخر أكثر شذوذاً من الناحية الجنسية هو الفرنسي، فاشر، الذي ارتكب إحدى عشرة جريمة قتل في 1890. وقد سقطت نساء وفتيات

وشبان ضحايا لساديته. ولخص كرافت إبنغ جرائم هذا الوحش بقوله: "إنها كانت تحتوي على الخنق وقطع الرقبة وفتح البطن وتمزيقه وتشويه الجسد وقطع أجزائه وخاصة الأجهزة التناسلية والإشباع النهائي للرغبة الجنسية من الجثة".

وقد وصف الباحث البارز في علم الجريمة، سيزار لومبروسو، قاتلاً منحرفاً ذا نوعية مختلفة أيضاً. كان القاتل فنسنزوفرزيني يندفع إلى جرائمه بدافع جنسي منحرف غريب. حين كان طفلاً اكتشف أن اعتصار أعناق الصيصان وقتلها يثير فيه إحساساً غريباً ممتعاً. وبعد أن كبر في السن تحول إلى النساء. ولم يكن يعرف شيئاً عن العلاقة الجنسية بالمعنى الشائع. إلا أنه من خلال التحري، وبعد سلسلة من جرائم القتل التمزيقية الشنيعة، أوضح عن مشاعره بجلاء. كان خنق المرأة يكفي، غالباً، لتحقيق الانتصاب والقذف. وحين كان ذلك يتحقق بسرعة فإن الضحية تجد أمامها فرصة أن تنجو بنفسها. وإلا فإن برزيني قد ينتزع أحشاءها ويشرب دمها ويصل حتى درجة اقتطاع شرحات من لحمها يحملها معه ليأكلها فيما بعد. واعترف بأنه لو أطلق سراحه فإنه سيكون عاجزاً عن السيطرة على مشاعره فحكم عليه بالسجن مدى الحياة.

ولحسن الحظ فإن المجرمين المنحرفين مرضياً بهذه الطريقة قلة. وجرائمهم، عادة، جرائم قسرية، دون اختيار. وهي تستمر واحدة بعد الأخرى إلى أن يرتكبوا أخيراً الأخطاء التي تؤدي في النهاية إلى القبض عليهم. وحتى المجرمون من هذا النوع يميلون إلى تدمير أنفسهم مثلما يميلون إلى تدمير الآخرين؛ ولهذا فإنهم مع مرور الوقت يقومون بنوع من خيانة الذات. وعلى الرغم من أن المجرم بسبب عامل الصدمة في سلوكه إلا أنه يكون خطراً بسيطاً. وهذا عائد، ببساطة، إلى الندرة النسبية في هذا المجال. فأكثر المجرمين الساديين إيذاء هو الذي يظل مستمراً في عمله

دائماً. ومعذب الأطفال ومعذب الحيوانات والمتنمر يقوم بأعمال وحشية دون مبرر؛ وهؤلاء كلهم ينضوون في هذه المجموعة. هؤلاء الأشرار هم، بمعنى من المعاني، بعوض المجتمع، أما الممزقون فهم ذبابة التسي تسي[1].

وبعض هؤلاء المجرمين هم أناس معوقون يضربون ضحاياهم أو يقتلونها دون مبرر. وهناك آخرون باحثون عن رعشة الإثارة الوحشية مثل العصبة التي كانت في تولسا، في أوكلاهوما، والتي اقتحمت قبل مدة حديقة حيوان وأمسكت طيور البشروس[2] وأطعمتها للدببة، وهم أسراب ذئبية تبحث عن فرائسها، مثل الحيوانات المفترسة. ولكن، على عكس هذه الحيوانات، ليست دوافعهم هي المحافظة على النفس بل الاستجمام والتسلية.

وقد حدث حادث قامت به عصبة من هؤلاء المفترسين منذ فترة ليست بعيدة في النمسا. كانت الفتاة تغادر عملها مع رفيقها حين أحاط بهما ما يقرب من عشرين مراهقاً أزعر. ضربوا الشاب ورفسوه حتى شارف على الموت. وبعد أن أجبرت الفتاة على رؤية هذا العمل الوحشي، جرها المهاجمون إلى مزرعة مهجورة حيث عريت وربطت وعذبت ثم اغتصبت أكثر من مرة. وقد عاشت الفتاة لتحكي قصتها، إلا أنها عانت من آلام داخلية شديدة تطلبت إجراء عمل جراحي. وكانت جراحها النفسية أسوأ وربما لن تشفى منها أبداً.

والعصابات المتحركة من المجرمين المرضى نفسياً جزء من ظاهرة آخذة بالازدياد منذ أوائل الخمسينيات. ويكاد كل شخص في أمريكا أن يكون على معرفة بصورة "الجامحون" التي هي عصابة من راكبي

---

(1) ذباب مرض النوم.

(2) طيور طويلة الأعناق والأرجل.

الدراجات النارية الذين يرتدون سترات جلدية سوداء. راحت مكانتهم تزداد، وصارت هجماتهم على الأشخاص شبه العزل وعلى المدن عاراً وطنياً.

في فترة من الفترات كانوا يثيرون الشغب والفوضى فقط، أما الآن فهم يقومون بأعمال الاغتصاب والسلب والنهب والحرق والقتل. ولم تتخذ السلطات المعنية خطوات حاسمة كافية لمواجهة هذا الخطر المتزايد، وبدأ المواطنون الغاضبون في جميع أنحاء البلاد يفقدون صبرهم. وبما أن العنف يولّد العنف، فإنه لن يمر وقت طويل حتى يبدأ أشخاص بمفردهم بالقتال رداً على ذلك وبروح أيام الاستكشاف القديمة. وسيعني ذلك تردياً إلى سلوك أقل تحضراً حين يظهر، إلا أنه سيتحول حتماً إلى ذلك إذا تصرف الناس حسب النمط المألوف للسلوك الإنساني.

لقد كان التعذيب والجريمة مرتبطين دائماً بروابط دقيقة. فمن وجهة نظر المثاليين كل تعذيب جريمة، ومن وجهة نظر الذرائعيين ليس جريمة ما لم يقم به عدو. وكثيراً ما تكون أكبر مشكلة هي في تحديد هوية العدو. إن الجريمة لن تزول في القريب العاجل مثلما أن التعذيب لن يزول. ويستطيع المصلحون وباعة العلاجات الفورية أن يتحدثوا حتى تُبحَّ أصواتهم، ولكنَّ هاتين الوصمتين على وجه الأرض ستبقيان طالما أن الإنسان موجود للإبقاء عليهما.

التعذيب العسكري والبحري
وبدايات التوجه ضد التعذيب الحكومي

إن الروابط التي تربط التعذيب بالمؤسسات العسكرية والبحرية قديمة قدم الحضارة نفسها. ولقد كانت الأحكام والقوانين العرفية دائماً، وبالضرورة، أشد قسوة من القانون المدني. ولذا فإنه سيكون من المنطقي أن يكون تطبيق القانون العرفي فظاً نسبياً.

وساعدت المشاهد السينمائية، التي نعرفها جميعاً، أكثر من أي عامل آخر بمفرده، في تكوين انطباع مزيف عن السلوك العسكري. فمن ذا الذي لم يرتعش، في وقت أو آخر من الصورة المروعة للحشود الملونة الصاخبة التي تزحف أمام الشاشة لتغتصب وتنهب وتقتل كل من يجرؤ على الظهور في طريقها؟ لقد حدثت أحداث كهذه بالتأكيد. ولقد حدثت مراراً وتكراراً. وسوف تظل تتكرر طالما أن الإنسان يقطن هذا الكوكب.

ولكن أكثر القوات العسكرية والبحرية تنظيماً وانضباطاً كانت دائماً، وكقاعدة، تفرض التعذيب على رجالها وأحياناً على الأسرى، ولذا فإننا هنا لن نتطرق إلا إلى مظاهر التعذيب العسكري والبحري التي لها علاقة بالنظام وبالعقوبات بما في ذلك ما كان يعامل به أسرى الحرب.

وليس من المفيد الرجوع إلى الوراء لاستعراض أساليب العقوبات

في الأزمنة القديمة أو حتى في العصور الوسطى لمجرد تقديم أوصاف تفصيلية لعقوبات محددة. ولن يكون هذا أكثر من تكرار لمشاهد التعذيب التي قدمناها فيما مضى. وإضافة إلى ذلك، إذا حاولنا أن نتقصى العقوبات الرومانية، مثلاً، فلن نجد الكثير مما يناقش؛ لأن القطعات العسكرية الرومانية كانت حسنة التصرف بحيث كان من النادر أن تكون هناك أية حاجة إلى فرض العقوبات عليها. ولتغطية الموضوع هنا بشكل ملائم، وبغية تجنب الإطناب والحشو، ليس علينا أن نعود إلى الوراء أكثر من مئتي عام. إن أكثر أنماط العقوبات العسكرية والبحرية شيوعاً، إلى ما قبل فترة قصيرة، هو الجلد. وكانت "الهرة ذات الأذيال التسعة" سوطاً مستخدماً بوفرة، وكان استخدامه، كما سنرى، تعذيباً أكثر قسوة مما يعرف الكثيرون الآن. وسبب قلة المعرفة هذه عائد على حد كبير إلى الجهل. ومن حسن الحظ أن حكم السوط قد انتهى. وقلة هم الذين يعرفون فظائعه معرفة مباشرة.

ومن ناحية ثانية، فإن أصدقاءنا، منتجي الأفلام السينمائية، ومن خلال تقديم مشاهد جلد غير واقعية في الأفلام التاريخية، قد ولدوا انطباعاً عاماً يفيد بأن من يتعرّض للجلد يستطيع أن يمسح عنه الدماء ويرتدي ملابسه ثم يركب جواده منطلقاً به في غسق الغروب وكأنّ شيئاً لم يكن.

ولو راجعنا سجل القانون العسكري القديم في ماساشويستس والذي يعود تاريخه إلى 1762 لوجدنا المدخل التالي، الذي يفصل حكماً كان يُطبق بناء على أحكام المحكمة العسكرية. والتهمة هي: "إهمال الواجبات".

"يجلد روبرت ماك نايت ثمانمئة جلدة على ظهره العاري بسوط "الهرة ذات الأذيال التسعة". ويجلد جون كوبي ستمئة جلدة بالطريقة نفسها وبيتر ماك أليستر ثلاثمئة جلدة بالطريقة نفسها. وسيشرف المساعد على تنفيذ

الحكم بمرافقة طبل الاستعراض في الساعة الخامسة من مساء هذا اليوم وسيحضر التنفيذ طبيب جراح".

وتعبير طبل الاستعراض إشارة إلى طبال الفرقة. وكان الطبالون عادة هم الذين يتقنون استخدام سوط "الهرة". ولقد جاءت هذه العادة من الاعتقاد بأن عضلاتهم أقوى من عضلات نافخ البوق العادي بفضل عملية التطبيل. ولذا فقد كان يفترض أنهم يستطيعون الجلد أقسى من غيرهم ولفترة أطول. وكان الجلد شائعاً في الجيش الاتحادي للولايات المتحدة. وفي بعض الحالات بدلاً من استخدام الهرة القديمة المجربة كانوا يستخدمون "قضباناً معدنية على المؤخرة العارية أو على الأجزاء الأخرى من الجسد التي يأمر بها الضابط الآمر".

وكان النوع الأكثر شيوعاً هو "الركض في الممر" أو القفاز، كما نسميه اليوم. وأسلوب تنفيذه كما يلي: كانت القطعة العسكرية كلها ملزمة بالمساهمة في الجلد. تجتمع القطعة في تشكيل سداسي ثم تنفتح الصفوف وتتواجه وكل جندي فيها مزود بسوط. ويجبر المذنب على التعري حتى الخصر ثم الركض بين الصفوف فيما ينهال عليه زملاؤه الجنود بضربة بعد الأخرى على ظهره. ولإعاقة السرعة في الركض ولمنع الركض الخفيف كان ضابط صف يتقدمه حاملاً سيفاً أو حربة موجهة إلى بطنه لضبط خطواته. وفي الجيش البريطاني الذي جاءت منه هذه العقوبة كان ضابط صف آخر يتتبع المذنب ممسكاً بالسوط "الهرة ذات الرؤوس التسعة" لمنعه من الالتفات والسير في الاتجاه غير المطلوب.

ومن أكثر العقوبات التي كانت تستخدم في الجيش الاتحادي إيلاماً نوع من التعذيب كان يسمى "ركوب الحصان الخشبي". وما من عنصر في المشاة، يستحق الخبز الذي يأكله، كان يرغب في "الانضمام إلى الخيالة" بعد أن يكون قد ركب مرة واحدة على هذا الحصان. كان بسيطاً

وشبيهاً جداً بحصان النشر من النوع الذي يستخدم كحاجز مرور. ولكن هناك اختلافاً بسيطاً. فلقد كان يحتوي على عضادة أو عصا توضع أفقياً بين قائمتين متشعبتين تقومان على ارتفاع يقرب من (12) قدماً. وكان المتهم يجبر على امتطاء القطعة المعترضة ويداه مقيدتان وراء ظهره بينما ربطت إلى قدميه حجارة ثقيلة. ويقال إن جندياً هولندياً، ذات مرة، تعرض لهذه المعاملة القاسية ثلاثة أيام متوالية لمجرد أنه سرق بعض الفراريج. ولقد ألغي الحصان الخشبي إلغاء تاماً لأنه كان كثيراً ما يؤدي إلى عاهات دائمة لراكبيه.

والأداة الوحشية الأخرى التي كانت تستخدم لمعاقبة جنود واشنطن هي المدومة. وكانت عبارة عن قفص كبير يحشر فيه المذنب ثم يقفل عليه. ثم وقبل أن يتمكن من تمالك نفسه تدور المدومة بسرعة فائقة. وكان لا بد من التخلي عنها هي الأخرى كأداة للعقوبة لأنها كثيراً ما كانت تتسبب في أذى جسدي لا يمكن علاجه.

والهامش المضحك الذي يضاف إلى استعمال المدومة هو أنها كانت موجودة في المصحات العقلية في ذلك الحين كـ"علاج" للأمراض العقلية.

وقبل الثورة الأمريكية بكثير، كانت نيران التمرد تضطرم بعنف في أمكنة أخرى من العالم الجديد. ومن أكثر المناطق اضطراباً غويانا الهولندية على سواحل أمريكا الجنوبية. هناك، ولعدة عقود من السنوات، كان العبيد المستوردون من أفريقيا يعاملون بوحشية تعصى على الوصف. فالتعامل بالقوة الهمجية هو الوسيلة الوحيدة التي تساعد على منع هذه المخلوقات التعيسة من التمرد. وكان المستوطنون الأذكياء يعرفون أن ثورة العبيد الشاملة ستكون دموية ومدمرة. ولقد تم التعبير عما يمكن توقعه بتشاؤم في كلمات شاعر مجهول كتب:

سيبرز زعيم أفريقي ما يحتقر السلاسل
ويستهين بالمخلعات ووسائل التعذيب والنيران والآلام الممضة وسيقود
زملاءه المتضررين في قتال دموي ضار
ويغتبط بتحقيق مذبحة كبيرة
وعندها سيرد علينا بسخاء في الحرب الانتقامية
دماً بدم وجرحاً بجرح

وعلى الرغم من الاحتياطات كلها، كان تمرد العبيد يتفجر بين حين وآخر. وقد نشب تمرد عنيف جداً عام 1730 وآخر عام 1761، حيث تمترس العبيد المتمردون في الأدغال، فتم استحضار المرتزقة الأوروبيين للقيام بالهجمات وأعمال التدمير والقتل ثم القبض على من ينجو، وبعد تمرد 1761 أرسلت وحدة عسكرية إلى الأدغال لتنفيذ عمليات المطاردة والتقتيل. وكانت تعمل إلى جانبها وحدة أخرى من القوات الهندية الموالية. وبما أن العديد من العمليات القتالية كانت تتم في تلك الأيام على أساس الدفع سلفاً للمقاتلين، كان من الضروري تأمين الطاعة والولاء بالدفع بسخاء وبالسماح رسمياً بالنهب على أوسع نطاق.

وخلال هذه الحملة ارتكب القائد العسكري خطأً فادحاً. فبعد أن نجح في تدمير العديد من المواقع القوية للمتمردين والاستيلاء على كميات كبيرة من الأسلاب لم يقم بتوزيع أي شيء على رجاله. ولم يلاقِ الهنود الإهمال نفسه، بل سمح لهم بالاحتفاظ بكل ما استطاعوا أن يحملوه. وثار الأوروبيون الذين أغضبتهم هذه الإهانة وهربوا من الجيش وتقدموا بأنفسهم على نهر أورينوكو على أمل السطو على مستوطنة إسبانية أو أكثر، للتعويض بذلك عما خسروه.

بعد عدة أيام وقعوا على مخبأ للمتمردين لم يكن قد تم العثور

عليه بعد. ولكن الزنوج، الذين كانوا قد تعلموا جيداً، لم يثقوا بهؤلاء الأوروبيين الذين قالوا إنهم هم أيضاً متمردون وبعد محاكمة طويلة أجبر الجنود الهاربون على إلقاء أسلحتهم. ولكن العبيد الثائرين، الذين كانوا ما زالوا محملين بآثار مظالم الماضي على أيدي بيض آخرين، سرعان ما أمسكوا بالأسلحة وأطلقوا النار على الجنود الخمسين العزل. وهرب الناجون منهم بعد التخلي عن أية فكرة متعلقة بالقتال، ونجح قلة منهم في إقناع العبيد (سابقاً) بأنهم متعاطفون بصدق مع قضية الزنوج وظلوا معهم.

وفي النهاية قام القائد السابق بلم شتات بعض الهاربين ولم يبد أية رحمة تجاههم. وقد شُنق واحدٌ من متزعمي الفتنة في باراماريبو (وكان حظه حسناً). أما الاثنان الآخران وهما ألماني وفرنسي فقد مُدِّدا على المخلعة وضربا بقضبان حديدية حتى الموت. أما المتمردون الزنوج المتبقون فقد قبض عليهم في النهاية وتم شيهم حتى الموت.

ونعود مرة أخرى إلى الثورة الأمريكية ـ لقد أصبح كل تلميذ مدرسة يعرف بمعاناة جنود جورج واشنطن في فالي فورج. ولكن قلة هم الذين يعرفون شيئاً عن المعاملة القاسية التي كانت تنطبق على بعض الأسرى البريطانيين. وعلى الرغم من أن البريطانيين لم يكونوا بشكل عام قساة مع الأسرى بل كان كثيرون منهم إنسانيين ومهذبين، إلا أنهم كانوا دائماً صارمين ومنضبطين. وبين حين وآخر كان بعض القادة الإنكليز لا يعاملون أسراهم المستوطنين وفقاً لقواعد الحرب. فبتصنيفهم، كلهم، تحت قائمة المتمردين الكريهة، كان احتجازهم يتم دون أي اعتبار للمركز أو المكانة مثل زمرة من المجرمين العاديين.

وربما لم تكن هناك وصمة يمكن أن تلحق بجورج الثالث أكبر من الوصمة التي تسبب له بها سفن السجن ذات السمعة البغيضة. وهي سفن حربية عتيقة منسقة صارت المياه تتسرب إليها ولم تعد جديرة بالبحر ولا

فائدة منها إلا باستخدامها كمستودع للسجناء. وخلال حرب الاستقلال سجن كثير من الأمريكيين في هذه السفينة الجهنمية. ومن الصعب تحديد أيها كان الأسوأ، غير أننا نعرف عن سفينة جيرسي (سفينة صاحب الجلالة) أكثر مما نعرف عن غيرها وذلك لأن أحد الأسرى الناجين، الكابتن جوزيف درينغ، احتفظ بسجل تفصيلي عن معاناته. وقد نُشر بعد فكاكه من الأسر بثمانين عاماً (1865).

أسر درينغ وبحارته لدى بريطانيا في أوائل عام 1782 فيما كان يعمل وكيل ربان أول على مركب أمريكي. وتم نقلهم إلى ميناء نيويورك حيث وضعوا في السفينة (جيرسي) التي كانت راسية في نهر هدسون. ويؤكد درينغ أن ما يزيد على عشرة آلاف سجين ماتوا على متن (جيرسي) خلال سنوات الحرب الثورية. وربما كانت ذاكرته قد خانته وكان هذا الرقم هو العدد الإجمالي للأمريكيين الذين قضوا نحبهم في سفن السجن البريطانية. ومهما كان الأمر، فإن الحياة على متن (جيرسي) كانت فظيعة وقاتلة. الأمراض، ومنها الجدري، كانت متفشية. والحد الأدنى للذين كانوا يموتون كل ليلة هو خمسة. كان السجناء يحشرون معاً في حجرات حارة خانقة غير مهواة يصفها درينغ بأنها (مقرفة وعنفة). وكانت الحشرات من الأنواع كافة تأتي إلى الأخشاب المتعفنة وتتراكض بحرية في الممرات القذرة. وكانت الوجبات تتألف من قطع البسكويت المتسوسة والخبز والزيت الزنخ واللحم المتعفن المسلوق بماء البحر وماء الشرب ذي الرائحة الكريهة والذي كان يصفه بأنه مليء بالفضلات و"أسود مثل دبس السكر" وأكثر من ذلك كان الرجال يأكلون كمية أقل بكثير مما خصص لهم حسب القانون البحري المتعلق بأسرى الحرب. ولم يكن هناك شيء اسمه الاستحمام أو الملابس النظيفة.

وكان يسمح لأولئك السجناء المحظوظين الذين لديهم شيء من

المال أن يشتروا بعض الأشياء الإضافية من امرأة عجوز كانت تتردد على السفينة في قارب تموين.

ولكن حين أصيبت بالجدري وماتت لم يحل محلها أحد. ويسمى الكابتن درينغ طباخ السفينة بأنه وحش. وذات مرة طلب من الرجل بأدب جم قطعة فحم ليشغل به غليونه فرد عليه بمغرفة مليئة بالجمر رشقها على وجهه.

وأكبر إساءة حدثت ليلة 4 تموز 1782، فعلى الرغم من الضعف والمرض والمعاملة السيئة كانت معنويات السجناء عالية. وارتفعت معنوياتهم أكثر بقدوم عيد الاستقلال على الرغم من أنهم لم يكونوا في ظروف تسمح لهم بالاحتفال به. فمنذ صباح اليوم الباكر بدأوا يغنون الأغنيات الوطنية دون اهتمام بأوامر حراسهم الصارخة بهم بأن يلتزموا الهدوء. ومع مرور الساعات ازداد الأمر حرارة وضغطاً. وظل الأمريكيون استفزازيين فيما ازداد مزاج مراقبيهم سوءاً. ومع هبوط الليل نفد صبرهم. فساقوا أسراهم بسيوف مشهرة وحراب مسلطة وراحوا يجلدون ويطعنون ويضربون دون تمييز كل من لم يستطع أن يزحف هرباً طلباً للنجاة. وزيادة في العقاب حرم السجناء من حصتهم الليلة من الماء وهي نصف باينت[1]. وفيما يلي وصف الكابتن درينغ لما جرى:

"لا أستطيع وصف فظائع تلك الليلة. كان النهار شديد الحرارة والرطوبة. وكان الحر على أشده في أنحاء السفينة كافة. عدد غير مألوف من الساعات التي حشرنا بها في ظهر المركب، وجو فاسد وحرارة ممضة، وإثارة إضافية وقلق ناجم عن الهجمات العشوائية التي كانت تتم، وفوق كل شيء، حاجة إلى الماء، لم يستطع أحد الحصول على قطرة واحدة طول

(1) وحدة قياس لحجم السوائل، تعادل أقل من نصف لتر.

الليل لتبريد ألسنتهم الجافة، وتجديف أولئك الذين كاد يفقدهم الظمأ المتقد صوابهم. وقد اجتمعت زعقات وتأوهات الجرحى وحشرجات الذين يلفظون أنفاسهم وتقلباتهم لتشكل مزيجاً من الرعب لا يمكن أن يصفه قلم".

مات عشرة رجال في تلك الليلة أي بزيادة 50% على المعدل السائد، وفي اليوم التالي أجبروا على تناول الطعام النيء كما منعت عن الجرحى الرعاية الطبية.

وأخيراً تحسنت الأحوال. علم جورج واشنطن بما كان يجري في سجن جلالته. ومما جاء في رسالة وجهها الجنرال واشنطن إلى العميد البحري ديغبي، آمر الأسطول البريطاني:

"لقد علمت أن الشكوى الأساسية هي في أنهم يحشرون، وفي هذا الفصل بالذات، بأعداد كبيرة أو على متن سفن سجن قذرة وملوثة حيث المرض والموت حتميان".

واختتم مذكرته بالتلميح، بدبلوماسية، إلى ما يمكن أن يحدث للأسرى البريطانيين إن لم تتخذ إجراءات تصحيحية عاجلة، وفهم البريطانيون التلميح هذه المرة، ولكن في السنين التالية - وخاصة في القرن التاسع عشر - كانت الفضائح المتعلقة بسفن السجن وفظائعها تظهر بين حين وآخر.

ليس من الضروري التوقف طويلاً عند التعذيب في البحر لأن الأسلوب الأولي الذي ظل متبعاً لقرون عديدة هو الجلد، وهذا ما سيعرض بالشكل الملائم فيما بعد. إن سلطة الحياة والموت التقليدية التي يتمتع بها آمر السفينة على بحارته هي أساساً من مخلفات الإقطاع. ففي الأيام السابقة للاتصالات اللاسلكية كانت السفينة في البحر مملكة معزولة، وكان سيدها حاكماً مطلقاً أكثر من أكثر طغاة البر استبداداً. وكان

من الضروري اعتماد نظام صارم لكي يبقى على قيد الحياة. ونادراً ما كان القبطان الذي يبدو ضعيفاً أو هشاً يعيش ما يكفيه لتدارك أخطائه.

لم يكن سوط "القطة ذات الأذيال التسعة" يستخدم بناء على رغبة القبطان فقط، فقد كانت هناك بعض القيود التشريعية. ولقد تقيدت الولايات المتحدة الأمريكية سنوات عديدة بالمادة الثلاثين من القانون العسكري والذي جاء فيه: " كما أنه (أي القبطان) لن يوقع، بالسلطة الممنوحة له، أية عقوبة على أي نفر تتجاوز الاثنتي عشرة جلدة بالقطة ذات الأذيال التسعة ولن يسمح باستخدام أي سوط سلكي أو غيره باستثناء القطة ذات الأذيال التسعة على متن سفينته، ولن يفعل ذلك أي ضابط يتسلم القيادة صدفة أو يتسلمها في غياب الضابط القائد (إلا إذا كان هذا القائد غائباً لفترة في إجازة) أو يوقع أية عقوبة غير الاحتجاز الذي سيقدم عنه تقريراً لدى عودة ذلك الضابط القائد الغائب".

ولكن المادة الثلاثين، للأسف، لم تمنع قادة وحشيين في أعماقهم لمسةٌ من محامي البحر[1] من توقيع عقوبات مبالغ بها تزيد عن الاثنتي عشرة جلدة المقررة. كل ما كان يحتاج إليه هو أن يفسر القانون على هواه. لنفترض أن بحاراً كان ثملاً وصاخباً وعاصياً ومجدفاً. يتعرض هذا البحار لاثنتي عشرة جلدة لسكره ومثلها للسلوك الشائن ومثلها لاستخدام لغة بذيئة ومثلها لعدم الطاعة. ما الذي يمكن أن يمنع (عريف الملاحين) من إيقاع عقوبات متتالية أو فرض ثمان وأربعين جلدة إجمالية؟

وكان السوط البحري (الهرة ذات الأذيال التسعة) أداة أشد قسوة، حسب ما يقوله الخبراء، من مثيله في الجيش البري، فهو مصنوع من تسع قطع من الحبال مربوطة إلى حبل ثخين هو القبضة. وكل "ذنب" عليه

---

(1) لقب للبحار المجادل المشاكس.

ثلاث عقد. وبهذا فإن اثنتي عشرة جلدة ينفذها عريف الملاحين ببراعته مستخدماً الهرة البحرية هي أسوأ بكثير من خمسين جلدة ينفذها الطبال العسكري.

ولم يكن على آمر السفينة أن يلزم نفسه بالهرة إذا ما أراد أن يعذب البحار المشاكس. فهناك حالات مدونة لرجال علقوا بإبهاماتهم من طرف عارضة الشراع وجلدوا عراة وهم ممدون على سبطانات المدافع الساخنة، أو ربطوا بالحبال وألقوا عن السفينة لتجرهم وراءها في البحر. وكان المعرضون لهذه العقوبة الأخيرة إما أن يغرقوا أو تأكلهم أسماك القرش. ولم يكن هناك بالتأكيد تعذيب أشد قسوة من الجر تحت العارضة السفلية للسفينة. وكما يمكن أن توحي التسمية؛ كان المذنب يُلقى في الماء ثم يسحب تحت العارضة السفلية في قعر السفينة ثم يجذب من الطرف الآخر. وتكرر هذه العملية أكثر من مرة. ونادراً ما كان مذنب ينجو ليصف محنته.

من الوجهة النظرية، تم إلغاء كل أنواع التعذيب في البحر. ولكن الأمر ليس كذلك من الناحية العملية. ولنتأمل ما يسمى باحتفالات الدخول التي يؤدي طقوسها بحارة معظم الدول عند عبورهم خط الاستواء. في معظم هذه الطقوس يغرقون في لعب فظ ودي قد لا يؤذي أحداً. ولكن اللعبة كثيراً ما تخرج عن نطاقها. في عام 1946 قام هذا الكاتب بزيارة قبرين جديدين في ضواحي مرفأ لشحن المركبات العضوية مجاور لخط الاستواء في تشيلي اسمه توكوبيلا. كان على كل منهما علامة واضحة تحمل اسم المدفون الأمريكي المراهق فيه. لقد مات كل منهما نتيجة "للهو صغير عند عبور الخط". ولم يتجشم قبطان سفينتهما عناء نقل جثتيهما إلى بلديهما لدفنهما. لم يهتم بهما أحد إلا المومسات المحليات وزملاؤهما الشبان الذين يلبسون أحسن ملابسهم ويخرجون إلى

المقبرة الصغيرة كل أحد لوضع بعض الزهور الغالية على هذين القبرين المعزولين. وكانت الزهور في توكوبيلا ترفاً كبيراً، فالماء نادر لأن السماء لم تمطر منذ سبع وعشرين سنة.

ولم تكن القسوة في البحر سلوكاً مميزاً لرجال البحر وحدهم. فقد كتب ريتشارد هنري دانا في هجومه العنيف على الوحشية في الملاحة التجارية في "سنتان أمام السارية" قائلاً:

"سجلت حالات عديدة من القسوة المفرطة تكفي لجعل قلب المرء يغوص في صدره وتجعله يكاد يقرف من رؤية الإنسان، وحوادث عديدة أخرى لم يعلن عنها أبداً ولم تعرف ما لم يخرج البحر أمواته. وأدت عدة حوادث منها إلى وقوع أحداث شغب وقرصنة، ضربة لضربة ودماً لدم".

ومن أبرز المشرعين في موضوع النظام العسكري ضابط بريطاني برتبة جنرال يحمل لقب سير اسمه شارل جيمس نابيير، سي بي (حامل بكالوريوس في الجراحة). فإضافة إلى كونه كاتباً غزير الإنتاج حول الموضوعات العسكرية كان مشرع أنظمة من الدرجة الأولى.

قال: "عقوبتنا هي الموت والجلد والوسم والنفي والسجن ومنع المشروب، والتدريب القاسي وزيادة الحراسة والطرد وتأدية أعمال السخرة".

ولم يكن من ذلك النوع من الجنود العجائز الذين يختفون حين ينتهي عملهم؛ فعلى الرغم من أنه كان قد أصبح مسناً حين كانت الملكة فيكتوريا ما تزال فتاة صغيرة، إلا أن حضوره كان بارزاً في الأوساط العسكرية. والحقيقة أن روحه كانت حية بين الجنود البريطانيين خلال كل معركة ضارية في الحرب العالمية الثانية.

ولئلا يفترض أي امرئ متعجل أن الجنرال كان لديه أي شيء إلا

الاحترام العميق للحياة الإنسانية بعد تفحص بعض نظرياته، سيكون من الملائم الاستشهاد هنا بالنص الكامل للإهداء الذي كتبه لفوجه السابق. وكان هذا الإهداء في مقدمة كتابه القانون العسكري المنشور عام 1873، إلا أنه ما يزال في كثير من جوانبه سارياً اليوم مثلما كان سارياً في حينه. قال الجنرال نابيير:

"مهما كانت السمعة التي يشاء لي حسن حظي أن أكسبها في الميدان فإنني بشكل أساسي مدين لجنود الفوج الخمسين. وحين أعلق وسام (كومبانيون أوف ذا باث) - رفيق الحمام - فإني لا أنسى الرجال الذين بفضل جسارتهم استطعت الحصول على هذا الوسام، وإنني لم أكن إلا القناة التي عبّر من خلالها الملك عن تقديره لهذه الشجاعة. ولم يسبق لي أن ادعيت أن علامة التكريم والشرف هذه قد منحت كلها لي أنا. إنني أحملها كما تحمل الرايات ألوانها، على شرف الملك والفوج.

"الجنود القدامى في الفوج الخمسين، الذين ما زالوا على قيد الحياة، موزعون الآن في أكثر من مكان. إلا أنهم ما زالوا يتذكرون مصر، وما زالوا يتذكرون إسبانيا وأمجاد ابير كرومبي، ومورو، وويلنغتون، فهي ما تزال ماثلة أمامهم مثلما تطفو في ذاكرتهم أحلام الحروب السابقة، لكن هؤلاء الرجال يزولون، يوماً بعد. يتلاشون وهم ما زالوا يفكرون في تلك الميادين التي كانوا فيها محتشدين بأسلحتهم في الماضي. بعد أن فرقهم الزمن ضاع كل منهم من الآخر، الذين سقطوا والذين عاشوا متشابهون تقريباً. إن "كووو فاتافو كانت"[1] هو شعاركم أيها الجنود الشبان. ولقد كان شعارنا: "فويموس"[2].

"إنني غير معروف لشبان الفوج الخمسين، ولكن للجنود القدامى

(1) إلى حيث يدعو القدر.

(2) لقد سبق أن دعينا.

كانت أفواجهم السابقة تبدو وكأنها بيوتهم. إن لدي ثلاثة من أبناء أخي في الجيش ولقد كان والدهم رفيقي منذ الطفولة. وإن إحساسي نحو أخي وأولاده هو بالذات ما أحس به نحو عناصر الفوج الخمسين القدامى والجدد. ولذا فإنني أهدي هذا الكتاب إلى الفوج كأسمى تعبير عن الاحترام أستطيع أن أرفعه إلى ذكرى أولئك الجنود الذين دافعوا ذات يوم عن علمه والذين يحمونه الآن، ذلك العلم الذي خاض معارك عديدة وخرج منها منتصراً".

وعلى الرغم من عاطفيته الواضحة في مجال محدد فإن الجنرال نابيير كان عملياً صارماً حين يتعلق الأمر بحفظ النظام. قال:

"إذا كان الموت تحت التعذيب مقبولاً فإن الجندي الذي يهرب نحو العدو يستحق عقوبة كهذه. ولكن الشائع هو إعدام أنذال كهؤلاء رمياً بالرصاص. بينما يشنق من يرتكب جريمة أقل منها".

وكان داعية عنيداً للعقوبة القصوى. وقد كان يرفض بعناد المبدأ القائل: "إن نجا اثني عشرة مذنباً أفضل من أن يتعذب بريء واحد". ويقول الجنرال إن مبدأ كهذا ليس التفكير السليم فيما يتعلق بسلامة الجيش. وقال: "في ظروف مفترضة قد يتطلب الأمر عدالة من نوع التضحية بالبريء لئلا ينجو بالمذنب".

وكان يؤمن إيماناً عميقاً بأن الشرف والطاعة واحترام رفاق السلاح هي أسمى القيم. ولا يتلاءم مع هذا التفكير إلا القول إن الجندي الممتاز يضحي بنفسه مسروراً إذا طلبت منه الظروف ذلك. وكذلك فإن جندياً كهذا سيوافق ضمنياً على أن التعذيب والموت هما العقوبتان الوحيدتان الملائمتان للجبناء والخونة.

وكان الجنرال يلطف موقفه الصارم بالمنطق دائماً واضعاً خطاً فاصلاً

بين القسوة العشوائية والعقوبة الهادفة. وقد حذر من أن الأفراد المسؤولين عن إيقاع العقوبة، مهما كانت فظيعة وقاسية، يجب حمايتهم دائماً من أن يتحجروا أمام العذاب الإنساني، وكدارس متمعن في التاريخ كان يعرف معرفة تامة أن انضباطيي الماضي، والذين بينهم كثيرون من أبناء بلده، كثيراً ما كانوا يسمحون لمزاجهم الشخصي الميال إلى القسوة أن يتحكم بهم. وكان يحس أن أشخاصاً كهؤلاء ينحطون إلى جلادين شهوانيين لم يعودوا يرون أن العقوبة العسكرية ليس هدفها الانتقام بل هدفها فرض النظام والانضباط ودعمهما. وكما قال: "يجب أن يتدخل العدل وإلا تحجر القلب أمام ما تراه العين".

وطرح أمثولة بائعة السمك اللندنية العجوز التي، حين كان يقابلها شخص عاطفي يعترض، على سلخ الحنكليس وهو حي، تقول له: "بوركت. إنه متعود على ذلك حتى أنه لم يعد يبالي".

هذه الحالة تنطبق تماماً على مشاهد التلفزيون المعاصر الذي يرى الكثير من سفك الدماء والعنف الإلكتروني بحيث أنه حين يواجه الصيغة الواقعية لهما فإنهما لا يثيران فيه أي اهتمام. وكل من يحتك بممارسة التعذيب، سيان كمساهم إيجابي أو كمتفرج سلبي، فإنه يفقد كل قدرة على الإحساس بالضحايا. ولهذا قال نابيير بوضوح: "كل تعذيب أمر بغيض. ولذا يجب تجنبه كلما كان التجنب ممكناً. إنه يبعد المرء بشدة عن الانتقام الذي هو ليس غاية القانون".

وقال إن التعذيب أسوأ من عقوبة الموت، ولذا فإنه لمن الأنبل تخليص المذنب من عذابه بأسرع ما يمكن. غير أنه استخدم عبارة "كلما كان التجنب ممكناً". إذ أنه لم يكن ضد استخدام التعذيب كلياً وخاصة في أثناء الحرب حيث لا يستطيع القائد العسكري أن يستغني عن حياة رجاله. ويقول عندها يصبح من الضروري تماماً حماية الجميع باستثناء

أحط الأوغاد، نظراً للحاجة إليهم في المعركة. ويوضح أن هذه الضرورة هي الشاهد البارز على الأثر الوحشي للحرب على الإنسان.

والتعذيب الذي يرفضه الجنرال نابيير بحزم هو الجلد. ولمعارضته الشديدة لهذا العقاب الشنيع فإن ذكره له هو الأكثر حيوية ودون أن يكون ميالاً إلى الإثارة.

واعتراضاته بسيطة: أولاً أن الجلد تعذيب. ثانياً كونه ينفذ من قبل إنسان فإن تطبيقه لا يصبح متساوياً في كل الحالات. إن طبالاً قد يجلد بشكل ضعيف، بينما يجلد غيره بقوة تجعل أقل حكم ينفذه قد يتسبب في موت الضحية. وكانت له أسباب أخرى ولكن أهمها هو أن الناس لا يتعرضون لفحص طبي قبل تلقي الجلد. ففي المناطق المدارية حيث الأمراض شائعة قد يكون الإنسان عرضة لعدد من الأمراض التي يمكن أن تضعف بنيته إلى درجة أن عدة ضربات بالسوط قد تكون قاتلة. ولم يكن هذا افتراضاً وهمياً، بل كان حقيقة تستند إلى عدد لا يحصى من حوادث الموت في الأطراف المترامية للإمبراطورية.

وهناك حجة بليغة أخرى ضد الجلد كانت لها أهميتها في حينها. كانت آثار الجلد تترك ندوباً دائمة على ظهور الضحايا. وهذه الآثار تصبح عملياً وصمات تصم حامليها بصمت بقية حياتهم كمجرمين. وبما أن الجلد كان يفرض غالباً من قبل محاكم عسكرية ميدانية لمخالفات بسيطة، فإن أفضل الجنود لم يكونوا بمنجى من لسع القطة الذي لا يمحى. ولكن في الحياة المدنية كان الأمر مختلفاً تماماً. فالمجرمون المنحطون وحدهم - بتنصيف الرأي العام - هم الذين كانوا يتعرضون لإذلال الجلد العلني. وكثيرون من المحاربين القدماء المتميزين، الذين يحملون ندوب طيش الشباب، يتعرضون في نهاية حياتهم إلى ارتباكات عميقة لا يستحقونها.

لقد عالج نابيير المشكلة من وجهة نظر الشاهد مثلما عالجها من وجهة

نظر المنفذ قائلاً: "إن تعود رؤية إنسان يعذب ورؤية دمه ينبثق وتشنجاته وتلويه من الألم وسماع صرخاته الرهيبة هو، وأكرر القول، أمر مؤذ للقلب البشري يجعله يتحجر أمام المشاعر السامية".

ولدى الجنرال ذخيرة وافية لدعم موقفه من التعذيب. ولقد ذكر المثال رقيب حكم عليه عام 1792 بألف جلدة مع حرمانه من راتبه ورتبته لمجرد أنه كان واسطة في تجنيد طبالين لصالح شركة الهند الشرقية، وهو يعرف أنهما مدرجان في حرس المشاة. ومن الواضح أن هذا لم يكن فقط حكماً في غاية من القسوة بل كان أيضاً تفريطاً غبياً بضابط صف ذي خبرة كبيرة.

واقترح الجنرال نابيير عدة بدائل للجلد معظمها لا يتسبب في الألم الجسدي، والاستثناء البارز بينها ممارسة التقريح. ويشتمل هذا على وضع لصيقة من الخردل على ظهر المذنب وتركها إلى أن تسلخ الجلد. وتكون النتيجة العامة شبيهة بحروق الشمس القاسية. وتعزى أصول هذه العقوبة الغريبة إلى الميجور جنرال (اللواء) ويلبوراليس دويل الذي كان أول من استبدل الجلد بالخردل. ومبررات استخدام الخردل أنها تجعل المرء أضحوكة بين زملائه الجنود، وكانت مؤلمة دون شك، إلا أنها لم تكن تترك ندوباً دائمة. كانت تشفى في غضون أيام فينتهي احتمال إحداث ارتباكات في المستقبل.

إلا أن أشد ملاحظات نابيير ضد الجلد إنما جاءت في أوصافه له أكثر مما جاءت في دعوته المباشرة ضده، ولم يكن في أي معرض آخر أبلغ مما كان حين قال:

"لقد رأيت مئات من الرجال وهم يجلدون، وكنت ألاحظ دائماً أنه حين يتفلع الجلد تماماً أو يتسلخ فإن الألم العظيم يخف. إن الناس غالباً ما يتشنجون ويزعقون خلال الفترة الممتدة بين الجلدة الأولى والجلدة رقم ثلاثمئة، وبعدها يتحملون ما يأتي حتى لو وصل الرقم إلى ثمانمئة

جلدة أو ألف جلدة، دون إطلاق أنة واحدة. وغالباً ما يتمددون كأنهم قد فقدوا حياتهم. ويبدو الطبالون وكأنهم يجلدون كتلة من اللحم الميت النيء. ولقد لاحظت أكثر من مرة أنه خلال هذه الحالات تظهر على وجوه المشاهدين مسحة من القرف، وينطلق دائماً صوت منخفض هامس قلما يسمع يصدر من الصفوف المتجهمة والصامتة، صوت يصدر عن الشفاه التي لم تتكلم، إلا أنه يصدر عن القلوب التي تحس من أعماقها، وهذا أيضاً في الوقت الذي يؤمن فيه الجنود بعدالة العقوبة ويوافقون عليها. وحينما يكون الطبال المتحمس قد وضع، حتى هذه اللحظة كل قسوته في الجلد، عندها يقول هذا الصوت الهامس غير المسموع لي، في أعماقي وبصوت مرتفع، إن العقوبة قد زادت عن حدها وإن المذنب قد اختفى وحل محله الشهيد. وهذه هي اللحظات التي تصل فيها الرحمة إلى المجرم".

وعلى الرغم من احتجاجات نابيير وغيره ممن يفضلون إلغاء أية عقوبة يمكن أن تنحط إلى مستوى التعذيب، فإن الوحشية استمرت في الجيوش.

وبعض من أشنع الفظائع العسكرية المسجلة كان قد فرضه الطرفان في الهند إبان انتفاضة سيبوي الدامية عام 1857. السيبوي جنود من المواطنين الهنود يخدمون تلك الإمبراطورية التجارية المترامية التي اسمها شركة الهند الشرقية. كان الهيجان يعتمل منذ سنوات. ولم يكن يختلف كثيراً عن القلاقل في هند اليوم. لقد كانت الكراهية المحلية والخلافات الدينية والعرقية تعتمل في شبه القارة منذ قرون. وبعد ذلك فإن الأمراء الصغار الذين يخافون من تمادي التأثيرات الأوروبية بذلوا كل ما في وسعهم ليعزفوا على المخاوف النامية محلياً وعلى انعدام الثقة المتبادل.

وجاءت الشرارة التي فجرت برميل البارود مع دخول بندقية (مينيه) وذخيرتها المشحمة. كان لا بد من قضم أحد طرفي الطلقة قبل تذخيرها في البندقية. وانتشرت بين الهندوس شائعات تقول إن الشحم مصنوع من

دهن البقر. وبما أنهم يعتبرون البقر مقدساً فإن المسألة أثارت غضبهم. إن أكل لحم البقر يجعل الهندوسي يتدنس ويفقد مكانته في الطائفة. واعتبر الكثيرون أنها جزء من مؤامرة أوروبية ماكرة تهدف إلى فرض المسيحية على الهند. وانتشرت بالقوة نفسها شائعة مشابهة بين الجنود المسلمين مع اختلاف وحيد هو أن الطلقات مشحمة بدهن الخنزير. وكانت ردود الفعل لدى المسلمين متطابقة تماماً مع تلك التي حدثت لدى الهندوس.

وبدأت البوادر الأولى للقلاقل تظهر في شهر كانون الثاني. ومع مرور الأشهر انتشر الشغب بعنف انتشار عاصفة نارية هائجة. وبما أن السيبوي يفوقون الجنود البريطانيين بنسبة خمسة إلى واحد فإنهم ضربوا ضرباتهم بضراوة مفاجئة من البنغال وعبر وادي الغانج كله. قتل رجال ونساء وأطفال ومثل بجثثهم وانطلقت حوادث الاغتصاب والسلب بسرعة الأمراض السارية. وصرخ اللندنيون المذهولون وهم يقرأون عن هذه الحوادث الرهيبة مطالبين بالانتقام. وأسرعت التعزيزات إلى الهند وقمعت حوادث الشغب ولكن ليس دون ذلك التبادل الشائع: إرهاب لإرهاب.

وثمة حادث وصفه وليم هوارد راسل، مراسل لندن تايمز، يعتبر حادثاً نموذجياً لما جرى في تلك الفترة الدامية. فقد حكى عن حادث جرى بعد أن كان السيبوي قد قتلوا ضابطاً من كتيبة من طائفة السيخ. حوصر عدد من السيبوي في بيت صغير وظلوا يقاومون ثم...

"بعد أن تهدمت الجدران في أكثر من جانب بفعل الطلقات والقذائف وبحيث بدا من المستحيل على عناصر الموقع الصغير الهرب، اندفعت مفرزة من السيخ إلى داخل البيت - كان بعض أفراد السيبوي ما يزالون أحياء فقتلوا بطريقة رحيمة، ولكن لسبب أو لآخر لم يكن من الممكن فهمه سحب أحدهم إلى الفسحة الرملية خارج المنزل، تم سحبه من رجليه إلى مكان ملائم حيث علق وبدأ الجنود يطعنون وجهه وجسده فيما

راح آخرون يجمعون وقوداً لمحرقة صغيرة. وحين تم تجهيز كل شيء أحرق الرجل حياً.

كان هناك إنكليزي يتفرج ورأى الحادث أكثر من ضابط. ولم يحاول أحد أن يتدخل، وتفاقم هول هذه الوحشية الجهنمية حين حاول المنكود البائس أن يهرب وهو محترق وأقرب إلى أن يكون ميتاً. بقوة مفاجئة قفز وفيما اللحم يتدلى من عظامه حول أن يركض بضع ياردات قبل أن يمسك ويعاد ويوضع على النار من جديد. وثبت بالحراب على النار إلى أن ترمدت بقاياه.

وقال صديقي: إن صرخاته والمشهد المرعب سوف تلازمني حتى ساعة موتي.

- لمَ لم يتدخل؟!

- لم أجرؤ. كان السيخ هائجين. لقد فقدوا أندرسون. ورجالنا شجعوهم. ولم أستطع أن أفعل شيئاً".

لم أستطع أن أفعل شيئاً.

هذه الصرخة مألوفة. ويذكرها كثيرون ممن راحوا يتقصون عن الفظائع النازية.

إن ذروة الوحشية التي يصلها الناس في الحرب ليست وقفاً على شعب أو أمة. فأسماء مثل أندروسونفيل واشوتز ستذهل وتصدم أجيال المستقبل طالما ظل هناك من يهتم بتذكرها. ولكن معظم الناس، للأسف، يميلون إلى النسيان وينظرون إلى مظالم الماضي بلا مبالاة ويندفعون إلى الدفاع عنها والتقليل من شأنها أو إنكار كل ما قام به أبناء بلدهم. فالأمريكيون الذين يسخطون لدى سماعهم قصصاً عن الأحداث النازية أو الشيوعية الفظيعة يرفضون، رفضاً باتاً، أن يصدقوا أن أمريكيين كانوا يسعون إلى

الحصول على رؤوس اليابانيين في جزر الباسفيك ويسلقونها حتى يتساقط عنها اللحم لكي يحولوا الجماجم إلى تذكارات.

ولقد لخصت المسألة قبل وقت ليس بطويل في تجمع صغير حين حكى أحد الزائرين، وهو مواطن أمريكي ناجح ومتأقلم، قصة عن تجربة عاشها في أثناء الحرب حيث كان يخدم كضابط في الأسطول الإيطالي. أصيبت قاذفة مقاتلة أمريكية إصابات بالغة بالمدفعية المضادة. وراحت تهوي بسرعة وتخرج عن سيطرة الطيار. وقبل هبوطها وتحطمها بين مجموعة من الأشجار، انقض فوق قرية كانت فيها مجموعة من النساء والأطفال متجمعة خارج الكنيسة. لقد استطاعوا أن يروا أن الطائرة مصابة ولم يركضوا بحثاً عن مخبأ لأنهم منذ زمن طويل وهم يعتبرون الأمريكيين أصدقاءهم. وبغتة لاحظ أحدهم أن قنبلة مما تحمل الطائرة قد أفلتت. وهنا بدأوا، وهم مذعورون، يصرخون ويركضون بحثاً عما يسترهم. ولكن كان قد فات الأوان. كانت الطائرة منخفضة إلى درجة لم تعطهم وقتاً للهرب. ووصلت القنبلة إلى الساحة فقتلت وجرحت عدداً من الأطفال.

وأسرعت دورية من خفر السواحل، تحت أمرة راوية هذا الحدث، إلى النقطة التي سقطت فيها الطائرة، كانت على مشارف القرية. ونجح العناصر في إخراج الطيار من الحطام واكتشفوا أنه لم يتعرض إلا لجروح بسيطة. كان في الثانية والعشرين من عمره وكان في حالة تقرب إلى الذهول. كان يعرف بما فعله وحين سئل عنه انهار وبكى.

سأله المحقق: لم فعلت ذلك؟!

وقال الطيار وهو يبكي: لا أعرف. أظن أني ذعرت.

ولم ينته الحادث تماماً. فقبل أن يستطيع أن مغادرة المكان وصل حشد هائج من القرويين المسلحين بالمذاري والسيوف القديمة والفؤوس

وكل ما استطاعوا الوصول إليه لاستخدامه كسلاح. كانوا يريدون تمزيق الأمريكي.

صاحوا: قاتل.

وصرخ أحدهم: ما الفرق بينه وبين الألمان؟ لقد قتل أطفالنا.

- اشنقوه، مزقوه.

ولم يكن من السهل إقناع هؤلاء الناس أن الرجل المسؤول عن مقتل أطفالهم هو أسير حرب وأنه مشمول بالحماية التي تمنحه إياه اتفاقية جنيف.

واستطاع الضابط، وهو شخص مقنع، أن يقنع الجماعة بالعودة إلى البيوت. فدم الأمريكي الشاب لن يعيد إليهم أطفالهم.

وبعد سماع القصة صمت كل من كان حاضراً. ثم ارتجف أحدهم بعصبية وتطلع إلى الأرض وقال: "طيب وما الذي يستطيع أن يقوله أي إنسان؟! لقد حدث وانتهى".

وألقى الضابط الإيطالي السابق نظرة حادة على المتحدث وقال: "الحرب تحولنا كلنا إلى وحوش. هذا ما يستطيع أن يقوله كل إنسان".

التعذيب في القرن العشرين

لم تكن صنوف التعذيب كافة والتي مورست على الضحايا المتألمة حتى عام 1899 أكثر من تجارب (بروفات) على الفظائع بالجملة وعلى القتل الجماعي الذي قدر له أن يكون آفة القرن العشرين. حين بزغت شمس الأول من كانون الثاني عام 1900 لم تفكر جماهير كبيرة أكثر من لحظة تفكير سطحي في المستقبل. ولو أن أحداً تنبأ بأبسط الإنجازات العلمية التي حدثت لصار موضع سخرية واعتبر حالماً ذا خيال جامح. ولكن لو حذر واحد من فظائع مثل الإبادات الجماعية أو الإفناء الجماعي النووي لوصف بأنه مجنون خطر.

سيكون من الطيش فعلاً أن نحاول تقديم تغطية شاملة لفظائع القرن العشرين في كتاب واحد. وبالتالي فإن فصلاً واحداً ليس أكثر من موجة صغيرة على سطح مياه مضطربة هائجة. ولكن بما أن إحدى فضائل الإنسان الأصلية هي الرغبة المتوارثة في إثارة التموجات والأمواج فإننا سنتابع عملنا مفترضين أن البحيرة ذات المياه المتحركة لا تركد أبداً.

إن معظمنا من مواليد القرن العشرين. ولقد رأى الكثيرون منا أموراً يتمنون أن ينسوها. إلا أنه من الضروري إذا كان البشر سيستمرون ويحافظون على بقائهم، بالنسبة إلى من يتذكرون أن يقوموا بكل ما هو ممكن إنسانياً من أجل صدم من يأتون بعدنا وتخويفهم وإزعاجهم. فإذا كنا

بعملنا هذا، وفي أبسط الحدود، نستطيع أن نمنع تكرار حوادث الماضي والحاضر المرعبة في المستقبل، فإنها لنتيجة تستحق ما يبذل لأجلها من جهود. لكن من أين يبدأ المرء عملاً طموحاً كهذا؟ الجواب: يعود إلى البداية أو على الأقل ما يمكن من البداية، وبالنسبة إلى أهداف هذا الفصل فإن عام 1905 ملائم.

في ذلك العام اندلعت ثورة في روسيا القيصرية. ولقد قمعت. ولكن خلال سنوات قليلة - عام (1911) بالتحديد - ثار السكان المسجونون في هذه البلاد الشاسعة. كان هناك ما يقرب من مئتين وخمسين ألفاً من المحتجزين نتيجة خطة كانت تهدف في الأصل إلى اعتقال مئة ألف في الحد الأقصى. وبمعزل عن الازدحام وسوء التغذية وسوء المعاملة، فقد كانت الظروف المعاشية في سجون روسيا القيصرية رهيبة. لقد استفحلت الأمراض - الإسقربوط (من أمراض اللثة) والزحار والكوليرا والسل - لتضاعف أرقام الضحايا نظراً لانعدام الشروط الصحية. وفي بعض السجون وصل السفلس إلى درجة الوباء، وكان الطعام بشكل عام غير صالح لأن يستهلكه البشر.

بشكل ما نجا شخص محظوظ وظل على قيد الحياة، وهذا الشخص اسمه بيتر سيرجييف وكان في سجن ادريل السري الشهير. وكانت جريمته هي الانتساب إلى أحد الأحزاب الثورية اليسارية العديدة. وقد كتب يصف استجوابه على الشكل التالي:

"بغتة أحسست بشيء يحرقني على رأسي وظهري وكتفي. سقطت على الحجارة الباردة ورحت أعض وأخدش وأمزق بأسناني كل ما استطعت الإمساك به. كان جسدي يلتهب وكأنه في فرن ولكنني لم أكن أحس بأي ألم. وكان فمي مليئاً بالدم والشعر وإحدى عيني غائمة.

لا أستطيع أن أتذكر إلا آخر ضربة تلقيتها. كانت رفسة في الوجه

مباشرة من حذاء عسكري مليء بالمسامير. ولم أعد أستطيع رؤية شيء إلا الدوائر الخضراء والصفراء. وغبت عن الوعي".

وكانت هناك فصول تعذيب أخرى للسجناء في أوريل. وقد وصفها سيرجييف بقوله: "أشنع أنواع التعذيب هما الحجرة السوداء وندف الصوف. ولا شك في أن الحجرة السوداء لم تكن تدفأ في الشتاء ولم يكن على السجناء أية ملابس إلا ملابسهم الداخلية الكتانية. يتم إلقاؤهم على الحجارة الباردة جداً، والسجناء الذين يقاومون يتم إلقاؤهم في سترة المجانين[1] مع ربط اليدين والرجليين ثم تتكرر عملية إلقائهم على الحجارة وهم على هذه الحالة. ما من أحد يستطيع أن يصمد لهذه المعاملة كما أن لها أشنع أنواع النتائج.

ولكن ندف الصوف يظل أبشع. الحجرات التي يندف فيها مرشوشة بغبار سام. ولم يكن فيها أي هواء للتنفس. فبعد نصف ساعة تبدأ عيناك بالاحمرار والالتهاب. وما من أحد يستطيع أن يصمد في هذه الحجرات أكثر من ثلاثة أو أربعة أشهر. يتفاقم مرض السل ولا يظل أمام السجناء إلا أحد أمرين – المستشفى أو القبر".

ولنتذكر أن هذه الكلمات قد كتبت تحديداً قبل وصول الشيوعية إلى السلطة. ويتابع سيرجييف إلى أن يقول: "لقد آن الأوان للصراخ بهذه الأمور أمام العالم لكي يعرف تماماً أن مهزلة النظام الذي هو سجن وظاهره تحديث وشرعية ليس إلا أكذوبة، وأن هذا النظام العفن، في حقيقته هو استبداد غاشم، وهو نظام التعذيب الجسدي والمعنوي الذي تبدو أمامه فظائع محاكم التفتيش باهتة".

ويحكي روسي آخر هو غريكور ألكسنسكي عن المعاملة التي لاقاها

---

(1) السترة التي تقيد حركة الجسم.

عدد من الثوريين الذين اعتقلهم بوليس ريغا عام 1906. فيقول "إن أظافرهم وشعورهم اقتلعت وإنهم كانوا يضربون على أعضائهم التناسلية وكانت عظامهم تكسر".

الحالة شائعة. وتحدث كلما كان هناك رجال ونساء يعبرون عن مواقف ثورية ويشاء لهم سوء حظهم أن يقبض عليهم. لقد ماتوا بالآلاف. لكن الذين ظلوا أحياء يتذكرون. كانوا ينتمون إلى فصائل سياسية مختلفة. وكانت أصولهم العرقية والدينية واللغوية مختلفة إلى أبعد الحدود. ولقد كان الكثيرون منهم أعداء تقليديين أحدهم للآخر، إلا أنهم الآن موحدون مؤقتاً من خلال كراهيتهم المشتركة للنظام ورغبتهم المتأججة في الانتقام.

وأخيراً أشرق يومهم فأسقطوا الحكومة القيصرية الفاسدة. وفيما كانوا يتقاتلون فيما بينهم من أجل السلطة طرحوا ضد الروس البيض نظاماً رهيباً جعل الثورة الفرنسية تبدو غاية في اللطف.

وهذا ما لا يمكن إنكاره. هناك كمية هائلة من القرائن الموثقة التي تؤكد أن كثيرين بين الضحايا الجدد قد عذبوا تعذيباً مروعاً قبل أن يقتلوا شنقاً أو بإطلاق الرصاص عليهم.

وقد كشف تقرير بريطاني من فلاديفستوك في كانون الثاني (1919) أن ضباط الجيش القيصري الذين اعتقلهم الحمر قد ثبت حمالاتهم بالمسامير على أكتافهم وبعضهم اقتلعت عيونهم. وفي منطقة أخرى عثر على أجساد مشوهة بوجوه مجرحة وعيون وألسنة مقتلعة ودل تشريح الجثث على أن هذه الفظائع قد حدثت قبل الموت.

وتقول فقرة من التقرير ذاته المرفوع إلى وزارة الدفاع البريطانية: "في بلاغوفشنسك عثر على ضابط وجنود من كتيبة توربولاف وقد غرزت إبر الغرامون (الحاكي) تحت أظفارهم، واقتلعت عيونهم وآثار مسامير على أكتافهم حيث تلبس الحمالات".

حدثت فظائع البولشفيك في عام 1918-1919. وكان العالم في ذلك الحين قد تعود سماع هذه القصص. وكانت كلمة "فظاعة" قد استخدمت كثيراً جداً خلال السنوات ما بعد 1914. وهو تعبير سهل الاستعمال لأنه يضمن إثارة الكراهية المباشرة، وهذه حاجة ضرورية في أثناء الحرب.

إن كلاً من الطرفين المتقاتلين يعد حصته من الدعاية المرعبة المعادية. وكان بعضها حقيقة ملونة بتعبيرية عاطفية، وبعضها الآخر من صنع الخيال. ولكن حين يكون الأمر فظيعاً فعلاً لم تكن هناك حاجة إلى أي شيء إلا تقديم ما حدث فعلاً، أمام العالم.

وأشد ما ظهر من الحرب العالمية الأولى فظاعة كان مذبحة الأرمن على يد الأتراك. وكانت القصة قديمة. الأرمن، إضافة إلى كونهم أقلية في الإمبراطورية العثمانية، هم (مسيحيون كفرة)، وكان الأتراك يغيرون دائماً على القرى الأرمنية، وكان التعليق الشائع عنهم أنهم (يفضلون أن يصلبوا على أن يختنقوا)، وحين احتج الأوروبيون قيل لهم بفظاظة: اهتموا بشؤونكم.

وأحس الأرمن بارتياح واضح حين أسقط عناصر (تركيا الفتاة) السلطان عبد الحميد الثاني. ولاقتناعهم بأنهم سيلقون معاملة ألطف من النظام الجديد فقد أعلنوا تأييدهم. ولكن عناصر تركيا الفتاة كانوا ينظرون إلى الأرمن مثلما كان ينظر إليهم عناصر (تركيا العجوز)، ومع اندلاع الحرب العالمية الأولى قرروا إبادة الأقلية الأرمنية بكاملها على أساس واه من (الحاجة العسكرية).

وابتداء من عام 1915 كان ما ارتكبه الأتراك بحق الأرمن مشابهاً لما فعله النازيون باليهود بعد عشرين عاماً. كانت مذبحة مدبرة. وكانت الأساليب التي اتبعها كل من الأتراك والألمان متشابهة إلى درجة مروعة.

ولقد قيل إن الألمان استلهموا إلى حد ما، ما كانوا قد رأوه في تركيا، لأن كثيرين منهم كانوا قد خدموا كمراقبين عسكريين حين كانت تحدث عمليات الترحيل الجماعي والتقتيل الجماعي.

وبشكل دائم، كان الجنود والشرطة يشنون غارات ليلية مفاجئة، يجرّون فيها أُسَراً بكاملها من نومها ويسوقونها كقطعان الماشية في مجموعات تبلغ عدة مئات. وبما أنهم كانوا يتعرضون للضرب والدفع والتجويع فقد كانوا يموتون بالمئات. كثير من الأمهات ألقين بأبنائهن في آبار كي يمنعن عنهم التعذيب حتى الموت.

وفي عام 1916 ازدادت المجازر. أحرقت مدن بأكملها وقتل سكانها جميعاً. وقال مراقب ألماني: (كان كل ضابط يتباهى بعدد من قتلهم بنفسه كإسهام منه في تخليص تركيا من الشعب الأرمني).

ولدى شهود آخرين حكايات أكثر شناعة ليحكوها، فقد كان الأرمن المحكوم عليهم يتعرضون لعمليات تعذيب تذكر بميتات الألف جرح. الأثداء تقطع، والعيون والحواجب تقتلع وكان هذا كله يجري ليلاً وبنظام، ولكيلا يسمع الناس صرخاتهم ويعرفوا بعذاباتهم كان الجنود يحيطون بالسجون وهم يدقون الطبول وينفخون الأبواق والصافرات.

واستمرت الإبادة الوحشية المنظمة لهؤلاء الناس إلى أن تعرض الأتراك، كحلفاء ألمانيا، لهزيمتهم العسكرية. وحتى انتهت كان أكثر من ثلاثة أرباع المليون من الأرمن قد ذبحوا عشوائياً. وقد كتب أدمون كاندلر، مراسل لندن تايمز، في 21 حزيران 1917:

"في حلب ورأس العين كان الضباط الألمان يسيرون جنباً إلى جنب مع أشباح المجاعة والجريمة والموت دون أن ترتفع إصبع أو تقال كلمة. وشعارهم هو: (التدخل غير لائق)".

والمراسل الألماني الدكتور هاري شترومر صدمه تصرف أبناء بلده، فاتهمهم بـ (أحط الجبن). وفضح ضباطاً ألماناً لمشاركتهم العملية في المذابح. واعتبر الألمان أن الدكتور شتومر غاية في الوقاحة وقلة الأدب فوجد أن الأفضل له أن يكتب من سويسرا.

وما من مكان في العالم كانت فيه ردود الأفعال على أعمال القمع الوحشية في البلدان الأجنبية أكبر مما هي في أمريكا. فهناك سكان مصممّون ذاتياً ذوو قلوب تفصلهم المحيطات والزمن عن أشنع مظاهر السلوك الإنساني. وحين يحدث هذا في بلدتهم أو قربها لا يتحدث عنه أحد، وحين يسألون عن أمور كهذه هناك دائماً أجوبة تافهة مثل: (أنت لا تفهم. ليس الأمر ذاته).

ولذا، فإنهم بالنسبة إلى معظم الأمريكيين، وخاصة في العشرينيات والثلاثينيات، لم تكن عمليات الإعدام دون محاكمة أو تطبيق (الدرجة الثالثة)[1] تشكل بالنسبة إليهم تعذيباً. والنموذج الأمثل لهذا الموقف هو التعليق الذي كتبه الكاتب الصحفي ويستيروك بغلر بعد أن أُعدم رجلان دون محاكمة على أيدي جماعة هائجة في سان جوزي بكاليفورنيا في تشرين الثاني 1933، حيث قال بيغلر: (جميل هذا ورائع).

وماذا عن الضحيتين؟ كيف أحسّ بالمسألة الرجلان اللذان كانا يتلقيان؟ هل سألهما أحد ما إذا كان يعتبران نفسيهما معرضين للتعذيب؟ وماذا عن الزنجي جيمس إروين من أوسيلا بجورجيا؟ حدث ذلك عام 1930، في الوقت الذي لم يكن شائعاً فيه معاملة الزنوج كمواطنين ولنتجاوز كونهم بشراً. اتهم هذا الزنجي بجريمة قتل. حسن جداً. إنه يستحق العقوبة القصوى التي حددها القانون. ولكن ما تعرض له من قبل مواطني بلدته لا يمكن العثور عليه في أي كتاب قانون أمريكي.

---

(1) الاستجواب عن طريق التعذيب.

جره حشد هائج من سجنه، وأخذوه إلى منطقة مشجرة ثم ربطوه إلى شجرة فيما كان أهالي جورجيا الطيبون متحلقين من حوله بشغف. وبعد ذلك وفيما بعد كان أروين يمزق نفسه صراخاً؛ بدأ عدة أشخاص بتقطيع أصابعه، الجميع دفعة واحدة. وحين انتهوا من ذلك انتقلوا إلى إبهاميه. لقد قضوا في تلك الليلة وقتاً جميلاً. هتفوا وهللوا وشربوا الويسكي المحلية و(لقنوا ذلك الزنجي التافه درساً جيداً حقيقياً)[1] وبعد أن رتبت أصابعه اقتلعوا أسنانه بالكماشات وأنهوا العملية بخصيه. بعد ذلك رشوا عليه الكازولين وأشعلوا فيه النار - تذكير مؤس بما كتبه الجنرال نابيير عن الأمريكيين قبل ما يقرب من قرن: (يا رب نجنا من الجمهوريات التي فيها الزنوج الأرقاء يحرقون أحياء).

ولأنه رفض أن يموت بسهولة، وظل يتلوى قليلاً، اندفعت حفنة من الصبيان الذين صدف أن كانت بنادقهم في أيديهم، واستخدموا ضحيتهم الملتهبة كدريئة. كانت ليلة لا تنسى. هناك عدد من المواطنين المحترمين الذين ما زالوا يعيشون في أوسيلا ممن لا يزالون يحسون بومضة من التوق المرضي (نوستالجيا) عندما يحرقون الصلبان أو تحدث لهم مشكلة في الكاربراتور[2].

أما الدرجة الثالثة فهي عرف أمريكي آخر. وإننا لنود التصديق بأنه لم يعد موجوداً ولكن من الصعب تأكيد ذلك. لم يسبق للبوليس أبداً أن كان بمنجى من الهجمات المفاجئة. وبما أنهم بشر فمن المؤكد أنهم ينتقمون. لقد ازدهر أسلوب (الدرجة الثالثة) في العشرينيات والثلاثينيات. وكثير ممن لم يتعرضوا له يظنون أنه أكثر بقليل مما يشاهدونه في أفلام العصابات. وإننا لا نستطيع إلا أن نتساءل عما ستكون عليه ردود أفعالهم

(1) بالعامية الأمريكية.
(2) المكربن: أداة لمزج الهواء بالبترول بغية إحداث مزيج متفجر - المورد.

لو تجلت الحقيقة أمامهم. الأمثلة التالية حدثت في الفترة المذكورة آنفاً في منطقة مركزية شمالية واسعة.

كانت الفكرة العامة بسيطة، وهي تعذيب السجين إلى أن يعترف أو يكشف عن أسماء شركائه. وكانت الحاجة إلى إبداع اليانكي متأصلة في عدم شرعية التعذيب والحاجة الماسة إلى تقديم السجناء إلى المحاكم سليمين أصحاء. ولم يكن هذا بالعائق الذي يسهل تجاوزه، ولكن الذكاء والمثابرة فازا أخيراً. وكانت النتيجة النهائية عملاً تقليدياً جددته التكنولوجيا المعاصرة.

كانت الأسلحة الرئيسة المستخدمة قطعاً ثخينة من خراطيم مطاطية أو قطعاً طولية من الإطارات المطاطية وهراوات جلدية وعصى الشرطة وبرجميات[1] نحاسية ولفافات مشتعلة أو السيجار المشتعل. وكان الخرطوم المطاطي أداة نموذجية لأنه لا يترك أية علامات دالة. قد تحدث بعض الكدمات أو التورمات الخفيفة ولكنها كانت تترك لتزول قبل جلسة المحاكمة. والطريقة الأفضل والأكثر فعالية في استخدام الخرطوم المطاطي هي سلسلة من الضربات المتكررة والمدروسة على جانب الرأس.

وكانت من الأمور المهمة أن تكون الفترة الفاصلة بين كل (تطبيق) والآخر مدروسة ومحددة بدقة. فبهذه الطريقة يمكن للسجين أن يتوقع كل ضربة في وقتها. وهذا شبيه بربط الإنسان وترك قطرة ماء تنزل بانتظام على رأسه. وهو أسلوب شرقي قديم في التعذيب يقال إنه يوصل الإنسان إلى الجنون.

ولقد روى شهود عيان لهذه "الاستجوابات" حكايات تجمد الدماء في

---

(1) قطعة معدنية تكسى بها مفاصل اليد والأصابع.

العروق، فهناك حالة مجموعة من السجناء الذي ضربوا ضرباً مبرحاً بعد جمعهم حتى أن أحدهم دفع برأسه تحت مشعاع بخاري "لينقذ رأسه من السحق". فلقد قرر أنه يفضل أن يتعرض لعدة حروق شديدة على أن يفقد أسنانه أو أن يحدث له ما أسوأ من ذلك.

ومن حيث الإبداع المحض، تصعب مجاراة الأسلوب الذي استخدمه ذات مرة رجلا تحرّ كانا قد صمما على جعل المتهم يعترف بارتكابه جريمة قتل. لقد كانا شبه واثقين من أن الرجل مذنب. فلقد شوهد وهو يغادر مكان الجريمة والدماء على ملابسه. لكن ذلك لم يكن كافياً لتحقيق إدانة سريعة. كانت هناك أولاً حاجة إلى الاعتراف. ولم يؤدِّ الاستجواب المباشر والبسيط إلى نتيجة. وفقد المتحريان صبرهما أخيراً فبدآ باستخدام الهراوات الجلدية والخرطوم المطاطي والبرجميات النحاسية. ولكنه كان رجلاً من العمالقة فامتص العقوبة كما يمتص النشاف الحبر. وبعد أن أنهكا نفسيهما كما أنهكا سجينهما خطرت لأحدهما فكرة. أوقفا المتهم على قدميه وطلبا منه أن يرتب نفسه - لم تكن هناك آثار على وجهه - وقالا له أن يستعد لمغادرة المخفر.

أُخذ إلى طبيب أسنان مجاور تربطهما به صداقة ويعرف الجميع من الكابتن إلى أصغر مجند في السلك. وفي عيادة الطبيب قيد القاتل المزعوم إلى الكرسي في الوقت الذي كان يُعقد فيه اجتماع صغير. كان التحريان واثقين من أنه ما من شيء سيحدث له أن يجرم أحداً. وما أن أعطى إشارة البدء حتى "بدأ طبيب الأسنان عملية ثقب بطيئة في الحجرة اللبنية للحرى السفلية الخلفية في منطقة العصب". وبعد أن حشي السن تساءل السجين بقلق عن عدد الأسنان الذي سيتم "تثبيتها".

"كلها" قيل له. ولدى سماعه ذلك اعترف.

ولم يتعرض أي من السجناء لمعاملة أسوأ من المعاملة التي يتعرض

لها "قتلة الشرطة" ففي العشرينيات لم يكتفِ قاطع طريق بقتل شرطي خارج الخدمة، بل إنه أطلق النار على نفسه أيضاً. كان قد حصل مؤخراً على مسدس (كولت – 45) أوتوماتيكي ولم يكن قد تعود عليه بعد. وحين وصل الضابط الذي اعتقله كان القاتل ذاته قد أصبح في حالة خطيرة. ولو أنه كان يعرف بما ينتظره لكان الأفضل له لو أطلق على نفسه طلقة قاتلة.

ضرب بعصي الشرطة ثم، وهو ينزف، جروه من قدميه على الرصيف، وتناوبوا رفسه ثم ألقوه من أعلى الدرج. وبدل أن يؤخذ إلى المستشفى فوراً أخذ إلى مخفر الحي. وفي أثناء ذلك كان جرحه يؤلمه بشدة وكانت الحمى قد انتابته. وحين صرخ يطلب الماء ألقيت على وجهه محتويات المبصقة كلها. وظهرت منطقة من جلده تحت ملابسه الممزقة فأوحت إلى أحد رجال التحري بفكرة. قام بإطفاء سيجارة في المنطقة. وحذا الآخرون حذوه بإلقاء أعقاب السجائر المشتعلة على الأجزاء العارية من بطنه. لم يكن هناك أي شك في هذه الحالة أن الرجل مذنب. ولم يكن من الضروري انتزاع اعتراف منه لأنه كان هناك شهود عيان على حادث إطلاق النار. لقد كانت مسألة انتقام.

وحدث حادث مشابه عام 1926، أطلقت النار على شرطيين في عملية سطو، وهرب اثنان من اللصوص لكن الثالث أصيب في ساقيه وقبض عليه موظفان من موظفي الخزينة صدف أن كانا في الجوار في مهمة أخرى. وسلما سجينهما إلى الشرطة المحلية التي طلبت أن تعرف هويات شركائه. ورفض أن يتكلم. وعندها راحوا يضربون رأسه إلى الجدار دون فائدة. ورفسوه في بطنه فلم يفعل شيئاً سوى التوجع. ولمدة ساعتين كاملتين تناوب رجال الشرطة على ضربه بالهراوات المكسوة بالجلد. وكان هناك صحافي بقي في المخفر لفترة قال: "كان المكان أشبه بالمسلخ في يوم مزدحم بالشغل. كل شيء مغطى بالدم. والشاب كتلة مريعة الشكل".

ومهما بدا الأمر غير قابل للتصديق إلا أنه صمد أمام ذلك كله. وفي النهاية طلب إليه أن يغسل وجهه ويجلس على كرسي. ولأنه ظن أن محنته انتهت فقد نفذ الأوامر بما يشبه الشغف. لكن ظنه لم يكن في محله. قيد إلى الكرسي ثم ضرب بوحشية على تفاحة آدم (عقدة الحنجرة) بالهراوة ثلاث ضربات متوالية. ومسألة أن السجين قد انهار في النهاية وتكلم لم تعد مفاجأة، بل المفاجأة المذهلة أن يكون قد عاش بعد ذلك.

وفي العشرينيات أصبحت روسيا السوفييتية حقيقة، واعتبرت الثورة أهم إنتاج لديها للتصدير. ولقد استقبلت استقبالاً حسناً في الصين حيث يتعايش الفقر والاضطهاد جنباً إلى جنب منذ قرون. وفي عام 1927 استولى الشيوعيون على مدينة كانتون. ومنذ 11 كانون الأول إلى 13 منه، حين استعادتها القوات الحكومية، تعرض المعادون للشيوعية إلى النهب والقتل والتعذيب بكل طريقة يمكن تخيُّلها. وحين عادت السلطة استمرت المجزرة وكان دور الحمر الآن في المعاناة. والذين استطاعوا الهروب تبعثروا في قرى جنوب غربي الصين حيث استمروا في نشاطاتهم الإرهابية. وبعد ثلاثة أشهر قدمت لندن تايمز في عدة أعداد متتالية وصفاً شاملاً لما كان يجري. في قرية واحدة جمع ثلاثون راهباً بوذياً في معبد ثم أحرقوا أحياء. وكان التجار يعذبون لدفع أموالهم بطرق من نوع "غرز شظايا الزجاج تحت أظافرهم". وكانت هناك حالات تستخرج فيها قلوب الضحايا لتطبخ وتؤكل.

وإذا عدنا إلى الاتحاد السوفييتي رأينا أن الظروف تتغيراً جذرياً، فقد أنهى الضحايا السابقون للاضطهاد القيصري برنامجهم الانتقامي، وآن الأوان لإعادة النظر في أساليب التعذيب ثم لتطبيقها بإتقان. بيّن علماء النفس بخبث أن التعذيب العقلي يمكن أن يكون أكثر فاعلية. بكثير، من التعذيب الجسدي، فهناك معامل يجب أن تزود باليد العاملة، ومناجم

تحتاج إلى من يعمل فيها وسدود يجب أن تبنى ومناطق شاسعة من الأراضي يجب أن تزرع. وكان الهدف الآن تحطيم المعنويات للحصول على عمال خاضعين ومنتجين معاً. وقد قال الخبراء إن الجثث لا تساهم في تحقيق الخطط الخمسية. إضافة إلى ذلك كان العلماء قد أثبتوا أن رجالاً ذوي عقول مشتتة يظل في وسعهم القيام بالعمل اليدوي. كانت الحيلة المفضلة لدى الشرطة السوفييتية السرية هي اعتقال الأفراد الذين يشك في أن لديهم مجوهرات ومعادن ثمينة أو محفوظات قيمة صالحة للتداول. ولذا فقد كان اليهود أهدافاً واضحة. كانوا يحشرون في أقبية حارة ومزدحمة بالمئات. وكما كان الأمر في الماضي ظلت الرعاية الصحية غير متوفرة على الإطلاق تقريباً، والعفونة طاغية، والقمل والهوام يغطيان المرضى الذين كانوا يظلون في حالة حركة دائمة. كان الأمر يتم على النحو التالي: ثلاثة أو أربعة أشخاص يؤخذون مخفورين معاً إلى مرحاض واحد. والفراغ الذي يخلفونه وراءهم سرعان ما يمتلئ بآخرين ممن يرغبون في إراحة أنفسهم، أو في استنشاق نسمة الهواء عند المخرج، وحين يعود الذين أخرجوا يدفعون إلى الاحتشاد مع الآخرين من جديد. والنتيجة هي استمرار لعملية التدافع والتوائب والتناكب. ومن الطبيعي أن النوم كان مستحيلاً لأن الزنزانات كانت محتشدة بحيث لا تسمح لأحد بالاستلقاء. الضعفاء منهم كثيراً ما يموتون أو يجنون. والآخرون الذين صاروا لا يطمحون إلا إلى الخروج ينهارون أخيراً ويفعلون كل ما يطلب إليهم. وكانت أسابيع قليلة تكفي لتنفيذ هذه المهمة.

والذين يثبتون أنهم أكثر تماسكاً وهم غير راغبين في التعاون كانوا يؤخذون إلى المفزعة؛ وهي غرفة كبيرة فيها عدة مقاعدة متباعدة ووراء كل مقعد جلس محقق. وكان السجناء يجبرون على الجري بأسرع ما يستطيعون من مقعد إلى آخر حيث كانوا يخضعون لاستجواب مكثف

ودقيق، وبعد فترة (لا بأس بها) كانت معركة ذكاء بين السجين والمحقق - وكان بالمقابل، مبلغ لا بأس به يتم الاتفاق عليه كغرامة على "النشاطات المعادية للثورة" أو أية جريمة تافهة أخرى. وكان الأمر مثل اجتماع مساومة على تدبير عمل. كان المحقق يطلب مبلغاً محدداً وكان المتهم يرد بأنه لا يستطيع أن يدفعه. وتستمر المماحكة إلى أن يستسلم السجين.

وكثيراً ما يبين الذين كانوا سجناء أنهم إذا لم يتعرضوا لهذه المعاملة مدة طويلة، فإنما ليطلب منهم أكثر مما يملكون فعلاً. وكانت الحيلة في إقناع البوليس السري أنهم قد أرهقوا فعلاً. فإذا خطر للمحقق أن ضحيته قد استسلمت بسهولة شديدة فإنه يرفع ثمنه فوراً، والسجناء الذين يتصرفون بحذر كانوا يستطيعون في النهاية أن يحولوا (باختيارهم) جزءاً، فقط من مدخراتهم للدولة، وكانوا يعرفون طبعاً، أنها ليست إلا مسألة وقت قصير سيمر قبل أن يتم اعتقالهم مرة أخرى.

وهناك معاملة خاصة أخرى لأعداء الدولة السوفييتية، وكانت إحدى وسائل التعذيب النفسي القديمة التي طورها الاختصاصيون الروس، وسيلة شيطانية. حيث يوضع السجين في زنزانة ويربط بسترة المجانين. وبمكيدة صغيرة غير مؤلمة تمنع العينان من الإغماض. كانت جدران الزنزانة وسقفها تدهن بأشكال تجريدية براقة مثل الخطوط المنكسرة والخطوط اللولبية والنقاط. إنها شيء شبيه تماماً بـ"الأوب آرت" الحديث. وبعد أيام قليلة من هذا الكابوس البصري كان السجين، إن لم يفقد عقله تماماً، يعترف أو يوافق على أي شيء.

أما الحيلة الوحشية بشكل خاص فقد كانت مخصصة للكهنة الكاثوليك. ويقال إنها ظلت تستخدم حتى إلى عام 1956، وكانت ببساطة عملية بتر السبابة اليمنى بحيث يعجز الكاهن عن رسم شارة الصليب.

إلا أن معظم المعاملات السيئة للسجناء، وعلى الرغم من التجاوزات

الجسدية الوحشية الكاملة بين حين وآخر، كانت موجهة بشكل أساسي نحو تبديل القناعات. وعمليات غسل الدماغ التي انتشرت ذلك الانتشار الواسع إبان الحرب الكورية، والتشوهات الناجمة عنها لدى بعض الأمريكيين، تؤكد فعالية الأساليب الحديثة.

ولا نقترب من حالة فقدان التوازن إلا حين نرجع إلى عصر النازية المظلم وبكلمات النازيين أنفسهم كانت مرحلة Nacht und Nebel (ليل وضباب) زحفاً على أوروبا كلها مثل فطور سامة سريعة الانتشار.

ولم يدم[1] رايخ الألف عام إلا اثني عشر عاماً وأربعة أشهر وثمانية أيام. إلا أنه خلال هذه الفترة القصيرة عرف العالم من الفظائع وأساليب التعذيب ما يُقزّم عهود الإرهاب السابقة كافة. ففي عام 1819 كتب الشاعر شيلي: "الجحيم مدينة تشبه لندن تماماً" ولو أنه كتب هذا البيت بعدما يزيد قليلاً عن القرن لكان أمامه مجال واسع للاختيار بين اوشفيتز ويلسن وداخاو. ولم يكن للاختلاف بينها أية أهمية فكل منها رهيبة مثل الأخرى.

كانت داخاو أحد أول معسكرات الاعتقال التي أقامها النازيون. ويصر معظم الألمان أنهم لم يكونوا يعرفون شيئاً عن أماكن كهذه. وحقيقة الأمر أنهم كانوا يعرفونها معرفة تامة. وربما كانوا لم يعرفوا بما كان يجري فيها أو إلى أي درك من الانحطاط غرق سادتهم المسعورون. ولكنهم كانوا يعرفون. لقد كان لدى الألمان دائماً موهبة تخفيف التغييرات وما من أحد يدرك ذلك أكثر من الغزو الألماني ذاته. فإن لم يكن الأمر كذلك لماذا كان مواطنو الرايخ الثالث يشحبون لمجرد ذكر معسكر اعتقال؟

في عام 1933 كتب صحفي اسمه هانس ديتريش في "كوبورجرازايتونغ"

---

(1) الرايخ هو ألمانيا أو الإمبراطورية الألمانية المقدسة. الرايخ الأول منذ تأسيس الإمبراطورية حتى انحلالها عام 1806 والرايخ الثاني هو الإمبراطورية الألمانية من 1871 حتى 1919 والرايخ الثالث هو الدولة النازية من 1933 إلى 1945.

مقالاً مطولاً عن معسكر داخاو المفتتح حديثاً. وقد أسماه "مؤسسة ثقافية لمجموع أولئك الذين، من أي جنس أو معتقد أو موقف سياسي كانوا، فإنهم ليسوا راغبين في إدراك حقيقة أن الرايخ الثالث قد بزغ فجره تحديداً وبما لا يدع مجالاً للشك". وتابع إلى وصف معظم نزلاء داخاو بأنهم "هجناء أبناء زنا نتاج لقاءات عابرة مع يهوديات أو زنجيات أو مونغوليات أو ما يعرف الشيطان وحده من أي فساد دموي آخر".

وتابع إلى القول: "يجب ألا يموتوا فقط بل يجب أن ينقرضوا، وما لم تتم إزالة هذا الجزء المريض، لأنه غريب، من دمنا الألماني، وما لم يختف دون أن يترك أثراً فلن يتأكد بصورة نهائية مستقبل شعبنا".

كم يجب أن يكون التعبير صريحا؟! لقد كان هذا إنذاراً مفصّلاً بما سيأتي. في ذلك الحين كان في داخاو ما يقرب من ألفي نزيل. وكان قد قتل منهم خمسون شخصاً. وأحد سعداء الحظ الذي استطاع أن يهرب ويتحدث عن الأمر كان هانس بيلمر، وهو عضو شيوعي في الرايخستاغ، ولقد وصف صغائر الأمور مثل الضرب الذي يمارسه حرس (إس. إس)[1] بأنه كان قاسياً إلى درجة أن لحم الضحايا كان يتدلى من أجسادها "كالخيوط".

ولم تكن هذه إلا البداية، ولم تكن هذه الكشوفات إلا تنويهات مروعة بما سيأتي في المستقبل.

من أوائل الفظائع "التلقائية" للإرهاب ما حدث ليلة 9 تشرين الثاني (نوفمبر) 1938. من الناحية الرسمية كانت رداً شعبياً ساخطاً على اغتيال أرنست فوم راث، السكرتير الثالث للسفارة الألمانية في باريس، على يد

---

(1) شوتز سنافل أو ذوو القمصان السوداء، وهي فئة مختارة من الحزب النازي كانت تشرف على تنظيمات مثل البوليس السري (الغستابو) والحرس الشخصي لهتلر وحرس معسكرات الاعتقال.. (الموسوعة).

لاجئ يهودي شاب نصف مجنون اسمه هرتزل غرنسيان. ومن الناحية العملية كانت البداية بأمر من جوزيف غوبلز نفسه وأشرف على تنظيمها رينهارد هايدريك، نائب هملر ورئيس قوات الأمن (إس دي).

وما توصلت إليه المسألة هو إطلاق العنان لمذبحة على مستوى البلاد كلها ضد اليهود عقاباً لهم على "جرائمهم النكراء". اعتقل عشرون ألف شخص وذبح ما يقرب من مئة وعشرين وصودرت سبعة آلاف وخمسمئة من المتاجر اليهودية ودمر ثمانمئة وخمسة عشر متجراً، وهدم مئة وواحد وسبعون مسكناً وأحرق مئة وستة وسبعون كنيساً ودمر ستة وسبعون منها تدميراً كاملاً.

خلال حمام الدم هذا طرد اليهود من الجنسين ومن الأعمار كافة من بيوتهم وتعرضوا للضرب وعذبوا بأكثر من وسيلة، وحتى مرضى المستشفيات تم جرهم من أسرَّتهم وإلقاؤهم في الشوارع. وقد قالت إحدى الراهبات التي تتبع دورة تمريض فيما بعد: "لم أحلم في حياتي أن الناس يستطيعون أن يفعلوا أموراً كهذه. لقد خُيِّل إليَّ أنني في مسلخ".

وكانوا في بعض المدن يجبرون على السير حفاة أو على الزحف على ركبهم فوق الزجاج المكسور فيما يبصق عليهم الجمهور الساخر ويلقي عليهم النفايات. ألقيت امرأة مشوهة على الأرض وانتزعت منها ساقها الاصطناعية وكسرت، فيما كان الزعران من ذوي القمصان الرمادية يحطمون بيتها. وكان محارب قديم من الحرب العالمية الأولى يقف أمام بقايا متجره ويلبس أوسمته العسكرية وقد تعرض لضرب مبرّح لأنه يدنس الأوسمة الألمانية. وقبض جنود العاصفة النمساوية على امرأة عجوز فأجبروها على أن تمتطي مشعاع (رادياتور) سيارة زوجها وهي تسير عبر البلدة. ثم ألقيت في نهر مجاور في النهاية.

واعتقل زوجان شابان وأجبرا على التخلي عن ابنهما البالغ من العمر عشرة أشهر وتركه في شقتهما. وظل الجيران يسمعون بكاء الطفل لمدة يومين متتاليين قبل أن يسكت سكوتاً نهائياً. وفي فيينا احتج رجل يهودي كان أشجع من زملائه الذين ضربهم الغستابو ضرباً مبرحاً، وصاح "نحن بشر"...

وأعيد الضرب بشدة أكبر إلى أن عجز الرجل عن المقاومة فصاح لاهثاً "نحن خنازير". الهجمات التي شنت على اليهود في التاسع والعاشر من تشرين الثاني لم تصدم العالم الخارجي بأسره فقط، بل إنها أثارت غضب الألمان الدمثين الذين كانت ما تزال لديهم الجرأة على الاحتجاج. وحاول ضابطان من افرماخت أن يقفا في وجه جمهور برليني لصالح يهوديين محاصرين، لكنهما أجبرا على الانسحاب حفاظاً على حياتهما.

وما يجعل هذه الأحداث مهينة بشكل مضاعف هو أنها لم تكن تتم دائماً على أيدي سفاحين محترفين. فقد اشترك أستاذان جامعيان اشتراكاً فعلياً في تدمير كنيس في ألمانيا الغربية، المسؤول عن الجمعية التاريخية المحلية ومعلم اللغات الشرقية في مدرسة مجاورة. ولم يكن هؤلاء همجاً متوحشين بل هم أناس متحضرون كانوا يحملون البلطات والمشاعل. ووصفت "مونشيرز ايتونغ" هذا الوضع في عددها الصادر في 11 تشرين الثاني 1938 كما يلي: "في ميونيخ، كما في المدن الأخرى تدفق الناس إلى الشوارع. العمال والمسؤولون والتجار، كلهم، انضموا إلى التظاهرات العفوية المعادية لليهود".

أما "ديلي تلغراف ومورننغ ستار" في اليوم ذاته فقد وصفت الأمر بطريقة مختلفة. قال مراسل الصحيفة: "الهستيريا والحقد العنصريان يبدو أنهما قد سيطرا سيطرة كاملة على أناس كانوا في حالات أخرى دمثين. لقد رأيت نساء يلبسن آخر موضة وهن يصفقن بأيديهن ويزعقن فرحاً فيما

كانت أمهات محترمات من الطبقة الوسطى يرفعن أطفالهن عالياً لكي يتفرجوا على المشهد الظريف".

وكما أشار ويليم ل. شيرر في "ظهور الرايخ الثالث وسقوطه" لم يكن الألمان يفعلون شيئاً إلا اتباع تعاليم مارتن لوثر، الذي كان قد أدان اليهود منذ أربعمئة عام بقوله: "فلتحرق معابدهم ومدارسهم ولتحطم بيوتهم وتدمَّر".

ولم يكن اليهود، بالطبع، الهدف الوحيد لإرهاب النازية. البشر كلهم الذين صنفهم علماء هتلر المزيفون على أنهم "غير آريين"، كانوا يعتبرون "أونتر منشن" أو (بشراً من الدرجة الثانية) ليسوا مؤهلين إلا للعبودية أو للإبادة، وحتى الألمان (الأقحاح) لم يُستثنوا من ذلك. فالذين كانت لديهم شجاعة مقاومة الجنون الذي يسود ألمانيا كثيراً ما كانوا يجدون أنفسهم وراء الأسلاك الشائكة لمجرد إبداء إشارة غير محترسة لطالبة مدرسة. أحد هولاء كان جوهانس ولفخانغ ميترن. فميترن هذا المتحدر من عائلة ذات تقاليد عسكرية عريقة، تدرب هو الآخر على أن يكون ضابطاً عسكرياً واستلم منصبه في فيرمغت تماماً في الوقت الذي استلم فيه النازيون السلطة. ولقد ذعر مما رأى حوله ورفض أن يشارك فيما يجري، وأكثر من ذلك؛ حين طلب إلى الضباط العسكريين كافة أن يقسموا يمين الولاء لأدولف هتلر، كان ميرن واحداً من القلائل الذين كان لديهم من قوة القناعة ما يدفعهم إلى الرفض. وبفعلته تلك لم يتخلَّ عن العمل الذي كان قد هيأ نفسه له منذ الطفولة فحسب، بل إنه جعل من نفسه، وفوراً، عدواً محتملاً للرايخ الثالث.

وكان من الممكن أن يبقى ميترن دون مضايقات، وحتى الحرب على الأقل، لو أنه لم يكن يعمل بنشاط في منظمة الشباب الكاثوليكي البارزة. ولكن حين بدأ الغستابو في تحطيم التجمعات التي رفضت تقديم الولاء

الأعمى لهتلر كافة، صارت أيام ميترن معدودة. اعتقل وطلب إليه تسليم قائمة بحوزته تحتوي على أسماء زعماء الشباب الكاثوليكي. وعندما رفض أُخضع للتعذيب الفوري. ولأنه اعتبر أنه قد يقتل في أيه لحظة فقد قرر أن يسقط وهو يقاتل. استجمع كل ذرة من قواه وشن هجمة شخصية مفاجئة على المحقق المذعور. وكانت محاولة جيدة ولكن عدداً من سفاحي الغستابو الأقوياء أمسكوا به وظلوا يضربونه حتى فقد الوعي. وحين أفاق وجد نفسه في معسكر الاعتقال.

وكانت ملاحظة ميترن أن السجناء من "الألمان الأقحاح" هم الذين يعاملون غالباً بقسوة تفوق ما يعامل به الآخرون، لأنهم كانوا يعتبرون من قبل مراقبيهم "خونة". والمعدات التي كانت سائدة بين حراس المعسكر تضم سياط الخيل والهراوات وأنواعاً أخرى من السياط. وكان الروتين اليومي أن يجلد السجناء وأن يضربوا بأعقاب البنادق وأن يداس عليهم بأحذية ذات مسامير بارزة (بعد الحرب بقليل لاحظ الكاتب، حين كان في روتردام، أن الهولنديين بعد هبوط الليل ما زالوا يتوارون في المداخل لدى سماع وقع الخطوات الثقيلة على الرصيف، وهذا من ترسبات الخوف من الأحذية ذات المسامير من أيام الاحتلال). وفي ساشنهوسن، وهو معسكر قرب برلين، ارتفعت نسبة الانتحار ارتفاعاً مخيفاً إلى درجة أن التيار الكهربائي كان لا بد من فصله عن الأسلاك الشائكة. وكان السجناء كثيراً ما يجبرون على الوقوف بانتصاب طوال خمس وعشرين ساعة متوالية دون طعام أو شراب أو السماح بالذهاب إلى مرحاض المعسكر وكان الرفس والضرب عقاب الذين يتساقطون إعياء.

وكان ميترن حسن الحظ إلى درجة كبيرة. فبعد تنفيذه حكم أربع سنوات أطلق سراحه. إلا أنه كنزيل سابق لمعسكر الاعتقال أفرده جميع أبناء بلده السابقين. وأخيراً وظفه نزيل سابق آخر في معسكرات الاعتقال

كان يدير إذاعة سرية مناهضة للنازية. وصار يذيع حقيقة ما يجري في ألمانيا إلى أن صار الغستابو على وشك اكتشافهما. فهرب كل من ميترن وولي نعمته، الذي كان قد أصبح الآن حماه، تحت ستار الظلام عبر حقول الألغام إلى لوكسمبورغ، ولولا تدريب ميترن العسكري لتمزق الرجلان إرباً. وانتهت قصته نهاية سعيدة. حيث نجح في إخراج زوجته من ألمانيا ورحلا معاً في النهاية إلى الولايات المتحدة.

ربما كانت أشنع الفظائع التي اقترفها النازيون تلك التجارب العلمية وغير العلمية التي أجريت على "بشر التجارب" الذين لم يكن أي منهم متطوعاً ومعظم هذه العمليات تمت بتوجيهات رجال (إس.إس) الذين كان يمكن أن يكونوا موضع سخرية الطب في بلدان أخرى لو أنهم تقدموا بفرضيات النظريات التي كانوا يتقدمون بها. أما نقمتهم على البشر فكانت قصة أخرى. غير أننا يجب أن نتذكر أنهم لم يكونوا يشتغلون برجال ونساء بل بـ"بشر من الدرجة الثانية" أو من هم أقل من البشر وليست لهم، حسب المنطق النازي، أية قيمة أكثر من الجرذان أو الهمستر[1] أو الكلاب في المختبر.

كانت عمليات البتر والجراحة الداخلية تتم دون تخدير. ولم ينج إلا القلائل ليحكوا عن أهوال تجاربهم، وذلك على الرغم من أن يهودياً هولندياً اسمه مانس بينغ نجا. أجرى له الدكتور هانس إيسيل، طبيب بوشنغالد، الذي كان معروفاً بأنه أقل الجراحين إنسانية، عملية استئصال معدة، وليس من المعروف بالضبط كم من الأبرياء عذبهم إيسيل حتى الموت تحت ستار الدراسة العلمية. والمعروف أنه بعد الحرب استقر في ميونيخ حيث صار يتلقى منحة حكومية وقرضاً معفى من الفائدة لكي

---

(1) حيوان من القوارض شبيه بالجرذ.

يؤسس لحياة مدنية جديدة. وحين انتشرت المعلومات حول من هو وما الذي فعله، هرب إلى مصر حيث من المفروض أنه يعيش اليوم حياة مرفهة.

وأجريت "تجارب" أخرى على نزلاء معسكرات الاعتقال كانت لا تقل رهبة عن تجارب إيسيل. بعضهم كانت تطلق عليهم رصاصات مسمومة لاختبار فعاليتها في الحرب وآخرون كانوا يعرضون لغازات سامة في ظروف اختبارية. وكان الناس يوضعون في غرف مفرغة لمعرفة المدة التي يستطيع الإنسان أن يظل فيها حياً وهو على ارتفاعات عالية أو دون أوكسجين. وكانت بالنسبة إلى الضحايا، كما وصفها سجين شاهد عيان، رهيبة - فحين يقل الأوكسجين وينخفض الضغط كان "أشخاص التجارب" - كما كان يسميهم معذبوهم النازيون - تزداد آلامهم شيئاً فشيئاً حتى تتحول إلى آلام مفرطة حين تنفجر رئاتهم. كما أن الضغط الداخلي على أغشية الطبل في الآذان كان يسبب لهم عذاباً يوصلهم إلى الجنون. ومن الطبيعي أن يحاولوا اقتلاع شعرهم أو أن يضربوا رؤوسهم على جدران غرف الضغط وهم يزعقون ويضربون الجدران حتى يموتوا.

وكان المسؤول عن هذه الاختبارات الفظيعة هو الدكتور سيغموند راشر الذي أجراها تحت إشراف هاينريش هيملر الشخصي. واختبارات راشر كلها كانت تنفذ لصالح لوفتوف.

ولقد كان شمولياً في أبحاثه إلى درجة أنه، في النهاية، زود غرف الضغط بمبردات تجبر نماذجه التعيسة على مواجهة شروط أقرب ما تكون إلى الارتفاعات العالية. وكان راشر أيضاً مسؤولاً عن الكثير من "تجارب التجميد" الشائنة، والتي كان فيها الأشخاص يتعرضون إلى البرد الشديد المستمر حتى الموت. وكان الهدف معرفة مدة مقاومتهم وكم يستطيعون البقاء أحياء وما الذي يمكن صنعه لإطالة حياة الطيارين الذين يسقطون في مياه متجمدة. وكان نزلاء داخاو، ضحايا راشر، إما أن يتم تغطيسهم

في راقود[1] أو يتركوا عراة في الخارج طوال الليالي الثلجية. وفي أواخر شتاء عام 1943 حين حدثت موجة برد شديدة، ترك بعض السجناء عراة في العراء لمدة 14 ساعة تجمدت فيها أطرافهم وسطوح أجسامهم الخارجية وانخفضت درجة حرارتهم الداخلية إلى حدود 77 فهرنهايت[2]، وكان أسلوب العمل هو تجميد السجناء تدريجياً مع متابعة النبض والتنفس ودرجة الحرارة وضغط الدم وغير ذلك. ولقد أصبحت صرخات الضحايا مزعجة للطبيب ومساعديه إلى درجة أنه أخيراً بدأ يستخدم المخدر.

وكانت هناك تجارب أخرى بينها تدفئة "أشخاص مثلجين". وبناء على تقرير راشر أجريت أكثر من أربعمئة تجربة على ثلاثمئة ضحية. وقد مات من هؤلاء ما يقرب من تسعين شخصاً كنتيجة مباشرة لمعالجتهم، وجن عدد ممن تبقى. أما الآخرون فقد قتلوا لكيلا يتحولوا إلى شهود مزعجين فيما بعد.

ونتيجة لتجارب التجميد أثار الدكتور راشر غضب رئيسه هيملر، فأعدم مع زوجته قبل نهاية الحرب بقليل.

ولقد أجريت، بالطبع، "تجارب" لا حصر لها على نزلاء أحياء في معسكرات الاعتقال. وكان بينها الحقن بالسم أو بالهواء والبكتريا (معظمها مؤلم وكلها قاتلة) وإثارة الغنغرينا في الجروح وتطعيم العظام وتجارب التعقيم[3]. إن تصرفات بعض الناس الذين كانوا ساديين واضحين مسألة مفهومة، أما الفظائع التي كانت تتم بدم بارد، وتنفذها، كإجراء روتيني، مجموعة كبيرة من الأطباء والنازيين فمسألة يصعب فهمها. وما لا يمكن استيعابه على الإطلاق هو أن "عملهم الإجرامي كان

---

(1) وعاء ضخم.

(2) 25 على مقياس الدرجة المئوية.

(3) التسبب بالعقم.

معروفاً لدى آلاف من الأطباء في الرايخ، لم يقم أي منهم، بمقدار ما تبين لنا التقارير والوثائق، بالتعبير عن أي احتجاج علني" (ظهور الرايخ الثالث وسقوطه صفحة 979).

وعلى الرغم من أن عجز ممتهني الطب الألمان عن الاحتجاج على هذا الامتهان الفظ للحياة الإنسانية لن يكون من الممكن فهمه تماماً، فإن هناك مفاتيح لفهم سلوك رجال (إس.إس). ففي إحدى محاكمات جرائم الحرب، أوضح جوزيف كرامر مسؤول إس.إس "وحش بلسن"، كيف أنه ذات مرة سمم بالغاز ثمانين امرأة في أثناء خدمته في اوشفيتز. (ولقد صودرت جثثهن من قبل الدكتور أوغست هيرت التابع لمعهد تشريح ستراسبورغ)، وبعد وصف الطريقة التي اتبعها لتأمين جثث جديدة وطازجة سئل كرامر كيف كان يشعر تجاه الأمر في ذلك الحين، فأوضح ببرود أنه لم تكن لديه أية مشاعر حول الموضوع على الإطلاق. وكانت أسبابه بسيطة.

قال: "لقد تلقيت أمراً بقتل ثمانين من التريلات بالطريقة التي قلتها لكم. وبالمناسبة هذا هو الأسلوب الذي تدربت عليه".

وقول كرامر هذا - ولنترك جانباً حياده العقلي المرعب - لا يمكن إغفاله بسهولة. فقد يكون مفتاحاً أساسياً نحو فهم البرودة التي كانت تتم بها الفظائع النازية "الأسلوب الذي تدربت عليه".

هناك اتجاه اليوم، لاعتبار القتلة المحترفين الملفعين بالسواد "شوتز ستافل" أنهم مجرد فرع آخر من فروع قوات هتلر المسلحة. ولكنهم كانوا شيئاً أكثر من ذلك. لقد كانوا، حسب كلمات نشيد المارش العسكري للإس.إس:

بقبعاتنا السوداء، وبرأس موتنا الفضي
نحن الأمة ورجالها.

ربما كان أفراد الإس.إس وضباط الصف مجرد شباب عاديين قبل أن يتلقوا تدريبهم. ولكن حين أنهى رؤساؤهم تدريبهم كانوا قد حولوهم إلى أدوات جاهزة للتدمير والقتل. وفي السيرة الذاتية لأحد رجال الإس.إس، والتي عنوانها بالإنكليزية "قبور الآخرين"، نجد صورة واضحة مرعبة عن العملية التي كانت تحوّل الرجال إلى أسلحة للقتل. في بدايات التدريب يتم تلقينهم كل وسيلة يمكن تصورها للقتل بما في ذلك الإنهاك بأول أوكسيد الفحم وحقن الهواء في الأوردة و"الأساليب اللطيفة الأخرى التي تهدف إلى التخلص من أبناء جلدة المرء". ويتابع الكاتب إلى وصف أساليب أخرى أكثر تعقيداً في التصفية الجسدية فيقول: "حقن القلب بالنترول والفينول والغازولين أو التربنتين، التي لها كلها خاصة بارزة واضحة في تحقيق موت المرء، لم يعد فيها أي شيء سري بالنسبة إلينا".

إلا أنه صار أقل ثرثرة حين وصل الأمر إلى مسألة تشريح الجثث. يحكي كيف أن بعض أتباع هتلر الأغرار قد مرضوا من الرؤية والرائحة. ولم يعرفوا أن هذا ليس إلا التدريب الأساسي على التعذيب وارتكاب المجازر - أم أنهم عرفوا؟!

وفيما بعد، حين أصبح ضابطاً متمرناً في لواء فايكنغ على الجبهة الروسية، صار القتل المتعمد للأسرى العزل مجرد جزء من العمل اليومي. وكان هناك بعض الأشخاص الذين أمر إس.إس بإطلاق النار عليهم دون مقدمات، وكان بينهم مفوضون سياسيون ويهود.

وقول رجال الإس إس الواضح هذا: (إن أعمال التصفية والإعدام والتطهير التي هي كلمات مرادفة للتدمير تصبح كلها مبتذلة وخالية من المعنى حين يتعود المرء عليها).

وكما قال جوزيف كرامر، إنه الأسلوب الذي تدربوا عليه. وحين يستحوذ على المرء يسهل عليه ما تبقى.

وبعد ذلك أيضاً، بعد رؤية تعذيب سجين روسي وإعدامه لأنه رفض أن يتكلم (قطع عنقه تماماً) علق هذا الكاتب بأنه صار لا مبالياً تماماً اتجاه آلام ضحاياه وقال: "شخصياً، أنا عاجز عن الإحساس بأية شفقة تجاه الرجال أو النساء".

إن كانت هذه أحاسيس "دافن" أو ضابط إس إس مقاتل فإننا نستطيع أن نتصور أي نوع من الوحوش البشرية استخدموا لإدارة معسكرات الاعتقال.

تصور، إذا استطعت، الحدود القصوى للفساد المنحرف الذي كان وراء الآمر كوش في بوشنغالد الذي حصلت زوجته، أليس (عاهرة بوشنغالد) على سمعتها السيئة لسبب أساسي هو أنها تفضل أن تصنع الشمعدانات ومنافض السجائر من أشلاء البشر. أما الآمر ذاته فيكفي هنا أن نقول إن أعماله المتطرفة كانت تفوق حتى ما يتوقعه رؤساؤه في الإس إس، والذين حكموا عليه بالإعدام وتخلصوا منه إلى الأبد.

ولكن هل القضاء على كوش ومن هم على شاكلته ينهي التاريخ المأساوي الطويل لـ "وحشية الانسان تجاه الانسان"؟! أبداً. حين يموت كوش واحد يظهر مكانه أكثر من عشرة، ليس فقط في ألمانيا بل في أنحاء العالم كافة. إن المرارة والكراهية تخلد كل منهما نفسها. فالأمريكيون الذين عانوا من المهانات الشنيعة على أيدي اليابانيين إبان مسيرة موت باتان سيكونون أقل قابلية للعفو عما مضى من أبناء بلدهم الذين لم يذبلوا في معسكرات الاعتقال القذرة التي تفوح منها رائحة الموت.

ليس هناك جواب ما لم نكن راغبين في قبول التفسير القائل بأن هناك خللاً أصيلاً في الشخصية الإنسانية، وإلا فكيف نستطيع تقديم تفسير العودة المعاصرة إلى التعذيب والوحشية اللذين يتفشيان في أنحاء العالم كافة؟!

"التعذيب"، كما يقول جان بول سارتر "طاعون يصيب عصرنا كله" لقد أدلى بهذا القول عام 1957 بعد أن اهتز العالم لأنباء الفظائع التي كان جنود المظلات والشرطة الفرنسية يمارسونها بحق الجزائريين سيان كانوا من أصل أوروبي، أو أفريقي شمالي. إن عشرين عاماً. بالكاد، كانت قد مرت على الاحتلال الألماني. وكثير من الرجال أنفسهم الذين كانوا ضحايا للغستابو صاروا يعاملون الآخرين كما كانوا يعاملون وبأسوأ ما تعنيه الكلمة. ولقد بذلت حكومة ديغول قصارى جهودها لقمع الحقيقة. ولم يشأ المسؤولون المرتبكون في باريس أن يعرف العالم أن فرنسا قد تعلمت جيداً تقليد فاتحيها السابقين. ولكن ديغول، مثله مثل هتلر، كان عاجزاً عن منع الحقيقة من التسرب واستطاع فرنسيون شجعان، من أمثال هنري أليغ، أن يقاوموا أسوأ ما يمكن أن يوقعه بهم زعماؤهم.

كان أليغ رئيس تحرير جريدة جزائرية يؤمن بمبادئ حرية التعبير. ولكن بعد أن فُرض الحظر على جريدته من قبل السلطات اعتقله مظليو الفرقة العاشرة في 12 حزيران 1957. لقد دام اعتقاله شهراً واحداً تعرض خلاله للضرب والتعذيب والإذلال من قبل فرنسيين كانوا يحاولون يائسين إجبار أليغ على الكشف عن أسماء ثوريين جزائريين مشتبه بهم.

وخلال فترة احتجازه عُري وألقي على مدفأة وأحرقت أعضاؤه التناسلية وحلمتا ثدييه بمشاعل ورقية. ولنتذكر أن هذه الفظائع قد مارسها معه الفرنسيون أبناء جلدته. لقد تم تغطيس رأسه في الماء حتى أوشك على الاختناق. ولقد تم إغراقه في الماء وإجباره على شرب الماء المالح، بل إنه تعرض حتى إلى الحقن ببنتوناك الصوديوم ولكنه ظل يرفض الكلام. ومن أسوأ ما كان على أليغ أن يتحمله من تعذيب على أيدي أبناء بلده الشجعان المعالجة بالصدمة الكهربائية - ومن النوع الذي لا يستخدم في المستشفيات. حيث يتم خلع سرواله وملابسه الداخلية ويوصل القطبان

الكهربائيان إلى أربيتيه[1] ويربطان بمولد. وكانت موجة بعد أخرى من التيار المحطم للأعصاب تندفع داخل جسده. وظل يرفض الكلام. رفس وشتم وهدد بالقتل. أدخل القطبان الكهربائيان في فمه واندفع التيار من جديد. وجعلت الكهرباء من المستحيل عليه أن يفتح فكيه المطبقتين.

قال: "كانت عيناي تحت الجفون المتجعدة تواجهان صوراً من النار وأشكالاً هندسية مضيئة تسطع أمامي. وخيل إليَّ أنني أستطيع أن أحس بهما وهما تنخلعان من محجريهما بسبب الصدمات وكأن شيئاً ما يدفعهما من الداخل" وظل يرفض الكلام.

ورأى أليغ مسناً مسلماً يعذبه المظليون الفرنسيون. كان المسن يصرخ يائساً: "تحيا فرنسا" على أمل إرضاء معذبيه، لكنهم كانوا يكتفون بالضحك ثم متابعة "العمل".

وفي النهاية أطلق سراح ذلك الصحافي الشجاع. ولم يستطع جلادوه أن يجبروه على خيانة زملائه الجزائريين أو الأوروبيين أو المسلمين. وبرفضه أن يقول لهم ما كانوا يريدونه ألحق بهم الهزيمة وجعلهم يعترفون أمام أنفسهم أنهم أقل منه.

بعد إطلاق سراح أليغ كتب عن تجربته في كتاب موضوعي متفجر بعنوان: "السؤال" وهُرب الكتاب إلى فرنسا ونشر. ومن الطبيعي أن حكومة فرنسا أمرت بمصادرة الكتاب بعد ظهوره بقليل. ولكن ليس قبل أن يتمكن كثير من الفرنسيين أن يجدوا فرصة لقراءته. سنفترض أن الجنرال ديغول نفسه قرأ "السؤال" قبل تحوله إلى فيلم "الجحيم". إننا نتساءل ما الذي خطر بباله عندما قرأ كلمات سارتر في المقدمة؟ وخاصة الأسطر التي يقول فيها:

---

(1) الاربية: أصل الفخذ.

"إذا كانت خمسة عشر عاماً كافية لتحويل الضحايا إلى جلادين، فإن أي إنسان في أي وقت يمكن أن يجد نفسه ضحية أو جلاداً".

وكيف يمكن لإنسان ألا يوافق على أن "التعذيب عنف عبثي وليد الخوف. الهدف منه استخراج سر أي شيء من لسان المرء وصرخاته وتقيئه للدم".

والأسئلة التي يجب أن نطرحها على أنفسنا الآن تتلخص في "إلى أين سنصل بعد هذا"؟!

بيرنهاردت ج. هروود

كاتب أمريكي ولد في العام 1926 وتوفي في العام 1987 بعد معاناته مع مرض السرطان.

صدر له 64 كتاباً بحثياً وأدبياً في عدة مواضيع مختلفة منها تاريخ التعذيب، وتاريخ الجنس وتاريخ المخلوقات الأسطورية.

عضو في جمعية المؤلفين والصحافيين الأمريكية.

ممدوح عدوان (1941-2004)

كاتب سوري.

صدر له نحو تسعين كتاباً في الشعر والمسرح والرواية والنثر والترجمات الأدبية والنقدية، إضافةً إلى كتابته العديد من المسلسلات التلفزيونية، والمقالات الصحفية.

حمل إجازة في اللغة الإنكليزية من جامعة دمشق 1966، وعمل في الصحافة منذ 1964. درَّس مادة الكتابة المسرحية في المعهد العالي للفنون المسرحية في دمشق منذ عام 1992.

تمّت استضافته ككاتب زائر في العديد من المؤسسات الأدبية العالمية، كما كُرِّم ونال عدداً من الجوائز في دول عربية عديدة.

إصدارات دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

